علو الهمة في التربية والتزكية

* صدق الله تعالى إذ يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾

[الأنعام: ٣٨].

* ولقد ورد مفهوم التربية بمعناها الحديث في القرآن الكريم في موضعين اثنين:

أحدهما: في سورة الإسراء حيث يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء].

والثاني: في سورة الشعراء حيث يقول المولى سبحانه: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)﴾ [الشعراء].

إن كلمة تربية مأخوذة من ربا يربو، بمعنى: نما ينمو، أو: «زاد يزيد» ومن معاني التربية: بلوغ الشيء كماله على وجه التدريج. ولم يعرف استخدام لفظ «تربية» إلَّا في العصر الحديث؛ إذ كان العرب في القديم يستخدمون لفظ «التأديب»، وكانوا يطلقون على المعلم اسم «المؤدب».

□ يقول الأستاذ الدكتور عبد الكريم بكار: «حين نمعن النظر نجد أن جميع الأمم تعمل في تربية صغارها وكبارها حول ثلاثة محاور أساسية هي:

١- **محور النفس البشرية**، ومفردات فطرتها وميولها ونوازعها.

٢- **إرثها التاريخي والاجتماعي**، والذي يشتمل على مجمل عقائدها ومبادئها، ومعايير الصواب والخطإ لديها، إلى جانب آدابها وتقاليدها وأذواقها.

٣- **ما تعتقد أنه مطلوب لعيش حاضرها**، وجوهري في تلبية حاجات مستقبلها من الصفات والخبرات والمهارات، على نحو ما نشاهده اليوم من الاهتمام بالتعليم والتدريب والتخلق بالأخلاق الحضارية الإنتاجية، من مثل الدقة والفاعلية والحفاظ على الوقت..»(١).

□ وقال: «إن «الوحي» الذي استدبره الغرب - لأسباب تاريخية- هو الذي يمنح إطار التوازن والتكامل للأعمال التربوية، وهو الذي يؤمِّن نوعًا من الانسجام والتلاحم بين متطلبات الفطرة في النفس البشرية، ومتطلبات الانتماء التاريخي والمجتمعي ومتطلبات العيش الكريم»(٢).

وقال: «على حين حرق الغرب مراكب العودة إلى رياض الوحي؛ فإن طريق التصحيح لدينا ما زال مشرعَ الأبواب، إذا ما توفَّر لدينا ما يكفي من الإخلاص والعزيمة»(٣).

□ ونقل أبو الحسن الندوي عن جون ديوتي هذا التعريف العام للتربية: «إن التربية ليست إلَّا وسيلة راقية مهذبة لدعم العقيدة التي يؤمن بها شعب أو بلد، وتغذيتها بالإقناع الفكري القائم على الثقة والاعتزاز، وتسليحها بالدلائل العلمية إذا احتيج إليها، ووسيلة كريمة لتخليد هذه العقيدة، ونقلها سليمة إلى الأجيال القادمة، وإن أفضل تفسير لنظام التربية هي أنها السعي الحثيث المتواصل الذي يقوم به الآباء والمربون

---

(١) «حول التربية والتعليم» للأستاذ الدكتور عبد الكريم بكار (ص١٤)- دار القلم.
(٢) المرجع السابق (ص١٥).
(٣) المرجع السابق (ص١٧).

لإنشاء أبنائهم على الإيمان بالعقيدة التي يؤمنون بها، والنظرة التي ينظرون بها إلى الحياة والكون، وتربيتهم تربية تمكنهم من أن يكونوا ورثة الذي ورثه هؤلاء الآباء عن أجدادهم، مع الصلاحية الكافية للتقدم والتوسع في هذه الثروة»[١].

□ ويقول كذلك: «هي وظيفة اجتماعية، بمعنى أنها من ضرورات كل جماعة إنسانية تريد أن تحافظ على بقائها، وتتطور في سلم الرقي، وأنها يجب أن تتم في ضوء فلسفة اجتماعية، وفي مواقف اجتماعية كذلك، وأن الغاية من التربية هي إنشاء مواطنين يقومون بالوظائف الاجتماعية، التي منها الإبقاء على الثقافة، وترقيتها، وإصلاح عيوبها»[٢].

فهذا مفهوم عام للتربية عند جميع الأمم والشعوب.

□ يقول الدكتور أحمد فريد في كتابه القيم «التربية على منهج أهل السُّنَّة والجماعة»: «أما التربية بالمنظور الإسلامي السلفي الذي نقصده ونهدف إليه وننادي به فهي: العمل على بناء أفراد بعقائد سلفية صحيحة، ومفاهيم إسلامية نقية، وأخلاق زكية، وأعمال مرضية، وتجهيزهم كلبنات لإعادة بناء المجتمع المسلم.

وبتعبير أخصر وأقرب: تربية جيل على نمط الصحابة ﷺ، يعتقدون معتقدهم، وينتهجون نهجهم في فهم الكتاب والسنة، ويقتدون بهم في أخلاقهم وأعمالهم وسمتهم.

---

(١) «محاضرات الجامعة الإسلامية» (٣٦٦- ٣٦٧) من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة – الموسم الثقافي (٣٧٩- ٣٨٠) بتصرف.

(٢) «محاضرات الجامعة الإسلامية» (٣٧٩- ٣٨٠) بتصرف.

فالواجب على الآباء والمربين أن يتأسَّوْا برسول الله ﷺ ويتلمَّسوا خطاه ويقفوا أثره! كيف ربى النبي ﷺ الصحابة الكرام؟ وكيف سقاهم القرآن؟ وكيف رَقَّاهم في درجات الإيمان؟ حتى صاروا ببركة تربيته ﷺ قممًا شامخة في سماء المجد والرفعة، وضربوا أروع الأمثلة في الصبر والجهاد والجِلاد، والصيام، والقيام، والدعوة لدين الملك العلام، وكانوا على أعلى مستوى من الإخلاص، والمحبة لله عز وجل، والتوكل عليه، والرضا به، فبارك الله عز وجل في دعوتهم، وسارت شمس الإسلام -ببركة جهادهم وصبرهم- تنير المعروف من الأرض، من مات منهم أفضى إلى موعود الله عز وجل له بالجنة، ومن عاش صار أميرًا على قطر من الأقطار، أو مصر من الأمصار، وبقيت الأمة - ببركة جهادهم وبذلهم- منيعة الجانب، شامخة البنيان، راسخة الأركان، حتى خرج الناس عن منهاجهم، وظهرت البدع والفرق، وتسابق الناس إلى الدينار والدرهم، وضعفت الأحوال الإيمانية، والمفاهيم السلفية حتى صارت بلاد المسلمين كلأً مباحًا لكل ظالم ومعتدٍ، ومرتعًا خصبًا لترويج الأفكار الهدامة، ونشر المذاهب الباطلة، فعشش في بلاد المسلمين دعاة العلمانية والإباحية، وصار المسلم الملتزم بدين الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ أذل من الشاة، فصار الإسلام غريبًا في بلاده، مطاردًا من أهله وعشيرته، وهل بعد هذه الغربة غربة، وبعد هذا البلاء بلاء؟! فإلى الله المشتكى. فلا شك في أن التربية هي الخطوة الأولى لبناء المجتمع المسلم وإقامة الخلافة الإسلامية التي بشر بعودتها رسول الله ﷺ، والتي حين تعود لا بد أن تكون على منهاج النبوة كما أخبر النبي ﷺ.

فعلى الدعاة إلى الله عز وجل أن يبدؤوا بما بدأ به النبي ﷺ حتى ينتهوا بإذن الله إلى ما انتهى إليه من عز الإسلام والمسلمين، فما فارق النبي ﷺ الدنيا

حتى قرت عينه بنصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجًا وعم الإسلام جزيرة العرب، ثم فتح الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسانٍ البلادَ شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا حتى استنار أكثر المعروف من الأرض بدعوة الإسلام، وسارت دعوته سير الشمس في الأقطار، وسيبلغ بإذن الله دينُه ما بلغ الليلُ والنهار، فلا بد من معرفة المؤهلات التي أهلت الصحابة رضي الله عنهم للنصر والتمكين، والوصول إلى رضا رب العالمين، ثم تربية أجيال الصحوة على ما تربى عليه الصحابة الكرام، وقبل البدء بهذه التربية ينبغي أن يُعلم أن الصحابة كانوا في زمن لم تكن فيه بدع وأهواء، وإنما ظهرت البدع في آخر عصرهم، مصداقًا لقول النبي ﷺ: «**فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا..**»[1].

• وقوله ﷺ: «**وستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلَّا واحدة..**»[2].

□ وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إنكم قد أصبحتم اليوم على الفطرة، وإنكم ستُحدِثون ويُحْدَثُ لكم، فإذا رأيتم محدَثةً فعليكم بالعهد الأول».

□ وقال الإمام مالك رحمه الله: «لم يكن شيء من هذه الأهواء على عهد

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٦، ١٢٧)، وأبو داود (١٢/ ٣٥٩، ٣٦٠) «عون السنة»، والترمذي (١٠/ ١٤٤) «عارضة العلم»، وابن ماجه (٤٣) «المقدمة»، والدارمي (١/ ٤٤، ٤٥) «اتباع السنة». وقال الترمذي: حسن صحيح وصححه الألباني.

(٢) رواه أبو داود (٤٥٧٢) «السنة»، والدارمي (٢/ ٤٢١)، وأحمد (٤/ ١٠٢)، والحاكم (١/ ١٢٨) وقال الحاكم: هذه أسانيد تقوم بها الحجة في تصحيح هذا الحديث، ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظ، وصححه شيخ الإسلام والشاطبي وهو في «الصحيحة» رقم (٢٠٤).

رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم».

وإنما ظهرت البدعُ في عهد الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد نادى علماء العصر وأئمة المسلمين بما يسمى «بالتصفية والتربية» فلا بد من صحوة علمية مترشدة، تقوم بتصفية التراث الإسلامي مما علق به عبر القرون والأجيال، ثم تربية أجيال الصحوة على الإسلام الخالي من البدع والخرافات والمذاهب الباطلة والأقوال العاطلة على الهَدْى النبوي المبارك وعلى منهج السلف رضي الله عنهم»[1].

«التصفية والتربية» للشيخ محمد ناصر الدين الألباني محدّث الديار الشامية رحمه الله :

□ قال العلامة الألباني بركة الزمان وحسنة الأيام:

لا بد اليوم من أجل استئناف الحياة الإسلامية من القيام بهذين الواجبين: «التصفية»، و«التربية».

وأردت بالأول منهما أمورًا:

الأول: تصفية العقيدة الإسلامية مما هو غريب عنها كالشرك، وجحد الصفات الإلهية، ورد الأحاديث الصحيحة لتعلقها بالعقيدة الصحيحة ونحوها.

الثاني: تصفية الفكر الإسلامي من الاجتهادات الخاطئة المخالفة للكتاب والسنة.

الثالث: تصفية كتب التفسير والفقه والرقائق وغيرها من الأحاديث

---

(١) «التربية على منهج أهل السنة والجماعة» للدكتور أحمد فريد (ص١٩ – ٢١).

الضعيفة والموضوعة والإسرائيليات المنكرة.

وأما الواجب الآخر فأريد به: تربية الجيل الناشئ على هذا الإسلام المصفى من كل ما ذكر، تربية إسلامية صحيحة منذ نعومة أظفاره، دون أي تأثر بالتربية الغربية الكافرة.

ومما لا شك فيه أن تحقيق هذين الواجبين يتطلب جهودًا جبارة متعاونة من الجماعات الإسلامية المخلصة التي يهمها حقًّا إقامة المجتمع الإسلامي المنشود، كل في مجاله واختصاصه، وأما بقاؤنا راضين عن أوضاعنا، متفاخرين بكثرة عددنا، متواكلين على فضل ربنا، أو خروج المهدي ونزول عيسى صائحين بأن الإسلام دستورنا، جازمين بأننا سنقيم دولتنا، فذلك محال بل وضلال لمخالفته لسنة الله الكونية والشرعية معًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

• وقال ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم**»(١).

من أجل ذلك قال أحد الدعاة الإسلاميين اليوم: «أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تُقَمْ لكم في أرضكم»، وهذا كلام جميل جدًّا، ولكن أجمل منه العمل به.

* ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٣٤٤٥) وأحمد، وابن شاهين، والطبراني في «الكبير»، وابن عدي، وأبو نعيم في «الحلية»، وصححه الألباني بطرقه في «الصحيحة» رقم (١١)، و«صحيح الجامع» (٤٢٣).

﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾ [التوبة].

إلى أن قال رحمه الله: «ثم لا بد لك مع ذلك من العناية بتربية نفسك ومن يلوذ بك، تربية إسلامية صحيحة، لا شرقية ولا غربية، وتخليقها بالأخلاق المحمدية، وبذلك يصلح قلبك، وتسعد في الدنيا قبل الآخرة، وما الأمر الهام الذي ينشده دعاة الإسلام إلَّا أثر من آثار هذه السعادة، إذا أخذوا بأسبابها التي تجمعها كلمتا: «التصفية، والتربية».

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)﴾ [الأنفال]»[١].

□ ويقول الشيخ الألباني رحمه الله أيضًا: «أنا أرى أن أي إصلاح يجب أن يقوم به الدعاة إلى الإسلام، والناشدون لإقامة دولة الإسلام بإخلاص هو أن يعودوا إلى أن يُفَهِّموا أولًا أنفسهم؛ ويُفَهِّموا الأمة ثانيًا الدين الذي جاء به الرسول ﷺ، وذلك لا سبيل إليه إلَّا بدراسة الكتاب والسنة».

✍ ويقول: «نحن نعتقد أن كل ما جاء به الرسول ﷺ يجب أن نتبناه دينًا أولًا، مع وزنه بأدلة الشريعة؛ إن كان فرضًا ففرض، وإن كان سنّة فسنّة».

✍ ويقول: «الرجوع إلى الدين هو الرجوع إلى الكتاب والسنة؛ لأن ذلك هو الدين باتفاق الأئمة، وهو العصمة من الانحراف والوقوع في الضلال».

✍ ويقول: «إذا أردنا العزة من الله تبارك وتعالى، وأن يرفع عنا الذل

---

(١) «سلسلة الأحاديث الضعيفة» مقدمة المجلد الثاني.

وينصرنا على العدو؛ فلا يكفي لذلك ما أشرنا إليه من وجوب تصحيح المفاهيم، ورفع الآراء التي أوّلت الأدلة الشرعية عند أهل العلم. وإنما هناك شيء آخر مهم جدًّا – هو بيت القصيد- لتصحيح المفاهيم؛ ألا وهو العمل؛ لأن العلم وسيلة للعمل، فإذا تعلّم الإنسان، وكان علمه صافيًا مصفّى، ثم لم يعمل به؛ كان بدهيًّا جدًّا أن هذا العلم لا يثمر، فلا بد من أن يقترن مع هذا العلم العمل.

ويجب على أهل العلم أن يتوَلَّوْا تربية النشء المسلم الجديد على ضوء ما ثبت في الكتاب والسنة؛ فلا يجوز أن ندعَ الناس على ما توارثوه من مفاهيم وأخطاء بعضها باطل قطعًا باتفاق الأئمة، وبعضها مختلف فيه وله وجه من النظر والاجتهاد والرأي، وبعض هذا الاجتهاد والرأي مخالف للسنة.

فبعد تصفية هذه الأمور، وإيضاح ما يجب الانطلاق والسير فيه، لا بد من تربية النشء الجديد على هذا العلم الصحيح.

وهذه التربية هي التي ستثمر لنا المجتمع الإسلامي الصافي، وبالتالي تقيم لنا دولة الإسلام.

✍ وبدون هاتين المقدِّمتين: «العلم الصحيح»، و«التربية الصحيحة على هذا العلم الصحيح» يستحيل في اعتقادي أن تقوم قائمة الإسلام أو حكم الإسلام أو دولة الإسلام.

✍ وإذا كان الرسول ﷺ جعل العلاج في رفع الذل المخيّم علينا إنما هو بالرجوع إلى الدين، فيجب علينا إذن أن نفهم الدين بواسطة أهل العلم فهمًا صحيحًا موافقًا للكتاب والسنة، وأن نربي النشء الصالح

الطيب على ذلك، وهذا هو الطريق لمعالجة المشكلة التي يشكو منها كل مسلم.

✍ وقد أعجبتني كلمة – هي في الواقع كأنها خلاصة لما قلته أو بيَّنْتُه آنفًا- لبعض المصلحين في العصر الحاضر -وهي في رأيي كأنها من وحي السماء- يقول: «أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تُقَمْ لكم على أرضكم».

ولا بد من أن نصلح نفوسنا على أساس من إسلامنا وديننا، وهذا لا يكون بالجهل، وإنما بالعلم؛ حتى تقوم دولة الإسلام على أرضنا هذه»(١).

تربية الناس على عقيدة أهل السنة والجماعة:

□ يقول الشيخ الألباني رحمه الله: «إن كثيرًا من المسلمين يشهدون أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله، وهم لا يلتزمون لوازم هاتين الشهادتين، وهذا بحث طويل؛ فكثير من المسلمين اليوم – حتى الذين يُعَدُّون من المرشِدين – لا يعطون «لا إله إلَّا الله» حقها من التفسير، ولقد انتبه لهذا كثير من الشباب المسلم والكُتّاب المسلمين؛ وهو أنّ من حق هذه الشهادة: أن الحكم لله، نعم؛ أريد أن أقولها صريحة: لقد انتبه الشباب المسلم والكُتّاب المسلمون اليوم إلى هذه الحقيقة؛ وهي أن الحكم لله عز وجل وحده، وأن تسليط القوانين الأرضية، واعتمادها لحل المشاكل القائمة اليوم ينافي كون الحكم لله عز وجل»(٢).

✍ فهذا شيخ المحدثين وقد عاصر الدعوات المعاصرة في أكثر من

---

(١) نقولات من كتاب «التصفية والتربية وحاجة المسلمين إليهما» للشيخ الألباني -المكتبة الإسلامية- بالأردن.

(٢) «التصفية والتربية» (ص٢٥- ٢٦).

نصف قرن من الزمان يرى أن السبيل إلى عودة الإسلام لا بد أن يكون على أساس تنقية الإسلام أولًا من العقائد الباطلة، والآراء الفقهية التي لا تستند على دليل صحيح من الشرع المتين، ثم تربية شباب الصحوة على هذا الدين الخالص والإسلام المصفى، فنكون بذلك قد اهتدينا بهدى النبي ﷺ والصحابة الكرام.

قاعدة هامة:

□ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فأما بعدما بعث الرسول ﷺ، فالجاهلية المطلقة قد تكون في مِصْرٍ دون مِصرٍ كما هي في دار الكفار، وقد تكون في شخص دون شخص، كالرجل قبل أن يُسلم فإنه يكون في جاهلية وإن كان في دار الإسلام، فأما في زمان مطلق فلا جاهلية بعد مبعث محمد ﷺ فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة.

والجاهلية المقيّدة قد تقوم في بعض ديار المسلمين، وفي كثير من المسلمين»[١].

✍ هذا في زمان ابن تيمية فكيف لو رأى زماننا هذا؟!

نظرة صائبة في التربية أَرْعِها سَمْعَك جيِّدًا:

□ قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله في مذكراته التي نُشِرَت بعنوان: «لماذا أعدموني» -وهي آخر ما كتبهُ-: «خرجت من السجن وفي تصوري صورة خاصة محددة لما يجب أن تكون عليه أية حركة إسلامية في الظروف

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» لابن تيمية (ص٧٨، ٧٩).

العالمية والمحلية الحاضرة، وصورة لخطوات المنهج يجب أن تسير عليه، وقد ذكرت ذلك من قبل، ولكني ألخصه هنا قبل البدء في التفصيلات:

١- المجتمعات البشرية بجملتها قد بعدت عن فهم وإدراك معنى الإسلام ذاته، ولم تبتعد فقط عن الأخلاق الإسلامية والنظام الإسلامي والشريعة الإسلامية، وإذن فأية حركة إسلامية يجب أن تبدأ من إعادة تفهيم الناس معنى الإسلام، ومدلول العقيدة، وهي أن تكون العبودية لله وحده، سواء في الاعتقاد بألوهيته وحده، أو تقديم الشعائر التعبدية له وحده، أو الخضوع والتحكم إلى نظامه وشريعته وحدها.

٢- الذين يستجيبون لهذا الفهم يؤخذ في تربيتهم على الأخلاق الإسلامية، وفي توعيتهم بدراسة الحركة الإسلامية، وتاريخها، وخط سير الإسلام في التعامل مع كل المعسكرات والمجتمعات البشرية، والعقبات التي كانت في طريقه، والتي لا تزال تتزايد بشدة وبخاصة من المعسكرات الصهيونية والصليبية الاستعمارية.

٣- لا يجوز البدء بأي تنظيم إلَّا بعد وصول الأفراد إلى درجة عالية من فهم العقيدة، ومن الأخذ بالخلق الإسلامي في السلوك والتعامل، ومن الوعي الذي تقدم ذكره.

٤- ليست المطالبة بإقامة النظام الإسلامي وتحكيم الشريعة الإسلامية هي نقطة البدء، ولكن نقطة البدء هي نقل المجتمعات ذاتها حكامًا ومحكومين عن الطريق السالف إلى المفهومات الصحيحة، وتكوين قاعدة إن لم تشمل المجتمع كله، فعلى الأقل تشمل عناصر وقطاعات تملك التوجيه والتأثير في اتجاه المجتمع كله إلى الرغبة والعمل على إقامة النظام

الإسلامي، وتحكيم الشريعة الإسلامية.

٥- وبالتالي لا يكون الوصول إلى إقامة النظام الإسلامي وتحكيم الشريعة الإسلامية عن طريق انقلاب في الحكم يجيء من أعلى، ولكن عن طريق تغيير في تصورات المجتمع كله، أو مجموعات كافية لتوجيه المجتمع كله، وفي قيمه، وأخلاقه، والتزامه بالإسلام، يجعل تحكيم نظامه وشريعته فريضة لا بد منها في حسهم.

٦- في الوقت ذاته تجب حماية هذه الحركة وهي سائرة في خطواتها بحيث إذا اعتُدِي عليها وعلى أصحابها يُرد الاعتداء»[1].

✍ وهذه الخطوات نوافقه رحمه الله عليها وهي لا تختلف كثيرًا عن المنهج السلفي الذي يهدف إلى تغيير عقائد الناس، وتطهير قلوبهم وتعبيدهم لله عز وجل. فالمعركة الأولى مع النفوس كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

* فإذا رآنا الله عز وجل أهلًا للتمكين يسر لنا أسباب التمكين، ومَنَّ علينا به، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور: ٥٥].

إلَّا أن البند السادس لا نوافقه عليه، وليس عليه دليل من كتاب أو سنة، ولعل هذا البند الأخير كان هو السبب في إخفاق دعوته، والتعجيل به رحمه الله»[2].

---

(١) «لماذا أعدموني» لسيد قطب (ص٤٣، ٤٤).

(٢) «التربية» للدكتور أحمد فريد (ص٢٤).

كلامٌ طيبٌ للدكتور القرضاوي:

□ يقول الدكتور يوسف القرضاوي – حفظه الله- في كتابه: «الحل الإسلامي فريضة وضرورة» تحت عنوان «حتى تنجح الحركة الإسلامية»:

«إنما تنجح الحركة الإسلامية في تحقيق الحل الإسلامي، وإقامة المجتمع الإسلامي، واستئناف حياة إسلامية إذا توفر لها أمور ثلاثة:

١- جيل مسلم:

الأمر الأول: جيل مسلم تقوم الحركة على تكوينه تكوينًا إسلاميًّا صحيحًا متكاملًا. يكون هذا الجيل بمثابة الدعائم أو الركائز للمجتمع الإسلامي المنتظر.

وإذا كان دعاة الاشتراكية يصرون على أن المجتمع الاشتراكي لا يبنيه إلَّا الاشتراكيون، فدعاة الإسلام أولى أن يقولوا: إن المجتمع المسلم لا يبنيه إلَّا الإسلاميون.

ولهذا لم يقم المجتمع الإسلامي والحكم في المدينة إلَّا بعد تكوين الجيل الإسلامي في مكة، وعلى مناكب هؤلاء ومن انضم إليهم من خيار الأنصار قامت الدولة المسلمة، ولقد سئل أحد الدعاة الإسلاميين يومًا: كيف يُتصور حكم إسلامي راشد؟

فأجاب: بأحد طريقتين: إما أن ينتقل الإيمان إلى قلوب الحاكمين، وإما أنْ ينتقل الحكم إلى أيدي المؤمنين.

ولو أن الإيمان يسهل انتقاله إلى قلوب الحاكمين بالفعل لاختصرت الطريق اختصارًا، وكفى الله المؤمنين القتال.

ولكن يبدو أن هذا ليس أكثر من حلم لذيذ لا يمت إلى الواقع بصلة، فإن من شب على شيء مات عليه، وهؤلاء الحكام قد شبوا وشاخوا على العلمانية، وتتلمذوا صغارًا وكبارًا على الفكر الغربي بشقيه، فهيهات أن يولوا وجوههم شطر غيره، ولو كان هذا الغير هو دينهم الذي ورثوه عن آبائهم، والذي ارتضى الله لهم، وارتضوه نظريًّا لأنفسهم، فلم يبق إذن إلَّا الشطر الثاني، وهو أن ينتقل الحكم إلى أيدي المؤمنين، أيدي الجيل المسلم الذي آمن بالإسلام عقيدة وعبادة وخلقًا ورابطةً ونظامَ حياة.

٢- قاعدة جماهيرية إسلامية:

والأمر الثاني الذي يجب أن يتوافر للحركة الإسلامية الناجحة: وجود قاعدة جماهيرية لها من كافة طبقات الشعب، وذلك عن طريق رأي عام إسلامي يناصر الفكرة الإسلامية، ويحب دعاتها، ويكره أعداءها، ويحرص على انتصارها؛ فلا يكفي أبدًا أن تربي الحركة جيلًا مسلمًا مخلصًا لا يحس به الشعب ولا يعرفه ولا يتحمس له، لأنه في عزلة عنه، يكلمه من بعيد، وينظر إليه من فوق.

٣- التغلُّبُ على المُعَوِّقات:

الأمر الثالث الذي يجب أن يتوافر لنجاح الحركة الإسلامية: هو التغلب على المعوقات والموانع التي تقف حائلًا بينها وبين الوصول إلى أهدافها وغاياتها بكل سبيل؛ إذ لا يكفي لقيام أمر أن تتحقق موجباته، بل لا بد أن تنتفي معوقاته أيضًا، أو كما يقول أهل الأصول الفقهية: وجود المقتضي وانتفاء المانع.

ومن المعوقات من جهة الشعب: الجهل بالإسلام – اليأس من انتصار

الحركة الإسلامية- الخوف من الاضطهاد المتكرر.

وهناك معوقات من جهة القوى المناوئة، مثل: وجود نفوذ أجنبي قوي، وجود حكم عسكري علماني، وجود ظروف إقليمية أو دولية معاكسة.

وهناك معوقات من داخل الحركة، منها: اختلاف الكلمة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ومنها: حب الدنيا، وهو يفتح منافذ واسعة لشياطين الجن وشياطين الإنس، ينفذون منها إلى قلوب الدعاة، فيسيل لعابهم إلى المناصب، وتتطلع نفوسهم إلى المكاسب.

ومنها: حب الذات، وهو فرع من حب الدنيا أو جزء منه، ونعني به أن يحرص عضو الحركة على البروز والظهور، وألَّا يعمل إلَّا في الصدارة أو الصفوف الأولى، وأن يجري وراء بريق الشهرة والبحث عن الأضواء»[1].

الواجب التربوي أخطر ما تقوم به الدعوة:

□ يقول الأستاذ محمد قطب رحمه الله: «استعرضنا فيما مضى بعض القضايا التي تدور في ساحة العمل الإسلامي، ويجدر بنا في ختام هذا الفصل المتعلق بالصحوة الإسلامية أن نلخص المهمة الملقاة على عاتق الدعوة في هذه المرحلة من تاريخها:

إن الدعوة مكلَّفة بواجب تبليغي، وواجب تربوي، مقتدِية في ذلك

---

(١) «الحل الإسلامي فريضة وضرورة» للدكتور القرضاوي (١٩٧- ٢٠٣) باختصار- طبع مكتبة وهبة.

بالمنهج النبوي في فترة الدعوة الأولى بمكة.

فأما الواجب التبليغي: حين تسنح الفرص بلقاء الدعوة مع الجماهير -: فهو تعليمهم ما جهلوه من حقيقة لا إله إلَّا الله، وارتباطها الوثيق بتحكيم شريعة الله، والتأكيد لهم بأن ما أصاب المسلمين في حاضرهم من الذل والهوان والضعف والتخلف وغلبة الأعداء عليهم إنما كان سببه تفريغ لا إله إلَّا الله من مضمونها الحقيقي، وجعله كلمة تتعلق باللسان فحسب، وأن هذا ليس هو الإسلام الذي أنزله الله. إنما الإسلام الذي يرضى الله عنه في الدنيا والآخرة هو نطق لا إله إلَّا الله محمد رسول الله، والعمل بمقتضاها، وتأدية الفرائض، وأن المسلمين لن يعودوا إلى التمكن في الأرض بأي مذهب من المذاهب، ولا أي منهج من المناهج المستوردة من الشرق أو الغرب، إنما بالرجوع الحق إلى الله، أي: عبادته وحده بلا شريك، سواء فيما يختص بالعقيدة، أو ما يختص بالشعائر التعبدية، أو ما يختص بتحكيم الله في كل أمر من الأمور، وأن استيراد المذاهب من الشرق والغرب خلال قرن من الزمان لم يزدهم إلَّا ضعفًا وهوانًا وذلَّة وضياعًا وبعدًا عن التمكن والاستقرار.

وأما الواجب التربوي: فهو أخطر ما تقوم به الدعوة في الحقيقة؛ لأنه هو طريق الخلاص، وهو عمل دائب مستمر لا يتوقف مهما كانت الأحوال، في الشدة والرخاء سواء، في السعة وفي الضيق سواء.

والتربية المطلوبة – لإقامة القاعدة الإسلامية- تهدف إلى إخراج نماذج فذة، لا مجرد إخراج مسلمين عاديين، نماذج تكون كالأعمدة الراسية في البناء، لتحمل ثقل البناء فيما بعد.

وهذا يحتاج أولًا إلى عقيدة صافية، لا غبش فيها ولا بدع ولا انحرافات، كعقيدة السلف الأول، خالية من كل ما علق بها خلال الأجيال من إضافات وانحرافات خرجت بها عن عقيدة التوحيد الخالصة الصافية، وكادت تردها وثنية جاهلية.

ويحتاج ثانيًا إلى إدراك واع لمقتضيات هذه العقيدة. ومقتضياتُها هي: كل التكاليف وكل التوجيهات التي جاءت في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة رسوله ﷺ، ومن عظمة هذه التكاليف والتوجيهات، ومن شمولها لكل جوانب النفس، وكل جوانب الحياة كانت عظمة هذا الدين، وعظمة الأمة التي حملت هذا الدين، وأنشأت به ذلك الواقع الضخم الذي شهده التاريخ.

ويحتاج ثالثًا إلى تربية تُحوِّل هذه العقيدة إلى حقيقة سلوكية قائمة في عالم الواقع.

وهذه التربية تحتاج إلى ترسيخ معاني الألوهية وتعميقها حتى تصبح يقينًا قلبيًّا ينبني عليه سلوك واقعي، يقينًا لا يزلزله الابتلاء والشدة، ولا يزلزله الرخاء والسعة.

وتحتاج إلى ترسيخ أخلاقيات لا إله إلَّا الله حتى تصبح حقيقة سلوكية تنبثق انبثاقًا ذاتيًّا من داخل النفس. وأخلاقيات لا إله إلَّا الله من السعة والشمول، بحيث تشمل كل سلوك يقوم به الإنسان، فالأخوة من أخلاقيات لا إله إلَّا الله، والتكافل من أخلاقيات لا إله إلَّا الله، والجلد والصبر من أخلاقيات لا إله إلَّا الله، والشجاعة من أخلاقيات لا إله إلَّا الله، والنظام والانضباط من أخلاقيات لا إله إلَّا الله، ومعرفة الحق واتباعه من أخلاقيات لا إله إلَّا الله.

وتحتاج إلى الوعي السياسي بأحوال العالم المعاصرة، وأحوال المسلمين في ظروفهم الراهنة، ومكايد الأعداء ومؤامراتهم الدائمة ضد الإسلام، وتدسسهم إلى حياة المسلمين بالغزو الفكري وغيره من وسائل الحرب.

وتحتاج إلى الوعي الحركي الذي لا يتعجل الخُطى قبل أوانها، وفي الوقت نفسه لا يدع الفرصة تفلت منه دون أن يستفيد منها.

وتحتاج إلى موازنة في داخل الفرد وفي داخل الجماعة بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية، بحيث لا يكون الفرد مستبدًّا، ولا ناشزًا، ولا يكون في الوقت ذاته إِمَّعة يساير المجموع إن أخطأ أو أصاب. ولا تكون الجماعة مستبدة طاغية تسحق شخصية الفرد، ولا مفككة لا رابط لها ولا اتحاد.

وتحتاج إلى وعي فقهي يعرف به الفرد ماذا يأتي وماذا يدع، ومتى يسمع ويطيع، ومتى يفضي به السمع والطاعة إلى الهلاك.

ومن أجل متطلبات هذه التربية وهي كثيرة وشاقة، وخاصة في أمة كادت تنسلخ من كل مقومات الإسلام، فلا ينبغي التعجيل في خطواتها، ولا ينبغي التعجيل في إدخال الجماهير في الدعوة على النطاق الواسع قبل أن يتيسر العدد الكافي من الدعاة والمربين الذين تَرَبَّوْا هم أنفسهم على المنهج الصحيح، والذين يستطيعون بدورهم أن يُرَبُّوا على المنهج الصحيح، فهذا التعجيل لا يخدم الدعوة في شيء، إنما يعوقها في الحقيقة عن المسير»[١].

---

(١) «واقعنا المعاصر» لمحمد قطب (٥٢٢- ٥٢٤).

التربية من الخطوط الرئيسية لبعث الأمة الإسلامية:

□ يقول الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق - **حفظه الله**- في كتابه «خطوط رئيسية لبعث الأمة الإسلامية» تحت عنوان «الطريق إلى بعث الأمة الإسلامية»: «لا نستطيع أن نتصور أمة صالحة كاملة إلَّا بتصور جماعة لها عقيدة واحدة ومنهج واحد في الحياة، وبهذا تتحدد مقومات الأمة على النحو التالي:

الجماعة، العقيدة «الإيمان»، والمنهج «التشريع».

أما الأفراد المسلمون: فهم كثير والحمد لله، فهم يعدون بمئات الملايين، ولكن حالهم واضح لكل ذي بصيرة.

وأما العقيدة الواحدة: فموجودة باقية، ولكنها تحتاج إلى أمرين:

الأمر الأول: تخليصها مما علق بها عبر القرون من الانحراف والتأويل السخيف المشوه لحقيقتها والخرافة.

الأمر الثاني: نقلها من بين الآيات والأحاديث وبطون الكتب إلى الصدور.

وأما المنهج: فموجود أيضًا، باق إلى يوم القيامة، ولكنه يحتاج إلى أمرين أيضًا:

الأمر الأول: تنقية هذا المنهج من البدع والانحراف والتأويل.

الأمر الثاني: وضع هذا المنهج موضع التنفيذ.

وبهذا سيتحدد العمل في ثلاث دوائر أساسية، ولكنه سيتفرع إلى شعب كثيرة:

الدائرة الأولى: تحديد العقيدة الواحدة وتصفيتها من الشوائب.

الدائرة الثانية: تخليص الشريعة الإسلامية وتنقيتها من البدع والغلو والتفريط.

الدائرة الثالثة: تهيئة الفرد المسلم ليقبل العقيدة الواضحة والشريعة الغراء السمحة الكريمة»[1].

الصبر على التربية الصحيحة:

□ يقول شيخي الدكتور أحمد فريد في كتابه الماتع «التربية على منهج أهل السنة والجماعة»:

* قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

* وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

فالاقتداء والاهتداء برسول الله ﷺ واجب في كل الأحوال وفي جميع القضايا، والتماس البركة والعزة في هديه المبارك ﷺ مما ينبغي أن يتقرر في قلب كل مسلم مخلص يرجو الله واليوم الآخر.

كيف بدأ النبي ﷺ الدعوة المباركة، وكيف انتقل بها من مرحلة إلى مرحلة، حتى جاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

هل بدأ بالصدام المسلح مع الجاهلية الجهلاء في فترة الاستضعاف وقلة العدد **والعُدَدِ**، أو أُمِرَ هو وأصحابه الكرام بكف الأيدي وإقامة

---

(١) «**خطوط رئيسية لبعث الأمة الإسلامية**» للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق.

الصلاة وإيتاء الزكاة، أي بالتربية بالعبادات، والصبر على الضيم، وتحمل الإيذاء والاستهزاء والتعذيب والتكذيب.

* قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾

[النساء: ٧٧].

* وقال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾

[الجاثية: ١٤].

□ قال ابن كثير رحمه الله: «أي يصفحوا عنهم، ويتحملوا الأذى منهم، وهذا كان في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد.

• وقال النبي ﷺ لما استأذنه أهل يثرب ليلة العقبة أن يميلوا على أهل منى فيقتلوهم: «**إنا لم نؤمر بذلك**»[(١)].

□ قال سيد قطب رحمه الله: «ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة، ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هذه البيئة: تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادةً من ضيم يقع على شخصه، أو على من

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٤/ ١٤٩) ط. دار المعرفة. والحديث رواه ابن هشام عن ابن إسحاق (٢/ ١٨٧- ١٩٢) مُطَوَّلًا، وعنه أحمد (٣/ ٤٦٠- ٤٦٣)، والطبراني (١٩/ ٨٧- ٩١)، وأورده الهيثمي (٦/ ٤٢- ٤٦)، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وهو مدلِّس وقد صرَّح بالسماع، وقال الألباني: هذا سند صحيح، وصححه ابن حبان كما في «الفتح» (٧/ ٤٥٧).

يلوذون به.

وربما كان ذلك أيضًا لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يَفتِنون أوائلَ المسلمين عن دينهم ويعذبونهم ويؤذونهم هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلصين، بل من قادته، ألم يكن عمر بن الخطاب من بين أولئك؟.

وربما كان أيضًا لقلة عدد المسلمين حينذاك، وانحصارهم في مكة حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة»[1].

فقد كانت الفترة المكية فترة تربية وإعداد ونشر للدعوة، وتحمل لكل ألوان الأذى حتى صار الصحابة ببركة تربية النبي ﷺ ملوك الدنيا وقادتها وسادتها، كما أنهم كذلك ملوك في الآخرة.

فلا ينبغي على القائمين على جماعات الدعوة للدين المتين أن يهملوا التربية إهمالًا، وأن يعتبروا الوقت الذي يُبذل والجهد الذي يُنفق في التربية لا فائدة فيه ولا عائدة، استعجالًا للنتائج، ورغبة في سرعة قطف الثمر، فيسلكون من الطرائق ما يخالف ما مضى عليه سيد الخلائق، ومن نظر بعين الإنصاف متجنبًا الاعتساف يرى أن مثل هذه الطرائق لا تثمر إلَّا الفتن والويلات والانتكاسات للدعوة الإسلامية، وكذلك لهؤلاء الأفراد الذين لم يأخذوا حظهم من التربية، وقد ينحرف كثير منهم عن الصراط المستقيم؛ لأنه يعرض نفسه لما لا طاقة له به من البلاء، نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة.

□ قال الإمام مالك رحمه الله: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلَّا بما صلح

(١) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٤٣٨).

عليه أمر أولها».

وصلح أمر أولها بالتربية الصحيحة، بالصيام والقيام وتلاوة القرآن، كما صلح باتباع سنة النبي ﷺ، والدخول في شرائع الإسلام كافة، كما صلح كذلك بالبذل والإنفاق والجهاد والجلاد.

□ قال الأستاذ محمد قطب رحمه الله: «ويجب أن يكون واضحًا في أذهاننا كذلك أن المعركة بين الإسلام وأعدائه ليست معركة سريعة خاطفة، ولكنها معركة طويلة شاقة قد تستغرق عدة أجيال، فينبغي للقاعدة التي تنشأ للقيام بهذا العبء الضخم أن تُرَبَّى لتكون طويلة النفس، شديدة الصبر، عميقة الإيمان بالله، عميقة التوكل عليه، مستعدة لما يتطلبه أمرها من المعاناة، قادرة على أن تبذل من نفسها: من جهدها ومالها ودمها وفكرها ما يحتاج إليه إزالة الغربة التي ألمت بالإسلام اليوم، واستنقاذ الغثاء من دوامة السيل، واستثباته مرة أخرى راسيًا في الأرض عميق الجذور، وحين تكون القاعدة بالمواصفات المطلوبة، بالحجم المناسب سيغير الله للناس؛ لأنهم يكونون قد وفوًا بالشرط.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥][(١)].

فعزة هذه الأمة ورفعتها ومجدها في التماس هدي النبي ﷺ، ونصر شريعته.

* قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمد].

---

(١) «واقعنا المعاصر» (ص٥٢٥).

* وقال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج].

ونَصْرُ الله عَزَّوَجَلَّ في تحليل حلاله، وتحريم حرامه، وإقامة دينه، وإحياء شريعته بالدعوة إليها، والبذل في سبيل رفعتها.

* وانظر -رحمك الله- كيف خالَفَتْ طائفةٌ من الجيش أمرَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكانت الهزيمة يوم أُحد، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فكيف إذا خالفت الجماعةُ كلُّها هَدْي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقدموا قول علمائهم ومفتيهم على هديه المبارك، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم؟!

وكانت الهزيمة كذلك في بداية غزوة حنين لتعلق قلوب بعض مُسلِمة الفتح بالأسباب، وضعف التوكلِ وانتظارِ الخيرِ والنصرِ من الواحد الوهاب.

* قال تعالى: ﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍۙ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـًٔا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة].

فهذه تربية عالية لهذه الأمة الغالية، تنقية مستمرة للقلوب والجوارح مما يسخط الله عَزَّوَجَلَّ، ويخالف شريعته، حتى تُخلِّص توحيدَها لله عَزَّوَجَلَّ وتسلم قيادتها لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أرسل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كتابًا إلى سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: لا يغرنك من الله أن قيل: خال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصاحب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يمحو السيء بالسيء، ولكنه يمحو السيء بالحسن؛ فإن الله

ليس بينه وبين أحد نسب إلَّا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ عليه منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه؛ فإنه الأمر، هذه عظتي إياك، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك، وكنت من الخاسرين.

□ ونختم بهذه الكلمة في أهمية التربية الجادة للأستاذ محمد بن عبد الله الدويش يقول – حفظه الله-: «والأمة تعيش هذا العصر واقعًا فريدًا، ومرحلة ليست على مثال سابق، فعصور التردي التي مرت بالأمة لم تصل إلى حد أن تسقط الحواجز بين الأمة وأعدائها، فتصبح تابعة لهم، مستوردة لمناهجهم، ولقد كان الحكم في تلك المراحل للشريعة رغم الانحرافات في التطبيق، ولم تجرؤ الأمة على استبدال الشريعة وتنحيتها إلَّا في هذا العصر.

ومناهج التربية والإعلام الوافدة إنما هي نتاج هذا العصر، والتي ساهمت مساهمة فعالة في تشكيل وصياغة عقلية مسلم هذا العصر ليخرج خليطًا متنافرًا من ثقافات الشرق والغرب.

فالمشكلة التي تعانيها الأمة اليوم أبعد من أن تكون مجرد انتشار لمعاصٍ ظاهرة، وإخلالًا بأحكام ظاهرة، وإن كان ما نذكر نذير خطر.

ومن ثم فالمشروع الإسلامي ما لم يأخذ على عاتقه إعادة صياغة متكاملة للفرد والمجتمعات الإسلامية في التفكير والتصورات والقيم والموازين فهو عاجز عن تحقيق الهدف الذي يسعى إليه.

وهذا التغيير وإعادة الصياغة يحتاجان جهدًا تربويًّا ضخمًا لتربية أدوات ووسائل التغيير من الدعاة والمصلحين، وجهدًا لتربية مجتمعات

المسلمين، ومن ثم كانت التربية الجادة ضرورة.

وحيث تتبوأ التربيةُ هذه المنزلة، وترقى إلى هذه الأهمية فهي تحتاج إلى المزيد من الدراسات والبحوث، ومراجعة الأوضاع القائمة وغربلتها.

أما حين تكون مرحلة العواطف الجياشة، والحماسة المتأججة نهاية المطاف ومنتهى الغايات، فتصاغ البرامج التربوية للوصول لها وتحقيقها فحسب، فلن تحقق الدعوة غايتها»[1] ..[2].

أهمية التربية بقلم الدكتور عبد الكريم بكّار:

□ يقول الدكتور عبد الكريم بكار في كتابه القيم: «حول التربية والتعليم»: «التربية هي الأسلوب، وهي الأداة التي تضع الإنسان في بداية طريق النمو والاستفادة من الوسط الاجتماعي القائم.

ويمكن أن نستجلي أهمية التربية في حياة الأفراد والمجتمعات على النحو الآتي:

١- لا يولد الإنسان إنسانًا، حيث لا يملك شيئًا من مقومات الإنسانية: اللغة والفكر والمشاعر والأخلاق.. ولا ينتقل إليه شيء من ذلك بالوراثة من أبويه، وعليه أن يكتسب كل ذلك من خلال التربية الأسرية والاجتماعية؛ ويظهر هذا جليًّا حين نقارن بين إنسان الغابة الذي لا يحسن أكثر من جني الثمار، وبين إنسان يعمل في مركز أبحاث، أو يقود طائرة حديثة!.

إن عدم إنجاز طبيعته هو سر عظمته، حيث يعني ذلك مطاوعة بلا

---

(١) «التربية الجادة ضرورة» لمحمد بن عبد الله الدويش (ص٧- ٨) طبع دار الصفوة.

(٢) «التربية على منهج أهل السنة والجماعة» (ص٣١- ٣٥).

حدود، إن وَلَد إنسان لا يربِّيه إنسان، لا يمتلك شيئًا من مقومات الإنسانية؛ فالإنسان مدين بما يخوله أن يعيش متمتعًا بإنسانيته إلى التربية، لا إلى الطبيعة إلى حد بعيد.

٢- إن التربية هي التي تقوم بتكوين الوعي لدى الناشئ، وهي التي تغرس في نفسه ضرورة التطلع إلى المثل العليا والأهداف الكبرى؛ حيث يستلُّ المربي من مجموع ما تفيض به ثقافة الأمة، ومما هو متوفر من معرفة - ما يعتقد أنه أساسي في تكوين من يشرف على تربيته، والمشكل هنا أن التربية لدينا لم تحقق نجاحًا واضحًا في جعل الناشئة يدركون الأهداف الكبرى على نحو صحيح؛ فالملاحظ أن الناس يستشعرون الهدف من هذه الحياة على نحو رتيب أو مبتذل، وهذا في حد ذاته يجعل درجة التفاعل معه والحماسة لتحقيقه ضعيفة أو معدومة، وهذا ما نلاحظه اليوم؛ حيث يضمر كل مسلم في نفسه أن هدفه الأسمى هو رضوان الله تعالى، لكن انعدام الفاعلية الشعورية والذهنية في إدراكه أدى إلى ضعف السعي إلى تحقيقه والارتفاع إلى مستواه لدى السواد الأعظم من المسلمين.

أما العلمانيون والماديون ومن على شاكلتهم فقد أضاعوا الأهداف الكبرى جملة، وقد عبر عن هذا «أنشتاين» حين قال: «إن حضارتنا تمتلك معدات كاملة، لكن الأهداف الكبرى غامضة».

إنها لمأساة أن تنتشر المعرفة، وتتدفق المعلومات في كل اتجاه، ومع ذلك يزداد ضعف تكوين الشخصية لدى الجيل الجديد، ويقل الحكماء وذوو البصائر النافذة، والسبب في هذا أن كثيرًا من أنشطتنا التربوية قد ابتعد عن فلك الأهداف الكبرى؛ مما أفقدها المنطقية والتجانس، وأوقعها في

التشظِّي والتصادم. ولذا فإن التربية الفاضلة ليست تلك التي تنثر أمام الناس مجموعة من الفضائل والحكم والنصائح، وإنما تلك التي تمتلك خيطًا من نور، ينتظم جميع مقولاتها، ويدفع بها إلى بؤرة شعور الفرد، وأعماق بنيته الفكرية وأعماق وعيه، وهذا لن يكون ما لم يَسُدْ نوع من التناغم بين جميع الأجهزة التربوية والإعلامية والتثقيفية.

٣- الإنسان الذي لم يتلق تربية جيدة قد لا يستفيد حتى من المعلومات اليقينية، ويفسر الأشياء تفسيرًا خاطئًا، ويسهل خداعه، ويصدر أحكامًا لا يساندها علم ولا منطق، وفي هذا يقول علي ﷺ: «رأيُ الشيخ ولا رؤية الصبي». فالشيخ يصدر رأيه في أمر ما مع نقص المعلومات لديه مستخدمًا لخبرته، أما الصبي فإن عقله لما يراه، وتفسيره له يكون في أغلب الأحيان فجًا؛ نظرًا لجهله بطبائع الأشياء»[(١)].

من معالمنا التربوية:

١- إن تحقيق العبودية لله تعالى يجب أن يكون مستحضَرًا في كل وقت، ولدى جميع المربين، وفي جميع المحاضن المربية: الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام.. فينشَّأ الطفل على حب الله ورسوله ﷺ، وتذكيره بنعمة الله عليه ورعايته له، كما يُلفت نظره بين الفينة والفينة إلى بديع خلق الله وتناسقه وجماله، كي يتعاظم في نفسه توقير الله وإجلاله، ويكون هذا محورًا من المحاور الأساسية للمناهج الدراسية، مهما كانت المادة التي تقدمها.

ويضاف إلى ذلك تأسيس ثقافة عامة تدور في فلك الأصول الحضارية

(١) «حول التربية والتعليم» (ص٢٠- ٢٢) مُلخَّصًا.

الإسلامية في ميادين الأخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد والنظم كافة.

قد بات من المهم أكثر من أي وقت مضى أن نؤكد بكل وسيلة أن بلوغ قمة التحضر لن يكون إلَّا عبر الخضوع لله تعالى وحده والامتثال لأمره، وأن التقوى والاستقامة ونفع الخَلْق هي مقاييس التفاضل في المجتمع الإسلامي (١).

٢- نحن جزء من هذا الكون، وقد تكرَّم الله تعالى فجعل الإنسان قادرًا على استثمار جميع ما حوله والانتفاع به، ولذا فإن العلاقة به هي علاقة تعاون وتعاطف؛ والتعاليم الإسلامية الكثيرة تدلنا على أن على الإنسان أن يتخلَّق بخلق الرحمة، وأن يتمتع بالإحساس المرهف مع كل ما فيه نوع من الحياة، بل إن ذلك يجب أن يمتد إلى الجمادات أيضًا، وذلك بالمحافظة على وجودها، فلا ينبغي للمسلم أن يدمر الموارد المتاحة، وألا يستخدمها إلَّا على وجه يعود عليه بالنفع.

إن الله -جل وعلا- أرسل محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، ولا بد لنا من أن نسعى إلى تحقيق هذا المعنى؛ فلا يتصل مسلم بغير مسلم إلَّا ناله شيء من رحمة الإسلام ولطفه وهديه، ولن يتم هذا إلَّا إذا كانت تربيتنا تربية إنسانية.

٣- إن التربية الإنسانية تتجاوز حدود الواجبات والحقوق، لتسمو إلى آفاق مراعاة المشاعر والظروف والهموم؛ إنها نوع من الشهامة والمروءة والتذمم، أو هي -كما سماها القرآن الكريم- درجة الفضل (٢).

---

(١) «حول التربية والتعليم» (ص٣٣).

(٢) قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

إن فلسفتنا التربوية تقوم على تنشئة «الإنسان الصالح» الذي له سلوك واحد، وتعامل واحد، ومعايير واحدة؛ فالإنصاف، والأمانة، والعدل، وأداء الحقوق، والنصح، والإحسان، وإغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وإكرام الضيف، ورعاية حقوق الجار.. وما شاكل ذلك من كريم الصفات – مقومات أساسية يجب أن تتجلى في سلوك المسلم وتعامله مع المسلم وغير المسلم، والنصوص في هذا كثيرة ومشهورة.

٤- ومن معالمنا التربوية: التماسك والانسجام:

بمعنى عدم اشتمالها على تنافر بين أجزائها، يؤدي إلى أن يُجهض بعضها بعضًا، وهذا الانسجام نابع في الأصل من أن الله – جلَّ وعلا- هو خالق الكون والإنسان، وهو الذي أرسل الرسل، وأنزل الكتب؛ ولذا فعلى مقدار التزام فلسفتنا التربوية بالمنهج الرباني يكون انسجامها أقرب إلى الكمال.

ويشكل ذلك الانسجام عنصر الشمول والتوازن؛ فنجد على سبيل المثال أن القرآن الكريم دعا المسلمين إلى امتلاك القوة، وامتلاك أسباب الغلبة، وهذا لا يتم إلَّا من خلال نظم وأنشطة تؤدي إلى التفوق المادي؛ ولذا نجد أن في جوهر ثقافتنا وأدبياتنا الكثير مما يجعل المسلم لو التزم به متفوقًا، مثل العلم والنظام والنظافة والإتقان وحسن التدبير والدقة»[(١)].

٥- التسامي على السفاسف، ومحاولة الارتقاء إلى المثل الأعلى[(٢)] ركن ركين في فلسفتنا التربوية؛ فالله – جل وعلا- زود الإنسان بطاقات

(١) «حول التربية والتعليم» (ص٣٣- ٣٧) مُلخَّصًا.

(٢) يُراد بالمثل الأعلى نموذج الحياة المعنوية والمادية المراد للإنسان المسلم أن يحياها.

وإمكانات، وجعل في تركيبه النفسي والجسمي حاجات تتطلب الإشباع، وسنَّ له إلى جانب ذلك مبادئ وآدابًا، ووضعه في ظروف قد تكون مواتية، وقد تكون معاكسة لتحقيق ذلك ابتلاءً منه واختبارًا، وعلى المرء أن يتعلَّم حسن التصرف حيال كل ذلك.

إن الحضارة الحديثة أضعفت إرادة الإنسان، ونقلت مجال السيطرة والتحكم من الإنسان إلى الأشياء، وصار الإنسان المسلم يشعر -أكثر من أي وقت مضى- أنه مغلوب على أمره، لاهث حول تحقيق رغبات وحاجات تقصر إمكاناته دونها، وصار يضغط على مبادئه، ويتجاهل أخلاقياته وأدبياته في سبيل اكتمال الوسط الذي يعيش فيه؛ وهذا حدَّ من تساميه وتشوفه إلى المثل العليا.

إن الرؤية الإسلامية في هذه المسألة تتلخص في أن رغبات الناس في امتلاك الأشياء لن تتوقف عند حد: «**لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلَّا التراب**»[1] ومن ثَم فإنه لا بد للمسلم من المجاهدة الدائمة حتى لا يخضع للظروف الصعبة، وينشد دائمًا الأسمى والأرقى، وفي سيرة النبي ﷺ وسير أصحابه الكرام دروس عملية كثيرة للتسامي؛ فقد خُيِّرَ ﷺ بين أن يكون ملِكًا رسولًا، وأن يكون عبدًا رسولًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا، وكان تمر عليه الليالي العديدة دون أن يوقد في بيت من بيوت نسائه نار، وكان يقوم من الليل حتى

---

(١) رواه البخاري وأحمد ومسلم والترمذي عن أنس، وأحمد، والبخاري ومسلم عن ابن عباس، والبخاري عن ابن الزبير، وابن ماجه عن أبي هريرة، وأحمد عن أبي واقد، والبخاري في «التاريخ»، والبزار عن بريدة.

تتورم قدماه، مع مغفرة الله تعالى له، وكان وكان..

وكان فتيان الصحابة رضي الله عنهم يتسابقون إلى ساحات الجهاد طلبًا للشهادة، كما كان بعض الصحابة يؤثر إخوانه على نفسه بأشياء هو في أمس الحاجة إليها، وكان منهم من يعمل ويكد من أجل أن يتصدق بشيء من أجره في سبيل الله!

إن التشريع الإسلامي يراعي الظروف الصعبة، والإمكانات المحدودة لبني البشر، ويعترف بها، ومن أجل ذلك كان التكليف ضمن الوسع، وكانت الرخص، لكن الله تعالى يريد دائمًا من عباده أن يكون فيهم من يأخذ بالعزائم، ويضغط على حاجاته ومصالحه، من أجل الارتقاء إلى مقام القدوة، وذلك هو السبق، وأصحابه هم السابقون الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [الواقعة].

إن التسامي والارتفاع إلى مقام الإمامة في الخلق والسلوك يحتاج دائمًا إلى تضحية، ولكن العاقبة رضوان من الله ورحمة وفوز مبين. وإذا كان من العسير على الواحد منا أن يرتقي إلى المثل الأعلى في كل جوانب الحياة؛ فلا أقل من أن يكون قدوة في مجال من المجالات على الأقل؛ لينير شمعة في زاوية من زوايا ليل العالم الحالك.

التسامي في التحليل النهائي مظهر من مظاهر الإرادة الصلبة، وهو في الوقت نفسه أداة من أدوات التحرر من ربقة الأهواء والشهوات، وأَسْر الظروف الصعبة.

الأجيال الجديدة تواجه المزيد من ندوة الموارد، والمزيد من المغريات

مع ظروف قاسية، ولذا فإن حاجتها إلى التسامي ستزداد يومًا بعد يوم، ومهمة التربية أن تبرز الحاجة إليه، وأن تستهدف تحقيقه في مناشطها المختلفة»[1].

التربية الأسرية هي الأساس:

إن الجهات الأساسية التي تتولى عملية التربية، هي الأسرة والمدرسة والمجتمع، فأيها أبقى وأعظم أثرًا في شخصية الطفل؟

لا يكاد علماء النفس وعلماء التربية يختلفون في أن الأسرة هي التي تقود عملية التربية الأساسية؛ حيث تثبت دراسات كثيرة أن الخطوط الأساسية في شخصية الطفل يتم رسمها في السنوات السبع الأولى من عمره، وأن ما يأتي بعد ذلك من مؤثرات تربوية مختلفة، إنما هو تعميق وتفصيل وتكميل، وهذا يعني أن الأسرة هي صاحبة التأثير الأكبر في شخصيات الناشئة.

روح الكفاح والمثابرة:

إن طبيعة الالتزام الصارم بالتعاليم الربانية، شكل عظيم من أشكال الاستمرار في بذل الجهد، ومكافحة الأهواء والشهوات؛ حيث يضبط المسلم الملتزم إيقاع حركته ومشاعره ضبطًا تامًّا وفق مراد الله - تبارك وتعالى - والمشكلة في هذا الصدد مع نوعين من المسلمين:

١ - نوع لا يعرف مذاق الاستمرارية والمثابرة، لا في شؤون دينه، ولا شؤون دنياه؛ فهو أقرب إلى أن يكون بدائيًّا فوضويًّا.

---

(١) «حول التربية والتعليم» (ص٣٧ - ٣٨).

٢- ونوع يلتزم بأمور دينه التزامًا منقوصًا، حيث لم يستطع توسيع قاعدة الالتزام، وروح الدأب والكفاح؛ لتشمل جميع جوانب حياته؛ فترى لديه قصورًا في تدينه، ونوعًا من الجمود والاضطراب في معالجة أمور دنياه، مع أن الذي يعمق النظر يرى أنه لا يمكن الفصل بين أمور الدين وأمور الدنيا، لا على مستوى الفكر، ولا على مستوى السلوك؛ فالبنية العميقة للشخص لا بد أن تتجلى فيهما معًا.

ولعلنا نلمس في هذه المسألة النقاط التالية:

أ- حتى يمتلك الناشئة روح الكفاح والمثابرة على بذل الجهد، وضبط النزعات والميول، فإنهم بحاجة إلى امتلاك عقل مفتوح، وشحنة عظيمة من الأمل والتفاؤل؛ فالمستحيل درجات ومنه ما هو مطلق، ومنه ما هو نسبي، وما من معضلة إلَّا وهي قابلة للتغلب عليها كليًّا أو جزئيًّا، وفي النهاية فإن المرء يستطيع أن يعايشها، ويتكيف معها، وبذلك يكون أقوى منها، وكما يقول أحد الفلاسفة: «فلنغرس في نفوس شبابنا أن أعظم الكتب لم يؤلف بعد، وأن أعظم اللوحات الفنية لم تنقش بعد، وأن أحسن الحكومات ما زالت في مخاض، وأن ذلك كله سيتم على أيديهم هم».

إن «أديسون» الذي سجل أكبر عدد من المخترعات في العصر الحديث قال حين سئل عن العبقرية: «إنها ١٪ إلهام و٩٩٪ عرق جبين»!. وعلى هذا فإن التفوق والإنجاز العالي، والإتيان بالطرائف والغرائب هو في المقام الأول وليد الاجتهاد والمتابعة المبصرة والمنظمة.

إن لدى كل طفل من أطفالنا قدرًا من العبقرية، وإن علينا أن نكتشف ذلك ونرعاه وننميه ونتابعه، وهذا من مسئولياتنا ذات الأهمية والأولوية.

جـ- إن كل المؤشرات المتوفرة تقول: إن مشاق الحياة في ازدياد على الرغم من تكاثر المرفِّهات، وما هو مطلوب للعيش الطيب يزداد ندرة، وليس المقام هنا مقام تفصيل، ولن يكون بمقدور الأمة أن تفعل شيئًا عظيمًا ما لم تدرب الناشئة لديها على أن يُعِدُّوا أنفسهم للحياة الجديدة، إن الصحابة رضي الله عنهم ومن تلاهم من بناة الحضارة الإسلامية العتيدة – قد تحملوا من المشاق وشظف العيش في مجاهدتهم لنشر هذا الدين ما لا يوصف، مع قلة عتادهم، ومحدودية إمكاناتهم، وتفوق أعدائهم، وإن علينا أن نعلم الناشئة كيف يستخلصون الروح والمثل من ذلك.

والذي يقرأ في سيرهم يتبين له بوضوح أنهم كانوا لا يسألون أنفسهم أبدًا عما تبقى من الطريق، ولا عن تكاليف في ذلك، وكانوا يدعمون روحهم المتوثبة تلك بثقة غير محدودة بنصر الله تعالى وعونه، وقد كان لهم ذلكم على نحو فذ فريد!.

وفي العصر الحديث تعد اليابان النموذج العالمي للنجاح الباهر في ظروف هي الأقسى، ومع موارد شديدة الشح، وكانت وسيلتها إلى ذلك هي المثابرة والإصرار، ويذكر أحد الكتاب الذين حاولوا النفاذ إلى أعماق التربية اليابانية أن من المرغوب فيه أن يتعلم الطفل في بدايات التعليم الابتدائي أن يتحمل المشاق، وفي السنوات المتوسطة يتعلم الإصرار والاستمرار؛ ليحقق المطلوب منه في صبر وعزم وفي السنوات الأخيرة من التعليم الثانوي يتعلم ألا يقف سلبًا أمام المصاعب والعقبات، وأن يجد الحلول متغلبًا على ما يجد من مشكلات، وألا يخاف الإخفاق بعد أن يبذل الجهد اللازم.

«إن الكمال الذي ننشده ليس بنية مكتملة محددة المعالم، نستحوذ عليها ونرتاح، وإنما هو شيء يلمع ويبرق في الأفق، والاستحواذ عليه ليس أكثر من مناهزته بصورة دائبة دائمة، وبأشكال من التصفية والمراجعة والإنضاج.

تعلمنا التجربة التاريخية الأممية أن الظروف المادية لا تشكل أبدًا حواجز لا تقهر، أو عوائق لا يمكن التغلب عليها؛ فكثير ممن سطروا قصصًا عجيبة من النجاح والتفوق، بدءوا من الصفر، وفي ظروف قاسية، ثم استطاعوا من خلال الجهد المتواصل أن يكونوا أفضل بكثير ممن ولدوا وفي أفواههم «ملاعق من ذهب»! وهذا يدل على أن «القصور» على مستوى الفرد، وعلى مستوى المؤسسات، هو العقبة الكئود؛ والتغلب عليها ليس مستحيلًا، إذا ما توفرت الشجاعة وإرادة العطاء والمثابرة.

ب-تعود العبقرية في كل مجالات الحياة إلى نوع من التفوق في الإمكانات الذهنية! ولكن لا يمكن للتفوق في الفهم والخيال والتحليل والتركيب والربط، أن يصنع شيئًا ما لم يُشفع بالقدرة على المثابرة والتركيز.

يذكرون أن «زفر» كان أنبغ تلامذة أبي حنيفة النعمان رحمه الله وأبرعهم في القياس، وأن قدرات زميله «أبي يوسف» كانت أقل، وعند النظر في المكانة الفقهية لكل منهما نجد أن الفارق بينهما شاسع، ويذكرون أيضًا أن أبا حنيفة قال لأبي يوسف: «أنبتَكَ ثَباتكُ».

وقد حار كثير من العلماء في تفسير ظاهرة «العبقرية» لدى بعض الناس، وذهبوا في تفسيرها كل مذهب، وكان من رأي بعضهم مثل «أريكسون» أن مفتاح فهم ظاهرة العبقرية يكمن بتميز العباقرة، ليس عن

طريق اختبار الذكاء العالي، ولكن بميزة المثابرة الدءوبة على تنمية المعرفة، خاصة التركيز على حقل واحد، وبأخلاقية عمل خاصة من الطموح والمتابعة والاهتمام والانضباط الذاتي، والبدء المبكر منذ الطفولة، ولفترة عمل مكثف تراكمي، لا تقل عن عشر سنوات في حقل بعينه»[1].

أنواع التربية المطلوبة لتربية جيل على نمط جيل الصحابة «الجيل القرآني الفريد»:

١- التربية العقائدية:

لا بد من إنشاء القاعدة الصلبة وتربيتها على أعلى ما يتاح لنا من مستويات التربية، وتنقيتها من الشوائب بأقصى ما يُتاح لنا من وسائل التنقية.

«ووسيلتنا في التربية هي ذات الوسيلة التي استخدمها المربي الأعظم ﷺ: تعميق الإيمان بالله واليوم الآخر، وتعميق الصلة بالله، وتعويد النفوس على الحياة في معية الله، والتدريب على ممارسة السلوك الإيماني في عالم الواقع.. ثم تعميق الوعي بالوسائل التي تؤدي إلى تعميقه، على أن نأخذ في اعتبارنا أن القدوة هي الوسيلة الأولى - والكبرى- في عملية التربية، ثم تأتي بعدها الموعظة والنصائح والدروس مع الرعاية والمتابعة والدأب والصبر، حتى تستجيب النفوس ثم تستقيم.

جهد ضخم في الحقيقة، وهو على ضخامته لا يؤتي ثماره في يوم وليلة ولا يمكن استعجاله، ولا يمكن تخطيه، إذا كنا جادين في القيام بعمل

---

(١) «نحو التربية والتعليم» (ص٧٩) نقلًا عن «صناعة العبقرية» مقال للدكتور خالص جلبي- جريدة الرياض في ٦/ ٣/ ١٤١٨.

ينقذ الأمة مما هي فيه، ويسعى إلى تحويل الجاهلية عما هي فيه»[١].

✍ «والدرس الأول في بناء القاعدة الصلبة من كوادر الإسلام هو درس لا إله إلَّا الله، علمًا بها، وتربية على مقتضياتها.

لا بد من التربية البطيئة الشاملة ولو استغرق ذلك عدة أجيال.. فإن دولة الخلافة التي احتاجت إلى قرون طويلة لإسقاطها تحتاج إلى قرون لإقامتها.

✍ إن مصدر الهداية الوحيد كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بفهم سلفنا، والهدى هدى الله.

✍ وعقيدة السلف قواعد وضوابط تعصم من الخطأ في مجال الاعتقاد، وهناك لون آخر من العقيدة يبعث العباد إلى العمل بما جاءهم من عند الله مخلصين دينهم لله، وهذا اللون هو الذي يجعل المسلم قوة حية متحركة عاملة، وهذا اللون من العقيدة حتى يعطي ثماره لا بد من دراسته من خلال النصوص».

✍ «إن بعض الدعوات والانحرافات التي نشأت في بلاد المسلمين تنادي بتوجه المسلمين إلى عباده غير الله، واتباع منهج غير منهج الله، فعادت في ديار المسلمين كثير من مظاهر الشرك..

وقد تبنت كثير من الفرق مناهج مضادة للمنهج الإسلامي، ومن ذلك تبني المنهج الفلسفي الكلامي في إرساء العقيدة والإيمان، وهذا المنهج مزاحم للمنهج الإيماني القرآني القائم على الوحي، وعمدة المنهج الفلسفي الكلامي نظريات عقلية، وأصول فلسفية، ومصطلحات

(١) «كيف ندعو الناس» لمحمد قطب (ص١٣٨ - ١٣٩) - دار الشروق.

منطقية، وهذا المنهج يختلف عن المنهج الإيماني القرآني في طريقة الاستدلال، وفي المقصد والهدف»[١].

✍ ومن المناهج المخالفة للمنهج الإسلامي الصحيح المنهج الصوفي الذي يغرق في الفلسفة من الحلول ووحدة الوجود والتواكل.

✍ وهناك لوثة الفكر الإرجائي التي تخرج العمل عن مسمى الإيمان، فضلًا عن الفكر العلماني، والدعوات التي تناقض الإسلام من الشيوعية والبعثية، والدعوات التي تنادي بالاعتزاز بالحضارات الكافرة البائدة كالفرعونية والآشورية والبابلية، والدعوات التي تقوم على المبادئ الضالة على أساس القومية والوطنية، وهي دعوات تضاد الإسلام وتحاده.

✍ فلا بد من تربية سليمة على أساس من العقيدة السليمة عقيدة السلف، وتجلية قضايا التوحيد كلها: قضية لا إله إلَّا الله، والحاكمية، والقضاء والقدر، ومسائل الكفر والإيمان.

✍ لا بد من تربية إيمانية عقائدية تُعمِّق معرفة الفرد بالله عَزَّ وَجَلَّ وأسمائه وصفاته وأفعاله وربوبيّته وإلهيّته، والتفكر في مخلوقاته عَزَّ وَجَلَّ.

✍ لا بد من تربية الفرد على تدبر القرآن وأحاديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعرفته، والحياة في أجواء إيمانية بعيدة عن أجواء المعاصي والشهوات.

✍ لا بد من تربية المسلم على الأدب مع الله عَزَّ وَجَلَّ ومع رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

---

(١) «كيف تستعيد الأمة الإسلامية مكانتها من جديد» للشيخ عمر سليمان الأسقر (ص٣٩- ٤٤)- دار النفائس.

والأخذ بظاهر الكتاب والسُّنَّة ورفض التأويل، ومحبة أصحاب النبي ﷺ.

✍ لا بد من التربية على تعميق الصلة بالله عز وجل بعبودية القلب وعلو الهمة في العبادات ومراعاتها دائمًا.

٢- التربية الخُلُقِيّة:

والمقصود بها التربية على الأخلاق الفاضلة: كالصدق، والأمانة، والإيثار، والاستقامة.

جملة من الأخلاق التي ينبغي أن يتربى عليها الشباب المسلم:

□ قال العلامة جمال الدين القاسمي رحمه الله ما ملخصه: «كل من أعار الوجود نظره البصير علم أن حاجة المرء إلى تأديب نفسه لا تفوقها حاجة؛ لأن الإنسان إلى الشر أميل منه إلى الخير، وإلى الشهوات النفسية أميل منه إلى الكمالات الروحية، فكان من المحتم العناية بتهذيب خلقه، وتحليه بالمحاسن والفضائل، وتطهير نفسه من المساوئ والرذائل، فيصبح محمود الأقوال والأفعال، مثالًا للفضيلة والكمال، وهذه شذرة مما يلزمك أن تتخلق به من آداب نفسك: عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، لا تستخفنَّ بفضائل شريف، لا تميلن إلى سخيف، لا تقولن هُجْرًا لئلا يسقط قدرك، لا تفعلن نُكْرًا لئلا يقبح ذكرك، إياك وفضول الكلام؛ فإنه يظهر من عيوبك ما بطن، ويحرك من عدوك ما سكن، فكلام الإنسان بيان فضله، وترجمان علقه، فاقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل، وإياك وما يستقبح من الكلام؛ فإنه ينفر عنك الكرام، ويوثب عليك اللئام، إياك واللجاج؛ فإنه يوغر القلوب، وينتج الحروب، فاقتصر من الكلام على ما يثبت حجتك ويبلغك حاجتك، ومن قال بلا احترام

أجيب بلا احتشام، لا تعود نفسك إلَّا ما تحظى بأجره وتحمد على ذكره، وإياك ومحاجة من يملكك قهره وينفذ فيك أمره، يستدل على رزانة الرجل بقلة نطقه ومقاله، وعلى فضله بفضل عمله واحتماله، فأكرم إخوانك، وأكثر خلانك، واكفهم لسانك، فطعن اللسان أنفذ من طعن السنان، تعام عما تسوءك رؤيته، وتغاب عما تضرك معرفته، ولا تشر على من لا يقبل منك، ولا تُجب عما لا تسأل عنه، وإذا عاتبت فاستبق، وإذا صنعت معروفًا فاستره، وإذا صُنع إليك فانشره، وإذا أذنبت فاعتذر، وإذا أذنب إليك فاغتفر، فالمعذرة بيان العقل، والمغفرة بيان الفضل، لا تزهد في رجل عرف فضله، وجرب عقله، ولا تعن قويًّا على ضعيف، ولا تؤثر دنيا على شرف، ولا تشر بما يعقب الوزر والإثم، ولا تفعل ما يقبح الذكر والاسم.

□ الق صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير مذلة ولا هيبة منهما، وتوقر من غير كبر، وتواضع من غير مذلة، ليكن ضالة عقلك التي ينشدها ونجعته التي يرتادها الحق، فاحكم به ولو على نفسك، ولا تكن ممن تأخذه العزة بالإثم، عليك بالنشاط والعمل، وترك البطالة والكسل، ولا تكن كلًّا على غيرك، فإن الرجل كل الرجل الذي يأكل من كسبه، ويشرب من ورده.

□ أقدم على جلائل الأعمال مع الصبر والثبات، واحمل نفسك على معالي الأمور والتثبت بأحسن الأعمال والأمور العظام، والتهاون لنيلها بالآلام؛ فإن الكسل من النقائص التي توجب الخسائس والشرور.

وقد قيل: إذا رقدت النفس في فراش الكسل استغرقت في بحر الحرمان.

ليكن مجلسك هادئًا، وحديثك موزونًا مرتبًا، وإذا جلست فلا تستوفز، وتحفظ من تشبيك أصابعك وفرقعتها، والعبث بشاربك ولحيتك وخاتمك، وتخليل أسنانك، وإدخال إصبعك في أنفك، وكثرة بصاقك وتنحنحك، والتمطي والتثاؤب في وجه الناس وفي الصلاة وغيرها.

□ أصغ إلى الكلام الحق ممن حدثك من غير إظهار تعجب مفرط، ولا تسأله إعادته، واسكت عن المضاحك والحكايات، لا تحدث عن إعجابك بولدك وشعرك وكلامك وتضيفك وسائر ما يُخصك، إذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك، وتفكر في جهتك.

□ لتكن سهل اللقاء والبشاشة ولو في حال المرض، وبادر بالتحية والبشر من تلقاه واكتم بؤسك، واجعل شكواك لمن يقدر على غناك، ولا تحضر منازعة؛ فإنك لا تخلو من قسط من أذاها، ولو بالمطالبة بأداء الشهادة.

□ إياك والانبساط؛ فإنه عورة من عوراتك، فلا تبذله إلَّا لمأمون عليه حقيق به، لا تتصنع تصنع المرأة في التزين، ولا تتبذل تبذل العبد، ولا تلح في الحاجات، ولا تشجع أحدًا على ظلم، لا تُعْلِم أحدًا من أهلك وولدك فضلًا عن غيرهم مقدار مالك؛ فإنهم إن رأوه قليلًا هنت عليهم، وإنْ رأوه كثيرًا لم تبلغ رضاهم قط، واجفهم من غير عنف، ولِنْ لهم من غير ضعف، ليكن لك فضل عزلة؛ فإن كثرة الخلطة مجلبة الابتذال.

□ ومما يروى عن علي رضي الله عنه: «إياك وفعل القبيح؛ فإنه يقبح ذكرك ويكثر وزرك»، إياك أن تَسْتَسْهِل ركوب المعاصي؛ فإنها تكسوك في الدنيا ذلة وتكسبك في الآخرة سخط الله، عليك بالحكمة فإنها الحلية، عليك

بالحياء فإنه عنوان النبل، عليك بالسخاء فإنه ثمرة العقل، عليك بالأناة فإن المتأني حري بالإصابة، عليك بحسن الخلق فإنه يكسبك الكرامة ويكفيك الملامة، عليك بلزوم الحلال، وحسن البر بالعيال، عليك بالصدقة تنج من دناءة الشح، عود نفسك الجميل فإنه يُجمِّل عنك الأحدوثة، ويجزل لك المثوبة، عود نفسك حسن الكلام تأمن الملام.

كن بالوحدة آنس منك بقرناء السوء، كن للمظلوم عونًا، وللظالم خصمًا، كن للود حافظًا وإن لم تجد محافظًا، كن مؤاخذًا نفسك مغالبًا سوء طبعك، وإياك أن تحمل ذنوبك على ربك.

كن بأسرارك بخيلًا، ولا تذع سرًّا أودعته فإن الإذاعة خيانة، كن حسن المقال جميل الأفعال، فإن مقال الرجل برهان فضله، وفعاله عنوان عقله، كن صموتًا من غير عي، فإن الصمت زينة العالم وستر الجاهل.

كن بعدوك العاقل أوثق منك بصديقك الجاهل.

كن متصفًا بالفضائل مبرأ من الرذائل.

لا تأس على ما فات، لا تقولن ما يسوءُك جوابه، لا تركنن في مودة من لم تكشفه، لا تزهدن من شيء حتى تعرفه، لا تضمن ما لم تقدر على الوفاء به، لا تخبر بما لم تحط علمًا به، لا تأمن البلاء في أمنك ورخائك، لا تعدن شرًّا ما أدركت به خيرًا، لا تعدن خيرًا ما أدركت به شرًّا، لا تتكلم بما لا تعلم فكفى بذلك جهلًا، لا تمسك عن إظهار الحق إذا وجدت له أهلًا، لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال.

□ لا تُعوِّد نفسك اليمين فإن الحلاف لا يسلم من الإثم، لا تعود نفسك الغيبة فإن معتادها عظيم الجرم، لا تيأس من الزمان إذا منع، ولا

تثق به إذا أعطى، كن على أعظم الحذر، لا يؤنسك إلَّا الحق، ولا يوحشنك إلَّا الباطل، لا تخل نفسك من فكرة تزيدك حكمة، وعبرة تفيدك عصمة، لا تسئ الخطاب فيسوءك الجواب، ولا تحارب من لا يعتصم بالدين، فإن مغالب الدين محروب [(١)]، لا تغالب من لم يستظهر بالحق فإن مغالب الحق مغلوب.

□ لا تجهل نفسك فإن الجاهل بنفسه جاهل بكل شيءٍ» [(٢)].

التربية على الآداب النبوية:

ولما كان أعلى مقامات الكمال الإنساني في التحلي بمكارم الأخلاق هي لرسول الله ﷺ الذي مدحه ربه قائلًا له: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم].. كانت التربية على هذه الآداب النبوية والسنن المصطفوية هي معارج لعُلاة الهمم ممن يطلبون التحلِّي بحُسن الخلق والتربية عليها، فهناك آداب بر الوالدين، وآداب صلة الرحم، وهناك آداب للضيافة، وآداب للجوار، وآداب لطلب العلم، وهناك آداب للنظر، وأخرى للسان، وآداب للذكر، وأخرى للخُلْطة، وآداب للطعام، وآداب للنوم، وآداب للسلام، وآداب السواك، وأخرى للعطاس، وآداب الاستئذان، وآداب للسفر، وآداب للكَسْب والمعاش، وآداب للمجالس.

وهذه الآداب أفردها العلماء بالذكر والتأليف، وشُحنت بها كُتب السُّنَّة، فلزام على المُربِّي أن يعيها جيِّدًا فهي أسمى مقامات السمو، وليس

---

(١) أي مهزوم في الحرب.

(٢) «جوامع الآداب في أخلاق الأحباب» لجمال الدين القاسمي الدمشقي (٦- ١٥) باختصار - طبع مؤسسة قرطبة.

فوقها أو بعدها غاية، وليحرص المُرَبِّي والمؤدب أن يتحلَّى وبها ويُحَلِّي بها تلاميذه ممن يُرَبيهم.

□ وجدير بعالي الهمة أن يقلع الأشواك من أرض نفسه وأرض غيره التي يريد أن يزرع فيها هذه الآداب، وأن يُجَنِّب نفسه مساوئ الأخلاق وسفسافها، أو كما قالوا: «التَّخْلِية قبل التحلية».. تخلية النفس من مساوئ الأخلاق وأراذلها، وتحليتُها بمكارمها.

مفاهيم يُرنو إليها عُلاة الهمم في التربية:

□ وهناك مفاهيم يرنو إليها عُلاة الهمم في التربية منها:

تعظيم حُرمات المسلمين، ومحبة العلماء العاملين والأئمة الربانيين، وتَحَمُّل المسؤولية، وحب الجهاد، والرغبة في الاستشهاد، والتورع عن الفتوى، ومعرفة قيمة الأوقات وتعميرها بالطاعات، وفقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بواجبه حسب القدرة والطاقة، ومعرفة مراحل الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والعبودية المطلوبة في كل مرحلة، والثقة بنصر الله عَزَّوَجَلَّ واليقين بوعده، والرجولة وترك التنعُّم، ومعرفة الحضارة الإسلامية، والمخططات اليهودية والماسونية والصليبية[1].

٣- التربية الروحية:

التربية الروحية: ضرورة لا غنى عنها في البناء.. بل لا يُتصور أن يقوم بدونها عمل دعوي على الإطلاق، إذا عنينا بالتربية الروحية تعميق الصلة بالله، وترقيق القلب لعبادته سبحانه، وتذكير الإنسان باليوم الآخر، وربط

---

(١) وهذه رؤوس عناوين أوردها الدكتور أحمد فريد في كتابه القيم «التربية على منهج أهل السنة والجماعة» وأفردنا لها الفصول في هذه الموسوعة.

مشاعره بالموقف الذي يلقى الله فيه.. وقد كان هذا جزءًا بارزًا وأساسيًّا من عمل الرسول ﷺ في تربية أصحابه رضي الله عنهم في مكة خاصة، حين فُرِض عليهم قيام الليل لتعميق هذه الصلة وتثبيتها وترسيخها.

✍ إن الإنسان في حلبة الصراع يُجهَد ويتعب، ويحتاج إلى سند يقويه، يمنعه من السقوط، ويمنع عنه الوهن الذي قد يعتريه، وهنا تبرز تلك الطاقة الروحية تقيه من الوهن، وتقوّيه على الصمود، بما تمده من طاقة، وتشع في كيانه من نور.

✍ والإنسان في حلبة الصراع قد يستوحش، حين يتكاثر عليه الأعداء، ويجد نفسه وحده، أو يجد مَن حوله مستضعفين مثله لا يملكون نصره، وهنا تبرز تلك الطاقة الروحية تُؤنسه بذكر الله فلا يستوحش، وتذكّره بالثمرة الجنيّة في اليوم الآخر فيجدّ في السعي.

✍ والإنسان في حلبة الصراع قد يفتقد المتاع الحسي، والأهل والأصحاب، والفراش الوثير، والطعام الوفير، فتحنّ نفسه لذلك كله، أو لشيء منه، فيثّاقل إلى الأرض، وهنا تبرز الطاقة الروحية توازن في حسّه ثقلة الأرض، وتعوّضه عن حرمانه بمتاع أعلى: معية الله، ورضوان الله، والجنة.

إنها الزاد التي يحتاج إليه المسافر ليقطع الرحلة في أمان، إن هذه التربية الروحية هي زاد الطريق ومدد الروح وجلاء القلب، إنها تفتح القلب، وتوثق الصلة بالله، تشرق بالنور، وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة.

✍ لا بد من الربانية لبعث الأمة الإسلامية.

✍ «إن سر الأسرار في نواقض العمل الإسلامي في القرن الرابع

عشر يكمن في الانطلاق إلى الدعوة وطيّ فكرة الإنضاج في الربانية»[١].

✍ ولا ربانية بلا عبادة، بل الربانية علَم على العبادة، ومبنى العبادة على الذكر، والذكر الكثير هو الطريق للوراثة النبوية ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]، ولا ربانية بلا علم ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران]. ولا ربانية إلَّا ببيئة تربي على العلم وعلى الذكر، ويتحرك فيها الرباني نحو الخارج، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعلم والتعليم، والنصيحة والخدمة»[٢].

إن معاني الإيمان تحتاج إلى تجديد.. والأمة محتاجة إلى إحياء مراتب الصديقية والشهادة والصلاح.. وهي من الأهمية في المكان الكبير، والتفتيش على الدقائق الإيمانية والقلبية من الإخلاص والزهد والمحبة والتسليم والرضا من الخير والأهمية في ذروة سامية.

وبقدر ما يوجد في الأمة الإسلامية صدّيقون وشهداء وصالحون تكون القدوة موجودة في حاضر الأمة.

✍ ولطالما علت أصوات المخلصين الذين يريدون الخير لأمتهم: عندنا نقص وجفاف روحي.. عندنا نقص تربوي.. وسيبقى هذا الكلام مستمرًّا حتى توجد كوادر عريضة قد تحققت بمعاني الربانية.

✍ التزكية هي ربع الرسالة المحمدية، ومطلب عظيم أقسم الله عليه أحد عشر قسمًا متتالية ما أتت إلَّا في موضع واحد من كتابه الكريم في

---

(١) «إحياء الربانية» لسعيد حوّى (ص١٩) – دار السلام.

(٢) المصدر السابق (ص٢١).

سورة الشمس ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ ﴾.

إن الذي نال قسطًا من التزكية من مدرسة التهجد والصيام والذكر والإخلاص هو الذي يؤثر في الأجيال التي من بعده إلى ما شاء الله.. والمتخلف عنها يابس قاس، تقسو قلوب الناظرين إليه.

□ قال بشر بن الحارث الحافي: «بحسبك أن قومًا موتى تحيا القلوب بذكرهم، وأن قومًا أحياء تموت القلوب برؤيتهم».

✍ إن إحياء الإخلاص والإحسان وفقه الباطن من أكبر واجبات ومهمات هذا العصر وفريضة الداعي.

✍ ولكن ليست هي نهاية الشوط، فالأمر ليس مجرد سبحات روحية وإشراقات، مهما يكن عمق هذه السبحات، ووضاءة تلك الإشراقات.. إنه جهد وجهاد، وصراع حاد مع الباطل، يهدم الباطل ويشيد الحق.

ولا تغيّر التربية الروحية وحدها من واقع الأمة الهابط إلى الحضيض.

حقًّا إنها تنقذ أفرادًا من الضياع القاتل، وتبني لهم سياجًا يحميهم من المهلكات، ولكنها لا تنقذ الأمة من الضياع؛ لأنها لا تدفع بجنود إلى حلبة الصراع، ولا تشارك في التدافع الذي قال الله إنه هو الأداة الربانية لحفظ الأرض من الفساد ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ [البقرة].

٤- الشحن العاطفي: أو التربية العاطفية:

مطلوب أن يتحمّس الناس لما يؤمنون به ولا يكونوا كالخُشب المسنّدة، لا تتحرك ولا تحدث حركة، فالدعوة لا تنتشر بأمثال هؤلاء، ولو

كانوا هم أنفسهم مستجيبين وملتزمين، ولكنها بمفردها لا تؤدي إلى شيء.

ولكن الحماسة كثيرًا ما تكون على حساب الوعي، وعلى حساب العلم الصحيح، وعلى حساب الخبرة فتفقد كثيرًا من مزاياها وتنشأ عنها أضرار كثيرة.

أما حين تكون الحماسة مع العلم والخبرة، والوعي فلله ما أحلاها حين يغرّد الإنسان ويحدو بهذا القول الجميل:

لإسلامي أعيش أنا	لتوحيدي وذا ديني
لقرآني أعيش أنا	لإيماني وذا ديني
نقشتُ حروفَه تعلو	على كل العناوينِ
بِخطٍّ بارزٍ يسمو	على كل الميادينِ
لإسلامي ولوْ حتَّى	إلى الجدرانِ شَدُّوني
لإسلامي ولو حتى	إلى النيرانَ زَفُّونِي
لإسلامي لإسلامي	ولو في السوقِ باعوني
وإسلامي له عرقي	له نبضي وتكويني
ثاراتٌ لإسلامي	تُعايِشُنِي تغذيني
تَبُثُّ النُّورَ في روحي	وتنبضُ في شراييني
أنا ما رملةٌ إلَّا	وتعرفُني وتدعوني
أنا بالدَّمِّ قد رَوَّيتُ	زيتوني وليموني

أنا من أعين الشهداء ... أستوحي براكيني

من القرآن ينشدني ... فيطربني ويشجيني

أمامًا يا دروب الخُلْدِ ... شُدِّيه وشدِّيني

أمامًا يا مخاضَ النار ... يا درب القرابين

صلاحُ الدين في أعماقِ ... أعماقي يناديني

ورايات التي طُوِيت ... على ربوات حِطِّين

وأطفالي هناك هناك ... في عمر الرياحين

وآلافٌ مِن الأسْرَى ... وآلافُ المساجينِ

تُنادي الأمةَ الكُبرَى ... وتهتِفُ بالملايينِ

وصوتُ مؤذِّنِ الأقصى ... يهيب بنا أغيثوني

أنا ماذا أكونُ أنا ... بلا ربي بلا ديني

أنا ماذا أكون أنا ... أجيبوني أجيبوني

٥- التربية على التوعية والبصيرة:

البصيرة من ألزم اللوازم للقاعدة الصلبة وهي ضرورة لا غنى عنها، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف].

فالغبش الذي أحاط بالإسلام وحقائقه في نفوس الناس غبش كثيف شامل، يحتاج إلى توعية شاملة بحقائق الإسلام ومفاهيمه بدءًا بلا إله إلَّا الله ونواقضها، ومفهوم العبادة، والقضاء والقدر، والدنيا والآخرة،

ومفهوم عمارة الأرض، ومفهوم الجهاد.

والبصيرة مطلوبة لمعرفة واقع الأمة والأسباب التي أدَّت إليه، فبغيرها لا تستطيع وضع المنهج المناسب للدعوة، وخطورة الانحراف لا يقدرها حق قدرها كثيرون.

✍ والتوعية مطلوبة لمعرفة مكائد العدو ومخططاتهم للقضاء على الإسلام، ووسائلهم في ذلك، والجهل بمخططات الأعداء ربما تستدرج بسببه جماعات في مواقف لا تخدم الدعوة مطلقًا، هؤلاء يكيدون ويمكرون بالإسلام مكر الليل والنهار يتابعون كل ما يدور في العالم الإسلامي من أفكار وحركات، ويخططون على علم.

✍ وهذه البصيرة تكتسب بالتعلم والتعرف على السنن الربانية تارة، وتدبر التاريخ تارة، وبالخبرة تارة، وبالتربية تارة، وبالمشاورة التي يتم فيها تمحيص الآراء وبيان جهات النظر تارة.

✍ ولكن التوعية الفكرية وحدها لا تؤدي إلى شيء حقيقي ما لم تكن زادًا لعقيدة صحيحة وحركة واعية، تزيدها المعرفة وعيًا وتبصرّها بمزالق الطريق، أما حين تتحول إلى ثقافة – مجرد ثقافة – فهي ترف عقلي لا يغيَّر واقع النفوس.

٦- التربية الجهادية:

النفوس الرخوة التي لا تقدر على تكاليف الجهاد لا تصلح لحمل الدعوة، ولا للتحرك في وسط الأشواك، وفي مواجهة الوحوش الضارية التي تفتح أفواهها وتمدّ مخالبها لتنهش من تطوله من جنود الدعوة، وتفتك به بعد أن تذيقه العذاب الأليم.

فالتربية على معاني البذل والعطاء وحب الجهاد وحب الاستشهاد والمعاني الغالية غابت عن واقعنا المرير، ومثل هذه الأمة مثل المطر، والرحيم رحيم على الدوام، والكريم كريم على الدوام، ومن جاد على هذه الأمة بفرسانها وأبطالها المغاوير كعلي بن أبي طالب، والبراء بن مالك وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعباد بن بشر، وسلمة بن الأكوع، والمثنى بن حارثة، والقعقاع بن عمرو التميمي، وطليحة الأسدي، ونور الدين محمود زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، وقطز، وبيبرس.. من جاد بهؤلاء يجود بمن يسير على دربهم ويحذو حذوهم.. ولا بد من بث هذه المفاهيم الجميلة وأن يرضع أطفالنا هذه المعاني الطيبة مع اللبن.. وأن نقصَّ عليهم في كل حين أخبار هؤلاء الأبطال حتى ينشأ الصغار من صبياننا من المهد على حب الجهاد والشهادة في سبيل الله تعالى حتى يأذن الله بعودة فجر الإسلام الجميل ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود]!!.

ولكن التربية الجهادية – وحدها- لا تكفي لإقامة دعوة، بل لا تكفي حتى لحماية الدعوة من الأعداء، بل كثيرًا ما تكون سببًا في ضراوة الضرب من قبل الأعداء حين تنقصها الخبرة السياسية والخبرة الحركية، أو العلم، أو حين تبتعد عن العلماء العاملين وتسفّه آراءهم، وتتهمهم بأنهم لا يحيطون علمًا بالواقع أو ينقصهم الإحاطة «بفقه الواقع»، هذه العبارات الرنانة المطاطة التي أقصت الشباب عن العلماء ودورهم الريادي حتى وقعت المصائب والطّوامّ الجسام التي منيت بها الدعوات في واقعنا.

كيف ينصر الله عَزَّ وَجَلَّ شبابًا أكلوا لحوم علماء السُّنّة، وخاضوا في أعراضهم.. وسخروا منهم بأن فقههم فقه دورات المياه حتى أصيبت الدعوات في مقتل.

✍ واشتطت فصائل فدخلت في معارك دموية مع الناس والسلطات، وكان لهذا أسوأ الأثر على العمل الإسلامي كله، ففضلًا عن النفور العام عند الناس من هذه الأعمال التي لا سند لها من شرع الله، وما أقرّها عالم جهبذ رباني، فقد وجدت وسائل الأعلام المتربصة بالإسلام فرصة مواتية لتلوين الساحة كلها بلون الدم المراق، ووصمت كل عمل إسلامي أيًّا كان نوعه بأنه عمل إرهابي ينبغي أن يحارب وتجفف منابعه! وما كانت وسائل الإعلام العالمية في حاجة إلى مَن ينبهها أو يحفزها إلى انتهاز الفرصة، فاستغلت هذا بأقصى حدود الاستغلال.

وهذا كله نتيجة حتمية لنقص العلم الشرعي الذي يُشكل الضوابط الضرورية للفكر وللسلوك، وأيضًا نتيجة حتمية للبعد عن العلماء.

✍ وما أصيبت الدعوات في مقتل إلَّا بسبب مثل هذه العجلة، وسبب آخر يوازيه هو تغليب العمل السياسي والاشتغال بالقضايا الوطنية والاجتماعية قبل التربية على العقيدة الصحيحة.. فاستهلكت طاقات الشباب في قضايا لا طائل منها.. قبل أن يتربوا التربية الإيمانية الكافية ليكونوا أصلب عودًا، وأكثر دراية، وأطول نفسًا وأقل تعجلًا حتى لا ينساقوا وراء عواطفهم فقط، ويظنوا أن أهدافهم سهلة المنال قريبة التحصيل.

٧- تربية القادة وصناعة الطموحات الكبيرة:

□ يقول الدكتور عبد الكريم بكّار: «المُثل التي يمكن أن يتطلع إليها المرء كثيرة، والمستويات التي يطمح في الوصول إليها، لا حدود لها، ولكن قلة قليلة من الناس أولئك الذين يعرفون الإمكانات المتوفرة لديهم، أو

تلك التي يمكن تطويرها لبلوغ أهداف كبرى ومنازل متقدمة.

إن مما لا شك فيه أن لدى السواد الأعظم من الناس ما يمكِّنهم من الوصول إلى الآفاق العليا في كل ما تسمو إليه النفوس النبيلة في ميادين الحياة كافة، لكن النماذج الرديئة، والأسر المتهدمة، والتعليم السيِّء، كل أولئك يقتل التطلعات، ويخفّض درجة الأحلام والآمال؛ مما يجعل هموم الناشئ صغيرة، وآفاق ما يصبو إليه محدودة، وهذا من جهته يقلل من اهتمامه بتأهيل نفسه، ويجعل ركوب المشاق من أجل التكوين الشخصي شيئًا لا معنى له!.

كثير من الأهل، وكثير من المربين ينشغلون بمراقبة الناشئ ومتابعته وضبطه، وتلقينه بعض الآداب والمعلومات عن طريق دلالته على الآفاق التي تنتظره، وعن الوضعية التي يمكن أن يكون عليها، وبعضهم يظن أن فائدة الحديث عن الآمال والطموحات محدودة؛ لذلك فإنهم يهملون ذلك، مع أن الذي يقرأ في سير العظماء يقف على حقيقة سافرة هي تأثرهم الشديد بكلمة قالها أستاذ أو والد أو صديق، ويجد أن الذين غيرت كلمة صادقة مخلصة مجرى حياتهم ليسوا أعدادًا قليلة!

إن كثيرًا من الناشئة لهم طموحات، تتصل بالجاه والنفوذ، وجمع الثروة من أي طريق، وبعضهم لهم طموحات مشروعة، ولكن لا تتناسب مع إمكاناتهم ومواهبهم، ومهمة المربين في الحالتين أن يُرشِّدوا تلك الطموحات، ويجعلوها أكثر عقلانية وواقعية.

إن ما يدل على نبل الإنسان ليس ما يفعله، ولكن ما يتمنى بصدق أن يفعله، حيث إن كل أعمالنا، تظل مقيدة بقيود البيئة، وحدود الممكن، أما

الأحلام والطموحات فهي حرة أبدًا طليقة، وقد ورد في نصوص عديدة ما يزكي المقاصد الحسنة، ويحث عليها، كما في قوله ﷺ: «**فمن همَّ بحسنة فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة كاملة**»(١).

إن تذكير الناشئة بما يمكن أن يبلغوه، يولد لديهم حاسَّة جديدة، يتلمسون من خلالها إمكاناتهم، ويوسعون آفاق نظرهم إلى المستقبل، وهذه مهمة الكبار، وينبغي أن نحذر مع ذلك من الأشواك الضارة التي قد نزرعها مع الأحلام الجميلة: أشواك الأنانية والفردية الزائدة والرعونة،ونفسية الوصول عن أي طريق وبأي وسيلة»(٢).

إن عُلاة الهمم من المُرَبِّين عليهم دور كبير لعودة مجدنا وهو التربية القيادية فعليهم أن ينظروا بعين الصقر على النشء النجيب الذي مَنّ الله عليه بالتميُّز والنبوغ فيربون هذا النشء كي يكونوا قادة، ولعَلَّ لنا في أسلافنا القدوة، فقد تربَّى علي رضي الله عنه في بيت النبوة، وأخذ الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ ولده عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ليشهد معركة اليرموك وهو غلام؛ حتى يعيش في هذا الميدان منذ نعومة أظافره، فصار بعد ذلك بطلًا مغوارًا وفارسًا عظيمًا لا يُشَقُّ له غبار.

□ ومحمد الفاتح.. البطل العظيم الذي فُتِحت القسطنطينية على يده الكريمة كان شيخه ومُربِّيه يذهب به إلى الشاطئ وهو صغير ويريه أسوار القسطنطينية، ويقص عليه من كرامة فاتحها وما ادخَّر الله له من الإكرام والإنعام، فرغّبه وشوّقه، وحبَّب إليه منذ صغره أن يجري الله فتحها على

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) «حول التربية والتعليم» (ص٩٨- ٩٩).

يديه، وصار هذا همّه صباحًا ومساء، وكان له ما أراد، فتربية القادة في كل فروع الإسلام وميادينه واكتشاف هذه الطاقات أصل أصيل في عودة مجد الأمة.

٨- وتربية على الإتقان والعناية وبث روح الجَمَال في النشء منذ الصِّغَر:

□ يقول الدكتور عبد الكريم بكّار: «العصر الذي نعيش فيه هو عصر الأشياء الدقيقة والأشياء المتقنة والفائقة، وهذه السمات كلُّها سمات زائدة على الوجود، إنها نوع من التجاوز للضرورات باتجاه الأناقة والكمال، ويمكن القول: إن ما نلاحظه من جودة وإتقان وتنظيم في البيئة المحيطة والأشياء المنتَجة، هو - بمعنى ما - صدًى لكينونة إنسانية منظمَّة. وتعبِّر المنتجات الرديئة- في أكثر الأمر- عن أمم، طابعها العام الكسل والفوضى والجهل والاضطراب، وهذا من الأشياء المشاهدة اليوم.

إن تجويد الأعمال - أيًّا كانت- وإتمامها على نحو متميز، يتطلب على ما يبدو نوعًا من الاستقامة الفكرية والنفسية، كما يتطلب تقاليد اجتماعية راسخة، ومستوى حضاريًّا عاليًا، حيث يتم طرد الجيد للرديء، ويتمدد كيف الأشياء على حساب كمها.

إن المواد الخام آخذة في النضوب، وليس أمام العالم من مخرج لمواجهة هذه المسألة سوى تمكن الناس من الاستفادة القصوى مما تبقى من موارد، وذلك لن يكون إلَّا من خلال الحرص المطلق على «النوعية» في كل شيء؛ لأنها وحدها هي التي توقف هدر الموارد، وتمكن من إنتاج أجهزة صغيرة الحجم عالية الكفاءة، وآلات اقتصادية ومعمرة، وما نراه اليوم من تنام

سريع للمعلوماتية والهندسة الوراثية في مجال النبات والحيوان، ما هو في الحقيقة سوى صدى للإحساس بضرورة تحسين نوعية الأشياء والارتقاء بها.

إن لدينا نصوصًا عديدة، تدلنا على ضرورة التحلي بخلق الإتقان والإكمال، والسعي إلى معالي الأمور في كل ما يتصل بنا، وكل ما ننتجه من أفكار ونظم وأشياء.. حين سئل النبي ﷺ عن «الإحسان» بعد أن سئل عن الإسلام والإيمان قال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١) كأنه يشير إلى أن العبد يعبد الله تعالى على هذه الصفة، من استحضار القرب، وأنه بين يديه كأنه يراه، وذلك يوجب الخشية والتعظيم، كما يوجب النصح في العبادة، وبذل النصح في تحسينها وإتمامها وإكمالها (٢).

• وفي حديث آخر: «**إن الله يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها**»(٣).

• وفي نص ثالث: «**إن الله تعالى يحب من العامل إذا عمل أن يُحسن**»(٤).

إذا تأملنا كل جوانب الحياة، وجدنا أنه ما من شيء إلَّا ويمكن أن يؤدي الحد الأدنى من وظائفه، ويعطي نوعًا من الانطباع بأنه تام وكامل، لكن الخبرة الجيدة هي التي تمحص دائمًا أشكال القصور والزيف، وترشد

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص٣٣).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) حسن: رواه البيهقي في «شعب الإيمان» عن كليب، وحسّنه الألباني في «الصحيحة» (١١١٣)، و«صحيح الجامع» (١٨٩١).

إلى الوضعية التي تبلغ فيها الأشياء اكتمالها. ويبدو أنه لا سبيل إلى تكوين الخبرات الناضجة سوى التجربة، ولكن لا بد لمن يكسب وعيه عن طريق التجارب أن يدفع الثمن، وهذا ما تفعله الأمم الضعيفة اليوم!.

إن كل ما يتصل بالثقافة والتربية لا ينضج ولا يرتقي - على نحو جوهري- عن طريق النظم والأفكار والعظات، وإنما عن طريق زجِّه في أجواء تحمله حملًا على الارتقاء، أو تطرده وتحجمه عند حروفه وتأبّيه.

□ هذه الأجواء تتشكل عن طريقين اثنين:

أ- ما يقوم به كل أولئك الذين يرتقون بعقلية الناس ومشاعرهم ومهاراتهم، وما يبذلونه من جهد: الأسرة من خلال دلالتها لأطفالها على الأفضل والأجود والأحسن في كل ما يأتونه، والمعلم الذي يراجع أعمال طلابه، ويرشدهم إلى ما ينبغي أن تكون عليه، والدولة التي تشجع الأعمال العظيمة المتقنة التي ترفع سوية المجال الذي تنتمي إليه.

ب- النقد النشط البنّاء لكل أولئك الذين يأخذون من كل أمر شكلياته، ومن كل شيء أدناه، وأولئك الذين أصابتهم حمى الإنجازات السريعة والفجة، ومهمة الحكومات في هذا الجانب حيوية، حيث إن بإمكانها أن تضع مواصفات عالية للجودة في كل شيء، وأن تتابع تطبيق تلك المواصفات دون استرخاء أو محاباة لأحد، ويظل الأصل هو الثقافة التي تتغلغل في أوصال الحياة الاجتماعية، وتكوين ثقافة الجودة يحتاج إلى وقت وجهد، لكن ذلك حين يتم ينتج عنه صلاح شامل وارتقاء عام، يسعد به الجميع، ويمكن للقوانين والنظم أن تؤدي وظيفة مهمة في ذلك»[1].

---

(١) «حول التربية والتعليم» (ص٩٩- ١٠١).

إحياء الجمال ولمساته والذوق الرفيع.. كُن جميلاً تر الوجود جميلاً:

□ يقول الدكتور بكّار: «كثيرًا ما يلتقي الإتقان بالجمال؛ حيث إن الإتقان يتجلى دائمًا في السمات والأعمال فائقة الجودة.

والأشياء الجميلة هي أيضًا أشياء متفوقة، تجاوزت المستويات المألوفة، وآفاقها المنتظرة، وتميزت عن نظرائها.

إن الإتقان يكاد يكون شيئًا «وظيفيًّا»؛ فالأشياء المتقنة دائمًا تؤدي وظائفها على نحو متفوق، لكن لا يشترط في كل شيء متقن أن يكون جميلًا، كما أنه ليس كل جميل متقنًا، وهذا معروف لا يحتاج إلى شرح.

بعيدًا عن التفلسف في تحديد طبيعة الجمال ونوعيته ومقاييسه نقول: إن كل ظاهرة جمالية، تشتمل على عناصر ذاتية، تجعل كثيرًا من الناس ينجذب إليها، كما أن لكل إنسان بعض الخصوصيات عند قراءته لتلك الظاهرة وتفاعله معها. ويمكن القول: إنه مهما اختلفنا في المقاييس الجمالية، ومهما تنوعت الذائقة الجمالية لدى الناس، فإن هناك خطوطًا عريضة مشتركة في الإحساس بالجمال بين كل أولئك الذي تتشكل خبراتهم الثقافية على خَلْفيّة واحدة، إن درجة الانبهار بأي شيء جميل تتحدد من خلال ما يتفاجأ به الناظر من انزياح «الشيء الجميل» عن المعايير والمدركات المكتسبة لديه عبر خبرته بالأشياء المماثلة، أي مدى اتساع «المسافة الجمالية» بين المختزن في الخبرة، وبين المستوى الذي يشعه الشيء الجميل.

إن الجمال هو الحيوية التي بإمكانها أن تتغلغل في كل الأشياء، وإن أشد الأشياء قسوة ومرارة يظل قابلًا لإضفاء المسحة الجمالية عليه. في

نصوص عديدة أمر القرآن الكريم بإضفاء الجمال على أشياء هي موضع معاناة لبني الإنسان، حيث قال سبحانه: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥﴾ [المعارج]، والصبر شاق على النفوس، ومع هذا فينبغي أن يكون جميلًا، ومصدر جماله ألا تصحبه شكوى لغير الله، وقال سبحانه: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠﴾ [المزمل]. قالوا: الهجر الجميل هو الذي لا جزع معه، ورأى عمر رضي الله عنه رجلًا يسحب شاة من رجلها ليذبحها، فقال له: ويلك قدها إلى الموت قودًا جميلًا»[1].

إن حاجتنا الشخصية والاجتماعية إلى وجود الظواهر الجمالية ليست حاجة هامشية يمكن التغاضي عنها، فحين يلبي الإنسان متطلبات وجوده المادي والمعنوي فإنه يحسّ بأنه ما زال في حياته فراغ لا يملأ إلَّا بالجماليات إن مرتبة الأشياء الجميلة تأتي بعد مرتبة الأشياء الضرورية والحاجية، لكن عندما يحين وقتها فإنه لا يغني عنها أي شيء آخر.

إن الحسَّ الجمالي للطفل يتكوَّن في المنزل منذ الشهور الأولى للطفل حيث يربى من خلال الابتسامة والنظرة والهمسة والقصة، وحيث تشيع في المنزل كلمات تحمل معنى اللطف والجمال، مثل الأحسن والأجمل والألطف والأروع، ومن المهم في هذا السياق أن يقوم الأبوان بتنظيم البيئة من حول الطفل؛ فالبيئة المضطربة وغير النظيفة، لا تساعد على تكوين الإحساس بالجمال، ولا تساعد على تكوين مهارة إضفائه على الأشياء والأفعال.

في المدرسة يرى الطفل النظام والنظافة، ويتلقى ثقافة منهجية

---

(١) «جامع العلوم والحاكم» (ص١٠٣).

وتوجيهية تكمل وتنمي ما قام به المنزل.. وهكذا يكون للمسجد وظيفته، كما يكون للإعلام مهمته في ترسيخ القيم الجمالية لدى الطفل.

لا ينبغي أن نكتفي بكتابة الطفل لواجبه، واصطحابه لكتابه، بل لا بد أن تكون ثيابه ودفاتره وكتبه تدل على النظافة والتنظيم والأناقة.

إن مما لا يخفى أنه من الصعب إضفاء الجمال على الأشياء والمواقف في مجتمع مضطرب متوتر، كما لا يمكن أن نفعل ذلك في مجتمع يفشو فيه التحلل والفساد؛ حيث إن كل أشكال القبح هي - على مستوًى ما- موصولة بمعنى من معاني «المعصية»، فالجهل والظلم والكسل والفوضى والاستبداد وقطع الأرحام والقذارة، وما شاكلها - عبارة عن بقع سوداء تشوه مرآة حياتنا، وتحول دون انعكاس المظاهر الجمالية عليها، وواجبنا إقصاؤها عن مجتمعاتنا إلى أبعد حد ممكن.

والله الهادي إلى الصواب»[١].

- قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى جميل يحب الجمال»**[٢].
- وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله جميل يُحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده، ويبغض البؤس والتباؤس»**[٣].
- وعن جابر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى جميل يُحِبُّ الجمال،**

---

(١) «حول التربية والتعليم» (ص١٠٢- ١٠٤).

(٢) رواه مسلم، والترمذي عن ابن مسعود، ورواه الطبراني في «الكبير» عن أبي أمامة، ورواه الحاكم في «المستدرك» عن ابن عمر، ورواه ابن عساكر عن جابر، وابن عمر وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٦٢٦)، و«صحيح الجامع» (١٧٤١).

(٣) صحيح: رواه البيهقي في «شعب الإيمان» وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٣٢٠)، و(١٦٢٦)، و«صحيح الجامع» (١٧٤٢).

ويحبُّ معالي الأخلاق، ويكره سفسافها»[(١)].

□ إن الجميل ﷻ أبدع في وصف الجنة ونعيمها وصفة أهلها وجمالهم، وربِّي بهذا أهل الإيمان على إيقاظ الذوق بالجمال في أرواحهم ومشاعرهم وأحاسيسهم نحو الجمال: جمال الزهر أو تفتح برعم، أو نداء كروان، أو هديل حمام، أو خرير مياه، أو نور نجم، وضياء كوكب، وابتسامة وليد يأخذها يراع شاعر يسبح مولاه، ويتكلم عن آثار الجميل فتذوب الأنفس من كلماته، وتدمع الأعين وتبكي الأفئدة من شعره أو وعظه.. وهذا جانب مهم من جوانب التربية لا يُغفَل.

التربية القرآنية أعلى تربية وأرقاها:

«لا شك في أن التربية القرآنية هي أعلى تربية وأرقاها، وقد ظهرت بركة هذه التربية في الجيل الأول الذي نزل عليه القرآن منجمًا، يغرس فيهم أصول العقائد، ويعمق فيهم المعاني الإيمانية الشريفة، ويثبتهم على الإيمان، وكان الصحابة رضي الله عنهم يتلقون الآيات القرآنية بالإيمان والتصديق، ويصدرون عنها بالعمل والاستجابة والطاعة، فترقى بهم القرآن إلى أعلى درجات اليقين والصدق والإخلاص والبذل والتضحية والثبات، وظهرت فيهم المواقف الإيمانية والأحوال الشريفة التي تصدق ما في قلوبهم من إيمان وتصديق بالقرآن، وكان أمام الصحابة رضي الله عنهم التطبيق العملي للقرآن وهو النبي ﷺ، فقد كان ﷺ قرآنًا يمشي على الأرض، سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الأوسط»، وابن عساكر، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٦٢٦)، و«صحيح الجامع» (١٧٤٣).

القرآن»[١] ..»[٢].

وهذه أمثلة للتربية القرآنية:

١- القرآن يُرَبِّي في قلوب الناس عقيدة التوحيد.

٢- القرآن يُرَبِّي في قلوب المؤمنين المراقبة لله وتقواه.

٣- القرآن يُربِّي المسلم على أن تكون علاقته مباشرة مع الله عز وجل فلا يحتاج إلى وسائط ولا شفعاء.

٤- القرآن يُربِّي المسلم على التفكير في خلق الله وآياته لبيان عظمة الله وقدرته.

٥- القرآن يُربي المؤمن على الثقة بنصر الله عز وجل واليقين بوعده.

٦- القرآن يُربِّي المؤمن على الغاية التي خُلِق من أجلها وهي عبادة الله عز وجل، والهدف الذي ينبغي أن يسعى إليه وهو رضا الله عز وجل وابتغاء وجهه.

٧- القرآن يربي المؤمن على الاستعداد للقاء الله عز وجل.

٨- القرآن يُربي المؤمن على أن التفاضل بين الناس ليس بالحَسَب ولا بالنَّسَب ولا بمال ولا بالشهرة وإنما هو بتقوى الله عز وجل.

٩- القرآن يربي المؤمن على التأدب بآداب القرآن، وما أجلّها وأجملها وأعظمها وأرفعها من آداب.

١٠- القرآن يربي المؤمن على الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة،

---

(١) مرّ تخريجه.

(٢) «التربية» (ص٢١٣).

والبذل لإعزاز دين الله ﷻ.

١١- والقرآن يربي في المؤمن العواطف الوجدانية.

١٢- وبالترغيب والترهيب يربي القرآن المؤمنين على ضبط الانفعالات والعواطف والموازنة بينها.

١٣- القرآن يربي المؤمن على المحبة الشديدة لله ﷻ وألا يؤثر عليه أحدًا (١).

علو همَّة النبي ﷺ في التربية:

□ يقول الدكتور أحمد فريد: «أعظم مربٍّ طرق البشرية هو النبي الخاتم ﷺ، وأعلى هدي وخير الهدي هو هدي محمد ﷺ، وأشرف جيل تربى على ظهر الأرض هو الجيل الذي رباه رسول الله ﷺ، وأجمل أوصاف وأسنى أخلاق وأطيب عقيدة ما تحلى به الصحابة الكرام ببركة تربية النبي ﷺ ، إنهم أوسمة شرف، ودرر مضيئة على جبين البشرية، ما سبقهم جيل على سمتهم، ولا يمكن أن يأتي بعدهم في مثل روعتهم وجلالتهم، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وقد فعل عز وجل، وصلى الله وسلم وبارك على من أحسن تربيتهم، ورفع منارهم، وارتفع بهم إلى درجات الرفعة والشرف في الدنيا والآخرة.

وهذه ومضات مضيئة، وأزهار متناسقة، وألوان فريدة، وأضواء عجيبة من هديه المبارك ﷺ في التربية»(٢).

□ وقد تكلم الشيخ الدكتور أحمد فريد عن هدي النبي ﷺ المبارك في

---

(١) انظر: «التربية» للدكتور أحمد فريد (ص٢١٣- ٢٢٦).

(٢) المصدر السابق (ص٢٢٩).

التربية، وها نحن نسرد أهم العناوين [1] لأنا قد تكلمنا عليها بإسهاب في فصول سابقة:

١- فمن هديه المبارك ﷺ في التربية الحوار واغتنام الفرص.

٢- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان إذا أمر بأمرٍ بدأ فيه بنفسه ﷺ.

٣- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يتعهَّد أصحابه ويسألهم عن أحوالهم.

٤- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يُرَغِّب الصحابة في الدرجات العالية والرُّتب السامية.

٥- ومن هديه ﷺ في التربية أنه كان يُلْفِتُ نظر الصحابة إلى ما يهِمُّهم.

٦- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان إذا بلغه عن أصحابه ما يكرهه قال: «**ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا**».

٧- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يربي أصحابه على السمع والطاعة ومعرفة بركة الانقياد.

٨- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يُرَبِّي الصحابة على أن الطاعة لوليّ الأمر مقيّدة بطاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ.

٩- ومن هَدْيه المبارك في التربية أنه كان يربِّي الصحابة على احترام من له سبقٌ وبذل في الإسلام.

---

(١) المصدر السابق (ص٣٢٤- ٣٢٦).

١٠- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يثني على من ظهر منه ما يستحقُّ الثناء ويبشِّره بالخير والرِّفعة.

١١- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يُرَبِّي الصحابة على محبَّة البذل والتضحية بأموالهم وأنفسهم.

١٢- ومن هدْيه المبارك في التربية أنه كان يربي الصحابة على الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.

١٣- ومن هديه المبارك أنه كان يربِّي الصحابة على علوِّ الهمّة.

١٤- ومن هديه المبارك أنه كان يربي الصحابة على الصبر على البلاء، ويُعلِّمهم أن الابتلاء سُنَّة ماضية.

١٥- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يربِّي الصحابة بتنشيط أذهانهم واختبار ذكائهم وعلمهم.

١٦- ومن هديه المبارك أنه كان يربي الصحابة على حسن الخُلُق مع القريب والبعيد والعدو والصَّديق.

١٧- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يُشوِّق أصحابه لسماع العلم ويُسَهِّل عليهم حفظه.

١٨- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يُرَغِّب الصحابة في الاجتهاد والطاعة والعبادة.

١٩- ومن هَدْيِهِ المبارك في التربية أنه كان يُداعِبُ الصحابة رضي الله عنهم ولا يقول إلَّا حَقًّا.

٢٠- ومن هديه المبارك أنه كان يُحذِّر الصحابة من أسباب الغواية، ويَسُدُّ دونهم أبواب الفِتن.

٢١- ومن هَدْيه المبارك في التربية أنه كان يدعو لأصحابه ﷺ.

٢٢- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يحُضُّ أصحابه على الاستعفاف والاستغناء عن الناس.

٢٣- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يحرِصُ على مؤاخاة الصحابة بعضهم لبعض وعلى زيادة محبتهم في الله.

٢٤- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يُرَبِّي أصحابه على النصح لكل مسلم.

٢٥- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يُرَغِّب الصحابة في الجنة، ويخوِّفهم من عذاب الله عَزَّ وَجَلَّ.

٢٦- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يحث الصحابة على أعمال القلوب ومراعاة قلوبهم، ويدلهم على ما خفي من أمرها.

٢٧- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يأمر أصحابه بالصمت وتعهد ألسنتهم، ويحذرهم من الغيبة والنميمة والجدال والمراء.

٢٨- ومن هديه المبارك أنه كان يحث أصحابه على التوكل على الله، ويفرِّق ويوضِّح جَلِيًّا الفرق بينه وبين التواكل.

٢٩- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يحث أتباعه على الأخذ بأسباب الحياة، والسعي على من يَعُول.

٣٠- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يأمر أصحابه بالإحسان إلى الأهل والزوجة وحسن معاملتهم والإحسان إليهم.

وسائل التربية:

١- التربية بالقدوة:

كن بالخير موصوفًا، ولا تكُن للخير وصَّافًا؛ فإن الواو والراء والدال لا تَشُمُّ منها رائحة الورد. وقالوا: «من لم ينتفع بصمت العَالِم لا ينتفع بعلمه، وإنَّ شيخك مَن حدَّثك بلحْظِهِ قبل أن يُحدِّثك بلفظه».

وقالوا: «اجلس إلى مَنْ تُكلِّمك صِفَتُه، ولا تجلِس إلى مَن يُكَلِّمك لسانه».

□ وقال أبو سليمان الداراني: «الأخ مَن يعظك بحاله قبل أن يعظك بمقاله».

□ قال الأستاذ محمد قطب: «القدوة في التربية هي أفعل الوسائل جميعًا، وأقربها للنجاح.

من السهل تأليف «كتاب في التربية» من السهل تخيل منهج، وإن كان في حاجة إلى إحاطة وبراعة وشمول، ولكن هذا المنهج يظل حبرًا على ورق.. يظل معلقًا في الفضاء، ما لم يتحول إلى حقيقة واقعة تتحرك في واقع الأرض.. ما لم يتحول إلى بشر يترجم بسلوكه وتصرفاته ومشاعره وأفكاره مبادئ المنهج ومعانيه، عندئذ فقط يتحول المنهج إلى حقيقة، يتحول إلى حركة، يتحول إلى تاريخ.

ولقد علم الله سبحانه وهو يضع ذلك المنهج العلوي المعجز أنه لا بد من ذلك للبشر، لا بد من قلب إنسان يحمل المنهج ويحوله إلى حقيقة، لكي يعرف الناس أنه حق ثم يتبعوه.

لا بد من قدوة.

* لذلك بعث الله محمد ﷺ ليكون قدوة للناس: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ووضع في شخصه ﷺ الصورة الكاملة للمنهج الإسلامي، الصورة الحية الخالدة على مدار التاريخ.

سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»(١).

إجابة دقيقة عجيبة مختصرة شاملة.. كان خلقه القرآن! كان الترجمة الحية لروح القرآن وحقائقه وتوجيهاته (٢).

□ قال الأستاذ عبد الرحمن النحلاوي:

ينتقل تأثير القدوة إلى المقتدي على أشكال أهمها:

١ - التأثير العفوي غير المقصود:

وهنا يقوم تأثير القدوة على مدى اتصافه بصفات تدفع الآخرين إلى تقليده، كتفوقه بالعلم أو بالرئاسة، أو الإخلاص أو.. وفي هذه الحال يكون تأثير القدوة عفويًا غير مقصود، وهذا يعني أن على كل من يرجو أن يكون قدوة أن يراقب سلوكه، ويعلم أنه مسؤول أمام الله في كل ما يتبعه الناس، أو يقلده المعجبون، وكلما ازداد حذرًا وإخلاصًا ازداد الإعجاب به، فتزداد فائدته وأثره الطيِّب في النُّفُوس.

٢ - التأثير المقصود:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «التربية الإسلامية» لمحمد قطب (١/ ١٨٠، ١٨١).

على أن تأثير القدوة قد يكون مقصودًا.

فيقرأ العلم قراءة نموذجية ليقلده الطلاب، ويُجَوِّد الإمام صلاته ليعلم الناس الصلاة الكاملة، ويتقدم القائد أمام الصفوف في الجهاد ليبث الشجاعة والتضحية والإقدام في نفوس الجند، وهكذا.

• وقد تعلم الصحابة رضي الله عنهم كثيرًا من أمور دينهم بطلب من رسول الله ﷺ أن يقتدوا به، فكان يقول لهم: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[1]. وكان يأمرهم في الحج أن يقتدوا به قائلًا: «**خذوا عني مناسككم**»[2]، ثم كان الصحابي يقول للتابعين: «ألا أصلي لكم صلاة رسول الله ﷺ».

• وصلى ﷺ على المنبر - وفي رواية: أنه ذو ثلاث درجات- فقام عليه، فكبر وكبر الناس وراءه وهو على المنبر، ثم ركع وهو عليه ثم رفع فرجع القهقري حتى سجد في أصل المنبر، ثم عاد فصنع فيها كما صنع في الركعة الأولى حتى فرغ من آخر صلاته، ثم أقبل على الناس فقال: «**يا أيها الناس إني صنعت هذا لتتأسوا بي، ولتعلموا صلاتي**»[3].

وهكذا علمنا رسول الله ﷺ رائد التربية الإسلامية أن يقصد المربي إلى تعليم طلابه بأفعاله وأن يلفت نظرهم إلى الاقتداء به؛ لأنه إنما يقتدي برسول الله ﷺ، وأن يحسن صلاته وعبادته وسلوكه بهذا القصد، فيكسب ثواب من سن سنة حسنة إلى يوم القيامة.

---

(١) رواه البخاري (٢/ ١٣١، ١٣٢).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٠١)، ومسلم في «الحج» (١٢٩٧) بلفظ: «**لتأخذوا عني مناسككم لعلي لا أحجُّ بعد حجتي هذه**».

(٣) رواه البخاري (٢/ ٤٦١)، ومسلم (٥٤٤).

وهكذا يظهر بجلاء أن التربية بالقدوة من أنجح وأنفع وسائل التربية، فليس أقوى في دفع الولد أو التلميذ إلى الحرص على صلاة الجماعة من رؤيته والده أو شيخه وهو يعظم صلاة الجماعة، فيتهيأ لها قبل الأذان، ويدخل المسجد، ويحرص على تكبيرة الإحرام، والوقوف في الصف الأول، وكذا يدفعه إلى الصدق ما يرى من صدق والده وشيخه ونفورهما عن الكذب، أما من يفتح عينيه على كذب والده، ومن يقتدي به، فمهما لقنه من آيات وأحاديث في فضل الصدق فإن هذا التلقين لا يفيده كثيرًا؛ لأن من يلقنه من أبعد الناس عنه، وأنفر الناس منه، لذا كان على الوالد والمربي أن يتكلف الاستقامة والصدق والأمانة والورع والديانة، لا بقصد الرياء والسمعة، وإنما بقصد تعليم من يقتدي به وينظر إليه، فإذا نصحه بنصيحة كان أحرص الناس على العمل بها، وإذا نفرَّ من خصلة سيئة كان أبعد الناس عنها، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف].

* وقال تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ ﴾ [هود: ٨٨].

* وقال تعالى: ﴿ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤ ﴾ [البقرة].

• وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه. فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا**

آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[(١)].

□ يقول الأستاذ عبد الله ناصح علوان ما ملخصه: «وما أعظم موقف عمر رضي الله عنه حين كان يجمع أهل بيته ليقول لهم: «أما بعد: فإني سأدعو الناس إلى كذا وكذا، وأنهاهم عن كذا وكذا، وإني أقسم بالله العظيم لا أجد واحدًا منكم أنه فعل ما نهيت الناس عنه أو ترك ما أمرت الناس به إلَّا نكلت به نكالًا شديدًا»، ثم يخرج رضي الله عنه ويدعو الناس إلى الخير، فلم يتأخر أحد عن السمع والطاعة لإعطائهم القدوة بفعله قبل إعطائهم إياها بقوله.

فليعلم الآباء والأمهات والمربون جميعًا أن التربية بالقدوة الصالحة هي العماد في تقويم اعوجاج الولد، بل هي الأساس في ترقيته نحو المكرمات والفضائل والآداب الاجتماعية النبيلة.

وبدون هذه القدوة لا ينفع مع أولادكم تأديب، ولا تؤثر بهم موعظة، فاتقوا الله -أيها المربون- بأولادكم، وكونوا معهم على مستوى المسؤولية لتروا أفلاذ الأكباد شموس إصلاح، وأقمار هداية، يستضيء أبناء المجتمع بنورهم، ويتأسون بمحاسن أخلاقهم، ويرتشفون من معين آدابهم، ويصدق عليهم قوله تبارك وتعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

* وقال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥][(١)].

---

(١) رواه البخاري - كتاب بدء الخلق (٦/ ٣٢٩)، (١٣/ ٤٨)، ورواه مسلم في «الزهد» (١٨/ ١١٨) وقوله فتندلق أقتابه: أي أمعاؤه، واندلاقها: خروجها بسرعة.

□ كان سفيان الثوري رحمه الله يأتي إلى الإمام العابد عمرو بن قيس الملائي يُسَلِّم عليه يتبرَّك به، يحتسِب ذلك، ويجيء فيجلس بين يديه ينظر إليه لا يكاد يصرف بصره عنه.

وكان عبد الله بن المبارك يقول عن الفضيل بن عياض: «كنتُ كلما قسا قلبي نظرت إلى وجه الفضيل فيجدِّد لي الحزن، وأمقت نفسي».

□ قال عمرو بن عنبة ينبِّه معلِّم ولده فيقول: «ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك؛ فإن عيونهم معقودة بعينيْك، فالحسن عندهم ما صنعتَ، والقبيح عندهم ما تركت»، فالأطفال لا يدركون المعاني المجرَّدة بسهولة، ولا يقتنعون بها بمجرَّد سماعها من المرَبِّي بل لا بد من المثال الواقعي المُشاهدَ».

□ ويقول الأستاذ عبد الله ناصح علوان: «ومن هذه القدوة الصالحة التي تجسدت في صحابة رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان انتشر الإسلام في كثير من الممالك النائية والبلاد الواسعة البعيدة في شرق الدنيا وغربها، والتاريخ سطر بملء الافتخار والإعجاب أن الإسلام وصل إلى جنوب الهند وسيلان وجزر أكديف ومالاديف في المحيط الهندي، وإلى التيبت، وإلى سواحل الصين، وإلى الفلبين وجزر أندونيسيا وشبه جزيرة الملايو، ووصل إلى أواسط إفريقيا في السنغال ونيجيريا والصومال وتنزانيا ومدغشقر وزنجبار وغيرها من البلاد، وصل الإسلام إلى كل هذه الأمم بواسطة تجار مسلمين، ودعاة صادقين، أعطوا الصورة الصادقة عن الإسلام في سلوكهم، وأمانتهم، وصدقهم، ووفائهم.. ثم

---

(١) «تربية الأولاد في الإسلام» لعبد الله ناصح علوان (٢/ ٦٦٤).

أعقب ذلك الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، فدخل الناس في دين الإسلام أفواجًا، وآمنوا بالدين الجديد عن اقتناع وإيمان ورغبة، ولولا أن يتميز هؤلاء التجار الدعاة بأخلاقهم، ويعطوا القدوة بين أولئك الأقوام بصدقهم وأمانتهم، ويعرفوا لدى الغرباء بلطفهم وحسن معاملتهم لما اعتنق الملايين من البشر هذا الإسلام، ولما دخلوا في هديه ورحمته، ونخلص مما تقدم إلى أن التميز الخلقي المتمثل بالقدوة الصالحة هو من أكبر العوامل في التأثير على القلوب والنفوس، ومن أعظم الأسباب في نشر الإسلام في البلاد البعيدة، والأصقاع المعمورة، وفي هداية البشرية إلى سبيل الإيمان وطريق الإسلام، فما أجدر الجيل الإسلامي اليوم برجاله ونسائه وشيبه وشبانه وكباره وصغاره أن يفهموا هذه الحقيقة، وأن يعطوا لغيرهم القدوة الصالحة، والأخلاق الفاضلة، والسمعة الحسنة، والمعاملة الطيبة، والصفات الإسلامية النبيلة ليكونوا دائمًا في العالمين أقمار هداية، وشموس إصلاح، ودعاة خير وحق، وأسباب نشر وامتداد لرسالة الإسلام الخالدة [(١)].

□ وقال في تربية الأولاد: «إذن لا بد من قدوة صالحة لنجاح التربية ونشر الفكرة.

ولا بد من مثل أعلى ترنو إليه الأعين، وتنجذب لجماله النفوس.

ولا بد من أخلاق فاضلة، يستمد المجتمع منها الخير، وتترك في الجيل أفضل الأثر، ومن هنا كان حرص النبي ﷺ على أن يظهر المربي أمام من يقوم على تربيته، بمظهر القدوة الصالحة في كل شيء حتى يشب الولد منذ

---

(١) «حتى يعلم الشباب» لعبد الله ناصح علوان (ص١١٩) بتصرّف.

نشأته على الخير، ويتخلق منذ نعومة أظفاره على الصفات الفاضلة النبيلة[١].

الحسن البصري أشبه الناس سريرة بعلانية:

□ قال خالد بن صفوان: «لما لقيت مسلمة بن عبد الملك بالحيرة قال: يا خالد، أخبرني عن حسن أهل البصرة. قلت: أصلح الله الأمير، أُخبرك عنه بعلم؛ أنا جاره إلى جنبه، وجليسه في مجلسه، وأعلمُ مَن قِبَلي به: «أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبههم قولًا بفعل، إنْ قعد على أمرٍ قام به، وإن قام على أمرٍ قعد عليه، وإن أَمَرَ بأمرٍ كان أعملَ الناس به، وإنْ نهى عن شيء كان أتركَ الناس له، رأيته مستغنيًا عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه». قال: حسبك يا خالد، كيف يضِلُّ قوم هذا فيهم؟!»[٢].

□ وقال أبو بكر الهذلي: «قال لي السفّاح: بأي شيء بلغ حَسَنُكُم ما بلغ؟ قلت: جمع القرآن وهو ابن اثنتي عشرة سنة، ثم لم يخرج من سورة إلى غيرها حتى يعرف تأويلها، وفيم أُنزلت، ولم يُقلِّب درهمًا في تجارة، ولا وَلِيَ سلطانًا، ولا أمر بشيءٍ حتى يفعله، ولا نهى عن شيء حتى ودعه»[٣].

□ وكان أبو سليمان الداراني يقول للعلماء والقُرّاء: «كيف يترك الدنيا من تأمرونه بترك الدينار والدرهم؟ وهم إذا ألقوْها أخذتموها أنتم؟!»[٤].

---

(١) «تربية الأولاد في الإسلام» (٢/ ٦٥٣).

(٢) «حلية الأولياء» (٢/ ١٤٧).

(٣) «شذرات الذهب» لابن عماد الحنبلي (١/ ١٣٧).

(٤) «حلية الأولياء» (٩/ ٢٦٤).

٢- التربية بالوعظ:

* الموعظة وسيلة ذات تأثير شديد عند كثير من الناس، واستخدام الموعظة في الدعوة أمرٌ ربَّاني ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥].

□ والوعظ في رأي ابن الجوزي ليس نافلة من النوافل يمكن الاستغناء عنها، بل هو ضرورة من الضرورات؛ لأن المهمة الملقاة عليه لا يستطيع غيره أن يقوم بها؛ فللفقيه دوره في الإصلاح، وللمحدِّث دوره في الإصلاح، وللواعظ أيضًا دوره في إصلاح القلوب.

وفي هذا يقول ابن الجوزي: «رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب إلَّا أن يُمزَج بالرقائق، والنظر في سير السلف الصالحين؛ لأنهم تناولوا مقصود النَّقْل، وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها.

وما أخبرتُك بهذا إلَّا بعد معالجة وذوق؛ لأني وجدتُ:

- جمهور المحدِّثين وطُلّاب الحديث همّة أحدهم في الحديث العالي، وتكثير الأجزاء.

وجمهور الفقهاء في علوم الجدل، وما يغلب به الخصم. وكيف يرقُّ القلبُ مع هذه الأشياء؟

وقد كان جماعة من السلف، يقصدون العبد الصالح، للنَّظَر إلى سَمْتِه وهَدْيه، لا لاقتباس علمه.

وذلك أن ثمرة علمه: هديُه وسمته.

فافهم هذا، وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سِيَر السلف

والزهّاد في الدنيا، ليكون سببًا لرقّة قلبك»[١].

□ قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: «المواعظ سياط تضرب بها القلوب، فتؤثر في القلب كتأثير السياط في البدن، والضرب لا يؤثر بعد انقضائه كتأثيره في حال وجوده، لكن يبقى أثر التألم بحسب قوته وضعفه، فكلما قوي الضرب كانت مدة الألم أكثر، كان كثير من السلف إذا خرجوا من مجلس سماع الذكر خرجوا عليهم السكينة والوقار، فمنهم من كان لا يستطيع أن يأكل طعامًا عقب ذلك، ومنهم من كان يعمل بمقتضى ما سمعه مدة.

أفضل الصدقة تعليم جاهل، أو إيقاظ غافل، ما وصل المستثقل في نوم الغفلة بأفضل من ضربه بسياط الوعظ ليستيقظ.

إنما التأديب بالسوط من صحيح البدن، ثابت القلب، قوي الذراعين، فيؤلم ضربه فيردع، وأما من هو سقيم البدن لا قوة له، فماذا ينفع تأديبه بالضرب؟! كان الحسن إذا خرج إلى الناس كأنه رجل عاين الآخرة ثم جاء يخبر عنها، وكانوا إذا خرجوا من عنده كانوا لا يعدون الدنيا شيئًا.

□ قال بعض السلف: «إن العالم إذا لم يرد بموعظته وجه الله، زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر على الصفا.

المواعظ ترياق القلوب، فلا ينبغي أن يسقي الترياق إلَّا طبيب حاذق معافًى، فأما لديغ الهوى فهو إلى شرب الترياق أحوج من أن يسقيه..

وغير تقي يأمر الناس بالتقى ... طبيب يداوي الناس وهو سقيم

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص٢٠٠)- طبعة دار كاتب وكتاب.

يـا أيهـا الرجـل المعلـم غـيره ... هـلا لنفـسك كـان ذا التعلـيم

فابـدأ بنفـسك فانهـا عـن غيهـا ... فـإذا انتهـت عنـه فأنـت حكـيم

فهنـاك يُقبـل مـا تقـول ويُقتـدى ... بـالقول منـك وينفـع التعلـيم

لا تنـه عـن خلـق وتـأتي مثلـه ... عـار عليـك إذا فعلـت عظـيم (١)

□ يقول الأستاذ عبد الرحمن النحلاوي: «يعتمد الوعظ من الناحية النفسية والتربوية على أمور، أهمها:

١- إيقاظ عواطف ربانية كانت قد ربيت في نفس الناشئين بطريق الحوار، أو العمل والعبادة والممارسة أو غير ذلك، كعاطفة الخضوع لله، والخوف من عذابه، أو الرغبة في جنته، وكذلك يربي الوعظ هذه العواطف وينميها، وقد ينشئها من جديد.

٢- الاعتماد على التفكير الرباني السليم الذي كان الموعوظ قد رُبِّي عليه، وهو التصور السليم للحياة الدنيا والآخرة، ودور الإنسان أو وظيفته في هذا الكون، ونعم الله، وأنه خلق الكون والموت والحياة.

٣- الاعتماد على الجماعة المؤمنة، فالمجتمع الصالح يُوجدُ جوًّا يكون الوعظ فيه أشد تأثيرًا، وأبلغ في النفوس؛ لذلك جاءت معظم المواعظ القرآنية والنبوية بصيغة الجماعة كقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ ﴾ [النساء].

وكالحديث: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، وجلت منها

---

(١) انظر: «لطائف المعارف» لابن رجب الحنبلي (١٣-١٥).

القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا».

٤- ومن أهم آثار أسلوب الموعظة تزكية النفس وتطهيرها، وهو من الأهداف الكبرى للتربية الإسلامية، وبتحقيقه يسمو المجتمع، ويبتعد عن المنكرات وعن الفحشاء، فلا يبغي أحد على أحد، ويأتمر الجميع بأمر الله بالمعروف والعدل والصلاح والبر والإحسان، وقد جمعت هذه المعاني في قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل][1].

مواعظ القرآن أبلغ المواعظ وأعلاها:

وقد اشتمل القرآن الكريم على جمل مستكثرة من المواعظ العالية الغالية.

* فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [النساء].

* وقوله تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ

---

(١) «أصول التربية الإسلامية» لعبد الرحمن النحلاوي (ص٢٥٥، ٢٥٦).

ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة].

* ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء].

* ومن ذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان].

* والقرآن كله مواعظ للمتقين كما قال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [آل عمران].

رسول الله ﷺ أعظم واعظٍ ومُرَبٍّ:

«لقد كان وعظ النبي ﷺ على أرقى مستوى وأعلى درجة، فكان يأسر بوعظه قلوب السامعين، فإمَّا مَنًّا بعد وإمَّا فداء.

وغاية الواعظ أن يصل بمن وعظه إلى الخشية الحقيقية، التي تجتمع في وجل القلب، ودمع العين، وأن يتذكروا أمور الآخرة فكأنهم يرونها رأي العين، وهكذا كان وعظ النبي ﷺ كما في حديث العرباض بن سارية قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا» الحديث [(١)].

وكذا في قصة حنظلة عندما قارن بين حال قلبه في مجلس وعظ رسول الله ﷺ، وعندما يفارق هذا المجلس إلى مجالسة الزوجات والأولاد فقال: نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرًا، فقال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»** ثلاث مرات[(٢)]، [(٣)].

□ ولم يكن النبي ﷺ يكثر عليهم الوعظ فيملُّوا – وهو مَن هو بأبي هو وأمي – بل يجعلهم دائمًا متشوِّقين إلى وعظه ﷺ.

• عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة

---

(١) تقدّم تخريجه.

(٢) رواه أحمد (٢/ ٥٣٠٥) ورواه مسلم (٢٧٥٠)، والترمذي (٢٥١٤).

(٣) «التربية» للدكتور أحمد فريد (ص٢٦٠).

بين الأيام مخافة السأم علينا أو قال: السآمة علينا»(١).

□ وكان رسول الله ﷺ يُؤثِّر في الصحابة رضي الله عنهم بقوَّة يقينه وتأثره، وكان يرفع صوته ويحرك يديه، كأنه منذر جيش.

• عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآيات يومًا على المنبر: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر] ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر: «**يمجد الرب نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم**»، فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: لَيَخِرَنَّ به. أساقط هو برسول الله ﷺ؟»(٢).

□ يقول الدكتور عبد الله ناصح علوان: «ولا يتصف الواعظ الداعية بهذا التأثير إلَّا أن يكون مخلص النية، رقيق القلب، خاشع النفس، طاهر السريرة، مشرق الروح.

وفرق كبير بين داعية يتكلم بلسانه وهو متصنع بالكلام، ليسبي به قلوب الرجال، وبين داعية مؤمن مخلص مكلوم القلب على الإسلام، يتكلم بنبضات قلبه، ولواعج حزنه وأساه لما آل إليه حال المسلمين، فلا شك أن تأثير الثاني أبلغ والاستجابة إليه أقوى، والاتعاظ بكلامه أعظم».

□ قال عمر بن ذر لأبيه: «يا أبت ما لك إذا تكلمت أبكيت الناس.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٣٧)، والبخاري (١/ ٦٢).

(٢) إسناده صحيح: رواه أحمد رقم (٥٤١٤ شاكر) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

وإذا تكلم غيرك لم يبكهم؟ فقال: يا بني، ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة»[١].

الحسن البصري وعظه يُدمي القلوب:

□ قيل مرة ليونس بن عُبيد: «هل رأيتَ أحدًا يعملُ بعمل الحسن البصري؟ فقال: والله ما رأيتُ مَن يقولُ بقوله، فكيف أرى من يعملُ بعمله؟! «كان وعظه يُبكي القلوب ووعظ غيره لا يُبكي العيون!!»[٢].

□ وقد تحدّث مالك بن دينار عن الذين كان لهم الأثر في القلوب فقال: «بلى والله، لقد رأيناهم: الحسن، وسعيد بن جبير، وأشباههم، الرجل منهم يحيي الله بكلامه الفئام[٣] من الناس»[٤].

□ وقال الأعمش: «ما زال الحسن البصري، يعي الحكمة حتَّى نطق بها، وكان إذا ذُكِر عند أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين – الباقر- قال: «ذاك الذي يُشبه كلامه كلام الأنبياء»[٥].

□ وقال الغزالي: «كان الحسن البصري أشبه الناس كلامًا بكلام الأنبياء، وأقربهم هدْيًا من الصحابة»[٦].

□ ومن الكلمات الدقيقة الصادقة في تصويرها للحسن في وعظه، ما

---

(١) انظر: «تربية الأولاد» (٢/ ٧١٥).

(٢) «تنبيه المغترين» للشعراني (ص٩).

(٣) الفئام: الجماعات من الناس.

(٤) «الحلية» (٢/ ٣٦٠).

(٥) «حلية الأولياء» (٢/ ١٤٧)، و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٨٥).

(٦) «إحياء علوم الدين» (١/ ٧٧).

قال مطر الورّاق في ذلك: «لما ظهر الحسن جاء كأنما كان في الآخرة، فهو يُخبر عمّا عاين»[(١)].

□ كان رحمه الله يقول: «لا يزال العبد بخير، ما كان له واعظٌ من نفسه، وكانت المحاسبة من هِمَّته»[(٢)].

□ وقال رحمه الله: «ليس الإيمان بالتحلِّي، ولا بالتَّمَنِّي، ولكِنْ ما وَقَر في الصدر، وصدَّقَتْه الأعمال»[(٣)].

□ وحدَّث الحسن بحديث، فقال له رجلٌ: «يا أبا سعيد، عَمَّنْ؟ قال: وما تصنع بعَمَّن؟ أمَّا أنت فقد نالتك موعظته، وقامت عليك حُجَّته»[(٤)].

□ وقال رحمه الله: «أيُّها الناس، إني أعظكم ولستُ بخيركم ولا أصلحكم، وإني لكثير الإسراف على نفسي، غير مُحكِم لها، ولا حاملها على الواجب في طاعة ربها، ولو كان المؤمن لا يَعظِ أخاه إلَّا بعد إحكام أمر نفسِه، لعُدِم الواعظون، وقَلَّ المُذَكِّرون، ولما وُجِد مَن يدعو إلى الله جلّ ثناؤه، ويرغب في طاعته، وينهى عن معصيته، ولكن في اجتماع أهل البصائر، ومذاكرة المؤمنين بعضهم بعضًا حياة لقلوب المتقين، وإذكارٌ مِن الغفْلة، وأَمْنٌ من النِّسيان، فالزموا -عافاكُمُ الله- مجالس الذكر، فرُبَّ

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٧٣).

(٢) «البداية والنهاية» (٩/ ٢٧٢).

(٣) «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (ص٣٣٩).

(٤) «عيون الأخبار» (٢/ ١٣٧). أي ربما تساهل في ذلك في مجالس الوعظ؛ لأن اية الوعظ التأثير في القلوب، وهي غير مجالس الفقه والحديث، فكان يرى أن غاية الوعظ الاتعاظ، ولذا يرى فيها حُجة على السامع طالما أنها تدعو إلى خير، أو تُنبِّه على خطر.. والأوْلى أن لا يأتي إلَّا بحديث حسن أو صحيح.

كلمةٍ مسموعة، ومحتقر نافع، اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلَّا وأنتم مسلمون»[1] .

كلمات ومواعظ للحياة لأئمة الوعظ من رجالات سلفنا الصالح:

حدِّث عن القوم فالألفاظ ساجدة ... خلف المحاريب والأوزان تبتهلُ

□ كلام السلف ووعظهم قليلٌ كثير البركة وكلام الخَلَف كثير قليلُ البركة..

قليلٌ منكَ يكفيني ولكِنْ ... قليلك لا يُقالُ له قليلُ

□ إن للكلمات التي تنفرج عنها شفاه الحسن البصري، وسفيان الثوري، وعمر بن عبد العزيز، ومالك بن دينار، وأبي حازم سلمة بن دينار، وإبراهيم بن أدهم، وعبد الله بن المبارك، والفضيل بن عياض، والإمام الشافعي، وأبي سليمان الداراني، والسري السقطي، والجُنيد، وعبد القادر الجيلاني، وابن الجوزي، وابن تيمية، وابن قيم الجوزية، وابن رجب الحنبلي، وذي النون المصري.. إن لكلماتهم مذاقًا فريدًا وسلاسة وألقًا وإشراقًا وتجربة مفعمة.

إن كانوا في صمتهم أبْيَن ممَّن نطقوا فكيف بنُطقِهم؟!!

قطرات نَدَى وعبير لا يفنيه مدَى ... كلماتٌ تَهبُ النَّبْع لصادٍ وَرَدَا

ورحابٌ حملتها الكلمات الحسنى ... بجناحٍ من نور أسْنَى تصلِ الخُلْدَ

تضيء الرُّوح.. تمُدُّ يدًا

---

(١) «الحسن البصري» لابن الجوزي (ص٦٠)- طبع مكتبة الخانجي.

□يصدقُ فيها قول الشاعر:

أتـاكَ حـديثٌ لا يمـلُّ سـماعُهُ ... شَـهِيٌّ إلينـا نثـرُهُ ونظامُـهُ

إذا ذكرتْـه الـنفس زال عناؤهـا ... وزالَ عـن القلْـبِ المُعَنَّى ظلامـه

□وقول القائل:

فاسمعْ -هُدِيت- علومًا عزَّ سالِكُها ... عـلى البيـانِ ولا يغـررك ذو لَـسَن

قصدٌ إلى الحق لا تخفى شـواهِدُها ... قامت حقائقهـا بالأصْـلِ والفَـنَنِ

□قال يحيى بن معاذ الرازي: «أحسنُ شيء: كلامٌ رقيق، يُستَخْرَجُ من بحرٍ عميق على لسان رجلٍ رفيق»[(١)].

«ولن تخلد الكلمة على الأجيال إلَّا إن اتصلت بالحق والخير، وكان لها من قوانين الله في خَلْقِه سند، ومن إلهامه لعباده مدد»[(٢)].

سيماهم في كلامهم.. مثلما هي في وجوههم، وكانت مواعظهم أعظمَ مُحَرِّكٍ للقلوب إلى أَجَلِّ مطلوب، وحادٍ للنفوس إلى مجاورة المَلِك القُدُّوس، وحقيقٌ على فوائدها أن يُعَضَّ عليها بالنواجذ، وتُثنى عليها الخناصر، ممتعة لقاريها، مشوقة للنَّظر فيها».

ابن الجوزي إمام الواعظين وعلو كَعْبِه في الوعظ والتربية :

□ قال الإمام الذهبي عن ابن الجوزي: «كان مُبَرَّزًا في التفسير والوعظ والتاريخ».

□وقال: «كان رأسًا في التذكير بلا مُدَافعة، يقول النَّظم الرائق، والنثر

---

(١) «تاريخ بغداد» (١٤/ ٢٠٩).

(٢) «الشوارد» لعبد الله عزّام (ص٣٤٠).

الفائق بديهةً، ويُسهب ويُعجِبُ، ويطرب ويطنبُ، لم يأت قبله ولا بعده مثله، فهو حامل لواء الوعظِ والقيِّم بفنونه، مع الشكل الحسن، والصوت الطيب، والوقع في النفوس، وحسن السيرة».

□ وقال موفَّق الدين بن قدامة: «إمام أهل عصره في الوعظ».

□ وقال ابن خلِّكان: «كان علَّامة عصره، وإمامَ وقته في الحديث وصناعة الوعظ».

□ وقال ابن كثير: «تفرّد ابن الجوزي بفنّ الوعظ، الذي لم يُسبَق إليه ولا يلحق شأوه فيه، وفي طريقته وشكله، وفي فصاحته وبلاغته وعذوبته وحلاوة ترصيعه، ونفوذ وعظِه، وغوصه على المعاني البديعة، وتقريبه الأشياء الغريبة بما يشاهده من الأمور الحِسِّيَّة، بعبارة وجيزة، سريعة الفهم والإدراك، بحيث يجمع المعاني الكثيرة في الكلمة اليسيرة».

□ وقال ابن الدُّبيثي: «كان من أحسن الناس كلامًا، وأتمّهم نظامًا، وأعذبهم لسانًا، وأجودهم بيانًا».

□ وقال الموفق عبد اللطيف: «له في كلِّ علمٍ مشاركة..، وأما السَّجْع الوعظي فله فيه ملكة قوية».

□ قال ابن الجوزي رحمه الله: «كلامي نهرٌ يأخذ من بحر الكتاب والسُّنَّة. يسقي قلوبكم سيحًا[1] بلا كلف. وقد قنع من الخراج بالدُّعاء. هل في كلامي نقص؟ فيُقال: لو أنه! أو عيب، فيُقال: إلَّا أنه!، أو رأيتم مثله؟ فيُقال: كأنه! أبلغُ بلفظي منزل المعنى وما طال سفر العبارة. المعاني واسعة

(١) سيحًا: يُقال: ساح الماء يسيح سيْحًا، إذا جرى على وجه الأرض.

الفيافي، والألفاظ ضيِّقة العِرَاص[(١)]. وما يقدر على حشو العرصة فوق ما تسع إلَّا مهندس لآلي[(٢)]. هذه المعاني لطاف، فأي سلك فهم دقَّ انتظمت فيه، وإنما يُنظَم اللؤلؤ في خيط لا في حَبْل.

كلامي ثوب، فُصِّل على قدر أسماعكم، فهو لا يصلح إلَّا لكم. لا تنكروا مدحي لأهل بغداد فهمُ همُ. ألهذا البلد بدل؟

إذا مَرضت الأفهام السليمة من وباء طعم العبارات الركيكة، عمل لفظي في شفائها، ولا رُقَى الهند. كَلِمٌ تُداوِي كل كُلْم[(٣)].

جـــواهر كلهـــا يتـــيم توجـــد مفقـــودة المِثـــال[(٤)]

٣- التربية بالقِصَّة:

القصص القرآني أعظم مُرَبٍّ:

جاء القرآن بقصص الأنبياء وهي – ولا جرم- أعلى منارًا وأشرف مزية، كيف لا وقد جمعت أحسن الأسلوب، واختيار المقامات المناسبة لما سيقت إليه، والقدوة الحسنة للكمل المخلصين من الأنبياء ومن والاهم، وتحققها في أنفسها لوقوع مواردها. وإن حب التشبه طبيعة مرتكزة في الإنسان لا سيما لمن يقتدى بهم، فهذه خمس مزايا اختصت بها هذه القصص، ونقصت في سواها، أليس من العيب الفاضح أن نقرأ قصص القرآن فلا نكاد نفهم إلَّا حكايات ذهبت مع الزمان ومرت كأمس الدابر،

---

(١) العِرَاص: جمع عَرْصة، كل بُقعَة بين الدُّور واسعة، ليس فيها بناء.

(٢) لآلي: اللآلئ: اللؤلؤ.

(٣) الكلْم: الجرح.

(٤) «المدهش» لابن الجوزي (ص٥١٨).

وما لنا ولها إذن؟! تالله إن هذا لهو البوار، ولم يكن هذا إلَّا للجهل بالمقصود من قصصها، وأنها عبرة لمن اعتبر، وتذكرة لمن تفكر، وتبصرة لمن ازدجر.

وبالإجمال: فليس القصد من هذه القصص إلَّا منافعها، والعبر المبصرة للمسلمين ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١]. ولسنا ممن يتبجح بالقول بلا بيان فلا نعتمد إلَّا على البرهان، تأمل هذه القصص تجده لا يذكر إلَّا ما يناسب الإرشاد والنصح، ويعرض عن كثير من الوقائع إذ لا لزوم لها، ولا معول عليها، فلا ترى قصة إلَّا وفيها توحيد، وعلم، ومكارم أخلاق، وحجج عقلية، وتبصرة وتذكرة تلذ العقلاء» (١).

القصص النبوي خير مُرَبٍّ:

استخدم الرسول ﷺ الأسلوب القصصي؛ لأنه رآه من أبلغ الطرق المؤدية إلى توثيق الفكرة وإصابة الهدف، والهدف من القصص النبوي ترسيخ المعاني الإيمانية، وغَرْس الفضائل في نفوس المسلمين، وكذا تسليتهم وتثبيتهم في طريق الإيمان، فمن القصص النبوي الذي يرسخ المعاني الإيمانية قصة «**الرجل الذي سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء. فقال: كفى بالله شهيدًا. فقال: فأتني بالكفيل، فقال: كفى بالله وكيلًا. فقال: صدقت. فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركبًا يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركبًا، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار..**

---

(١) «محاسن التأويل» للقاسمي (٩/ ٣٠٥، ٣٠٦) طبع دار الفكر.

وصحيفة إلى صاحبه، ثم زج موضعها -أي سده- ثم أتى بها البحر.

فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلانًا ألف دينار فسألني كفيلًا، فقلت: كفى بالله كفيلًا فرضي بك، وسألني شهيدًا فقلت: كفى بالله شهيدًا فرضي بك. وإني جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهو في ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه، ينظر لعل مركبًا قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطبًا، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه فأتى بألف الدينار فقال: والله ما زلت جاهدًا في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه.

قال: هل كنت بعثت إليَّ بشيء.

قال: أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل الذي جئت فيه. فقال: فإنَّ الله أدَّى عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بألف الدينار راشدًا»[1].

ففي القصة حث على التوكل على الله عز وجل والوفاء بالوعد، وتصديق المسلم، وحسن الظن به، وكذا حسن الظن بالله عز وجل، والرضا به ربًّا وكفيلًا وشهيدًا.

□ ومن القصص النبوي الهادف قصة الأبرص والأقرع والأعمى:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، أراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكًا**

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٤٢٤) مختصرًا في الزكاة، وأحمد (٢/ ٣٤٨).

أتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ فقال: لونًا حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس، فمسحه فذهب عنه قذره وأعطي لونًا حسنًا.

فقال: فأي المال أحب إليك؟. فقال: الإبل.

قال: فأعطي ناقة عشراء، فقال: بارك الله لك فيها.

فأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟

قال: شَعر حسن ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس. فمسحه فذهب عنه وأعطى شعرًا حسنًا.

فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر. فأعطى بقرة حاملًا، فقال: بارك الله لك فيها، فأتى الأعمى. فقال: أي شيء أحب إليك؟

قال: أن يرد الله بصري، فأبصر الناس، فمسحه فرد إليه بصره.

قال: فأي المال أحب إليك؟

قال: الغنم، فأعطي شاة والدًا.

فأُنْتِجَ هذان وولد هذا، فكان لهذا واد من الإبل ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.

ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلَّا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال الحسن بعيرًا أتبلغ به في سفري.

فقال: الحقوق كثيرة.

فقال: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يتقذرك الناس، فقيرًا فأعطاك الله؟

فقال: إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر.

قال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلَّا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك الشعر الحسن والمنظر الحسن والمال الحسن بقرة أتبلغ بها في سفري.

فقال: الحقوق كثيرة.

فقال: كأني أعرفك ألم تكن أقرع يقذرك الناس، فقيرًا فأعطاك الله؟

فقال: إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر.

فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ بي اليوم إلَّا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري.

فقال: قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت فوالله لا أجهدك بشيء أخذته لله عَزَّ وَجَلَّ.

فقال: أمسك عليك مالك فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك»[(١)].

فكم تغرس هذه القصة النبوية التي حكاها رسول الله ﷺ في النفوس من بيان عاقبة الصدق، وعاقبة الكذب، وكم تبين حال الحريص على الدنيا الذي يبخل بنعم الله عَزَّ وَجَلَّ عليه، ويتكبر على عباد الله؛ من الحرمان في الدنيا، والتعرض لسخط الله عَزَّ وَجَلَّ وعقوبته، وكذا يتبين حال المؤمن الشاكر

(١) رواه البخاري (٦/ ٥٧٨، ٥٧٩)، ومسلم (٢٩٦٤).

لنعم الله ﷻ، وكيف أنه ينال رِضَى الله الذي هو أكبر من جنة الله ﷻ كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وكيف أن الصدقة لا تنقص المال، كما قال النبي ﷺ: «**ما نقص مال من صدقة**»[١].

وأن الدنيا دار بلاء وامتحان، وأن الفقر فتنة، والغنى فتنة، فالسعيد من تبصر في حاله، وعلم العبودية المطلوبة منه، فقام بواجبها، فوفق للخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

وبعد هذه نماذج من القصص النبوي المبارك، ولا تقتصر التربية بالقصة على القصص القرآني والنبوي، ولكن هناك كذلك من قصص الأمم السابقة، ومن سير السلف، وكذا من أخبار المعاصرين ما فيه عبرة وعظة، فنسأل الله التوفيق إلى ما يحب ويرضى»[٢] اهـ.

٤- التربية بضرْب الأمْثال:

بلغت الأمثال القرآنية ذروة الإعجاز والبلاغة من حيث استكمال الوضوح، وأداء المعنى، وتقريبه للأفهام، فقد ألف الناس تشبيه الأمور المجرَّدة بالأشياء الحِسِّيَة، ليستطيعوا فهم الأمور الغيبية، أو المعنوية.

□ والأمثال القرآنية والنبوية دوافع تحرك العواطف والوجدان، فيحرك الوجدان الإرادة ويدفعها إلى عمل الخيرات، واجتناب المنكرات، وبهذا تساهم الأمثال في تربية الإنسان على السلوك الخير وتهذيب نزعاته الشريرة فتستقيم حياة الأفراد والمجتمعات، وتسير الأمة الإسلامية سيرتها نحو حضارة مثلى.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٢٥) في «الزهد»، وصححه الألباني.

(٢) «التربية» للشيخ أحمد فريد (٢٧٠- ٢٧٣).

* فضرب الأمثال من وسائل التربية التي اعتبرها الشرع الحنيف، وأكثر القرآن من ذكرها، كما قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور].

* وقال تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ [إبراهيم].

□ قال الحكيم الترمذي: «ثم اعلم أن ضرب الأمثال لمن غاب عن الأشياء وخفيت عليهم الأشياء، فالعباد يحتاجون إلى ضرب الأمثال لما خفيت عليهم الأشياء فضرب لهم مثلًا من عند أنفسهم لا من عند نفسه، ليدركوا ما غاب عنهم، فأما من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فلا يحتاج إلى الأمثال، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤] فالأمثال نموذجات الحكمة لما غاب عن الأسماع والأبصار لتهتدي النفوس بما أدركت عيانًا.

فمن تدبير الله لعباده أن ضرب لهم الأمثال من أنفسهم لحاجتهم إليها، ليعقلوا بها فيدركوا ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة، فمن عقل الأمثال سماه الله تعالى في كتابه عالمًا لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت][1].

* قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد].

---

(١) «الأمثال من الكتاب والسنة» للحكيم الترمذي – تحقيق محمد علي البجاوي – طبع مكتبة دار التراث.

فالباطل يضمحل وينمحق كالزبد الذي يحتمله السيل، وإن علا على الحق في بعض الأوقات، كما يعلو الزبد، والحق ثابت باق يمكث في القلب فينتفع به المؤمن، فيثمر عملًا صالحًا كما يمكث الماء، وأسباب الإنبات في الأرض فيثمر عشبًا وزرعًا ونخيلًا وأعنابًا»[1].

• ومن الأمثلة النبوية ما قاله رسول الله ﷺ: «**مثل المنفق ومثل البخيل كمثل رجلين عليهما جُبتَّان من حديد، من لدن ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق شيئًا إلَّا سبغت على جلده حتى تواري بنانه وتعفو أثره**»[2].

٥- التربية بدراسة تراجم علماء سلفنا الصالح وعبَّادهم والأئمة الكرام:

دراسة تراجم علماء الأمة وعُبَّادهم هي أخلاق القوم وعاداتهم، وهي تثري الفكر وتمدُّ القلب بمدد طيب، وتُعرِّف المؤمن بخُلاصة تجارب السابقين من الصالحين، وعصارة الأفكار والمواقف، فيأخذ بالحسن ويجد في الطلب، فكأنه يضم عُمْرَ غيرِهِ إلى عُمرِه:

إذا علم العبد أخبار من مضى ... توهمته قد عاش من أول الدهر

وتحسبه قد عاش آخر عمره ... إذا كان قد أبقى الجميل من الذكر

فقد عاش كل الدهر من كان عالمًا ... حليمًا كريمًا فاغتنم أول العمر

□ وعند ذكر الصالحين تتنزَّل الرحمات، وعند ذكرهم نُنْزل أنفسنا المنازل اللائقة بنا، كما قال بعضهم: «إذا ذُكِر السلف افتضحنا»، وتَتجدَّد

---

(١) «التربية» (ص٢٧٥).

(٢) رواه البخاري في «الزكاة» (٣/ ٣٥٨)، ومسلم في «الزكاة» (٧/ ١٥٠).

وتَتجدَّد للمؤمن هِمَّة فيلحق ولو بساقة القوم أو يجد أثرًا من غبارهم..

إذا أعجبتــك خــصال امــرئ فكنهــا تكــن مثــل مــا أعجبــك

فلـيس عـلى الجـود والمكرمـات إذا جئتهــا حاجــب يحجبــك

* وقد ذكرنا من وسائل التربية التربية بالقدوة، وقد قيل: حياة رجل في ألف رجل، خير من نصح ألف رجل لرجل. ولكن إذا عز في زماننا من يصلح لأن يكون قدوة في العلم والعمل والصفات الجميلة والأخلاق النبيلة فالتماس القدوة من سير السالفين، وأخبار العلماء العاملين لا شك إن لم يقم مقام القدوة الحاضرة المشاهدة، فإنه يؤدي شيئًا من معناه، فدراسة أخبار السلف وسيرهم من الطرق التربوية الناجحة، إذ النفس تتشوق للكمال وتتطلع إليه عند سماع أخبار العلماء الربانيين من عباد الله، كما أنها تثور فيها نوازع الشر، وتتحرك فيها الشهوات عند سماع أخبار أهل الدنيا وأصحاب الشهوات، والنفس بطبيعتها عندها استعداد للخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا (١٠)﴾ [الشمس].

ومن فضل الله عَزَّ وَجَلَّ علينا وعلى الناس أن دُوِّن تاريخ أمتنا، وترجم لرجاله، وكما أن تاريخ الإسلام حافل زاخر بالأحداث العظيمة والمواقف الشريفة التي تفتخر بها الأمم والشعوب، فهو كذلك حافل زاخر بالشخصيات الفذة والقمم العالية وأكابر الرجال الذين يمثلون عظمة الإسلام، ويصدقون دعوة النبي ﷺ، قمم في العلم والعبادة والخشية والثبات والتضحية وغير ذلك من الفضائل الحميدة، والخصال المجيدة، التي تكون كالمصابيح المضيئة، والرايات المنشورة أمام شباب الصحوة

المباركة فهم أسوة وقدوة، وطاقة للخير، والحض عليه، والله الموفق»[١].

الرَّبَّانيون قدوة:

□ يقول الأستاذ الدكتور محمد أديبْ صالح في كتابه «الربَّانيون قدوة وعمل»:

أما بعد: فما أحسب أن امرءًا أوتي حظًّا من نور البصيرة، والإحساس بواقع الأمة يماري في أن حياة العالم الرباني - وهو المنسوب إلى الرب تبارك وتعالى، الكامل في العلم والعمل، الشديد التمسك بطاعة الله ﷻ وتقواه، المشرقُ قلبه بخشيته، الحريصُ على تعليم الناس وتزكية نفوسهم، وتربيتهم على ما فيه خيرُهم وصلاحُ أمرهم في الدين والدنيا والآخرة، والقدوةُ بسلوكه المتميز - ما أحسبه يماري في أن هذه الحياة الحافلة بالخير، مَعْلَمٌ من معالم البناء الحضاري القوي المشرق في حياة الأمة. لما أنه مصدر عطاء صادق النسب إلى الهدي المحمدي في كتاب الله والسنة المطهرة، ثم ما يكون من فهوم أئمة الهدى ونهجهم القويم عليهم الرحمة والرضوان، كما أنه ترجمان عملي لحقائق الإسلام، وأخذ النفس بالهدي المحمدي، وبهذا يكون هذا العلَم القدوة أمانة في أعناق من أكرمهم الله بالانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس، وبخاصة أولئك المؤتمنين على نشر العلم النافع، والتنهيج لتزكية النفوس، وتربيتها على الفكر الموالي لله ولرسوله وللمؤمنين، وإعداد المسلم - ذكرًا كان أو أنثى - إعدادًا متكاملًا، يضمن استقامته في خاصة نفسه، وقدرته - بعون الله - على مواجهة التحديات - وما أكثرها - والإسهام في كل ما يعود على الأمة بالاعتصام بحبل الله

---

(١) «التربية» (ص٢٨٢ - ٢٨٣).

المتين، والتمكين لكلمة الله في العالمين، على اختلاف الألسنة، والألوان، والأقاليم، وتجاوز لحدود الزمان والمكان، وفق منهج إيماني لا تنقصه معرفة الواقع، ولا ينأى عن السنن الكونية لله رب العالمين.

والمتبصِّر في عظيم ما تتركه تزكية النفوس، والعناية بأعمال القلوب، من أولئك البررة الذين يعلِّمون ويربُّون بالقدوة، كما يربون بالكلمة والوصية والدرس: يشعر بثقل الأمانة المومى إليها كلما تفاقم الغزو المنحرف، وانحسرت هنا وهناك مفاهيم الإسلام الصحيحة – أو بعضها – عن المجتمع، وصار للمتشككين والمشككين والمتمردين على نصوص الهدى في الكتاب والسنة، كلمة مسموعة على صعيدي التعليم والإعلام.

وفي تقدير لمكانة الرجل الرباني ودوره العظيم في حياة الفرد المسلم – ذكرًا كان أو أنثى – وجماعة المسلمين: قال محمد بن الحنفيَّة يرحمه الله يوم موت حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما – وهو من أدرى الناس بغزير علمه ووافر عقله وصالح عمله، وصدعه بالحق، ونصاعة سلوكه الفذِّ –: «اليوم مات ربَّانيُّ هذه الأمة».

ولعل من ربانيته رضي الله عنه ما تحقق له من دعوات الرسول ﷺ، بجانب أهليته وما أوتي من استعداد طيب، الأمر الذي يذكر بما كان من عظيم تقدير عمر رضي الله عنه له، وهو من هو خبرةً بالرجال الأقوياء الأمناء، وعرفانًا بفضل أهل الفضل في خير أمة شاء الله لها أن تكون أمة الشهادة على الناس.

وعلى هذا السنن من سلامة التصوُّر، وقدر الرجل الرباني قدره في حياة الأمة وهي تبني الحضارة المثلى، وتضرب في أرض التاريخ، تحقيقًا

لعبودية الله في الأرض، وتمكينًا لإنسانية الإنسان: يقول الإمام ابن قيم الجوزية في ضوء قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران]: «العالم الرباني: هو الذي لا زيادة على فضله لفاضل، ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد، وقد دخل في الوصف له بأنه ربانيٌّ، وصفُه بالصفات التي يقتضيها العلم لأهله، ويمنع وصفه بما خالفها».

إن هؤلاء العلماء العاملين المجاهدين أجْدَرْ بهم أن يكونوا معالم في طريق الأمة، بما أوتوا من نافع العلم رواية ودراية وفقهًا في دين الله، وما رزقوا من خشية المولى جل شأنه وتقواه، والإقبال مخلصين على العمل بما علموا. ثم ما حازوا من قصب السبق في ميدان القدوة على أصعدة الدرس والتعلم، والتربية والتزكية والجهاد في سبيل الله.

أضف إلى ذلك ما يصحب هذه الفضائل مجتمعة: من مخالطة الناس في المجتمع، ريادةً وقيادةً، وقيامًا بواجب النصح للأمة بالأسلوب الحكيم المنتج، وإسهامًا بالعمل على تحقيق ما يضمن لها الخير والتمكين في دينها ودنياها. حتى إنك لترى في الواحد منهم الترجمان العملي لقيم الإسلام وأخلاقه وآدابه، الأمر الذي يذكّر بقول عائشة رضي الله عنها في شأن الخليفة الثاني رضي الله عنه: «كان عمر قرآنًا ناطقًا».

والحق أن هذا الذي نقول في هؤلاء النبغة الأبرار: كما يُشرق في أرجائه نور قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ يبدو لونًا كريمًا من ألوان التأسي بالنبي ﷺ فيما كان يقوم به -- جزاه الله خير ما جزى نبيًا عن أمته -- من العمل بما يمليه العديد

من الآيات الكريمات ومنها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة].

وغير خافٍ أن جوانب النفع في شخصية الرجل الرباني كثيرة وفيرة، خصوصًا إذا لاحظنا التكامل في تلك الشخصية - وهذا ما حرصتُ على إبرازه- بحيث تشهد من خلال إسهام الرباني في حركة الحياة الإسلامية من نقاء العقل، وصفاء القلب والمنهجية الرائعة في أخذ العلم من مظانه في الرجال، وأدائه إلى الآخرين. ناهيك عن السير في مدارج أهل القرب من الله، الذين يجمعون الخير من أطرافه فيتحقق في سلوكهم ما لا يكون المرء عالمًا في العرف الإسلامي إلَّا به؛ ألا وهو عدم الاقتصار على جمع المعارف، بل أن ينضم إلى العلم العملُ وخشية الله وتقواه. مع الأدب والتواضع وانشراح الصدر لما قد يكون من اختلاف الاجتهاد بين العالم وأخيه العالم الآخر.

ويأخذك الاستعظام حين ترى هؤلاء المخلصين المخبتين، وهمُّهم - فيما يأخذون وما يذرون- مرضاة الله تعالى، وحسن العاقبة يوم الدين، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء]»[1] اهـ.

﴿وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ !!

إذا ذُكِر العلماء العاملون، والمربون الناصحون، ودعاة الهداية المخلصون، أولئك الذين يجمعون إلى العلم النافع العملَ به؛ حرصًا على

(١) «الربانيون قدوة وعمل» للدكتور محمد أديب صالح (ص٦- ١١) ملخصًا- طبع دار الوطن.

إصلاح أمور الناس في دينهم ودنياهم، وتعليمهم ما فيه خيرهم وصلاح عاجلهم وآجلهم، وأن يكونوا على المحجة البيضاء، توحيدًا خالصًا لله تعالى، وأخذًا بشريعته الغراء، النابعة من كتابه الحكيم، وسنة نبيه المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ثم ما كان من فهوم أئمة الهدى الأمناء المستبصرين..

إذا ذُكِر هؤلاءِ فحيَّهلًا بربانيي هذه الأمة، الذين همُّهم هداية الخلق إلى سواء الصراط؛ فتراهم – وقد استنارت قلوبهم وعقولهم بحقائق الهدى والخير – يعلِّمون بحكمة وروية، وهم على حال من صدق العزيمة في نصح الآخرين، والشفقة عليهم مهما كلَّفهم ذلك من متاعب، ولاقوا في سبيله من مصاعب، ويربُّون – جاهدين صابرين- بالكلمة النافعة، والقدوة المشرقة المعبِّرة، والعمل الذي يقدم برهانًا جليًا واضحًا على ما يقولون؛ الأمر الذي يُحدث ما يُحدث من الفاعلية والتأثير في الفرد والجماعة على مختلف الأصعدة، وفي شتى الميادين!.

وأنت واجد بلا ريب أن هذا الذي هو مناط التأسي بهم والانتفاع بصنيعهم، قوامه حركة دائبة يُبتغى بها وجه الله ﷿، وأن تعتق رقابهم من النار، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

ولو تبصَّرت في أخلاقهم وسلوكهم.. وهم ربانيون يجدُّون ويجتهدون في مرضاة ربهم ظاهرًا وباطنًا، واستنطقت الوقائع بأمانة وصدق، لتبين لك توكيدُ أن هذا واقعهم دونما دعوى أو رياء، وهم لا يفتأون يحمدون مولاهم ويشكرونه على ما وفقهم إليه.

* قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران].

أين هذه القولة المشرقة الهادية: ﴿كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ من تلك القولة المظلمة العاتية المحال وقوعها من الرسول، وهي: ﴿كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، نعم أين هذه من تلك؟! وسبحان من أنزل على عبده محمد ﷺ الفرقان ولم يجعل له عوجًا.

ولا يخفى أن هذه المقابلةَ بين المقولتين كما جاءت في الأسلوب القرآني المعجز: بالغة الدلالة على عظم موقع الربانيين في ذوات أنفسهم، وفي إصلاح شؤون الأمة، ورفعة قدرهم عند رب العالمين، وعند من آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة، وسيدُهم وخاتمُهم نبيُّنا محمد ﷺ وعليهم أجمعين.

ذلك بأن العالم الرباني - كما يقول الإمام ابن القيم -: «هو الذي لا زيادة على فضله لفاضل، ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد، وقد دخل في الوصف له بأنه ربانيٌّ وصفُه بالصفات التي يقتضيها العلم لأهله، ويمنعُ وصفَه بها خالفها»[1].

وإذا نظرنا في أقوال أهل التفسير، وجدنا فيها القول بأن الربانيّ منسوب إلى الربِّ، وهو الله سبحانه وتعالى، كما في قولنا: إلهيٌّ، والألف والنون فيه زائدتان في النسب للمبالغة، كما يقال لكثير الشَّعر طويله: شعْراني، فإذا أُريدت النسبة من غير مبالغة قيل: شعْري، هذا معنى

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٤٠٥) تحقيق الشيخ علي الحلبي الأثري.

قَوْلِ سيبويه.

والمقصود أنه الكامل في العلم والعمل، الشديد التمسك بطاعة الله ﷻ وتقواه، الحريص على تعليم الناس وتربيتهم على ما فيه خيرهم وصلاح أمرهم في الدين والدنيا والآخرة[(١)].

وقد جاء التعبير عن ذلك بقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾، أي: بسبب مثابرتكم على تعليم الكتاب ودراسته، أي قراءته على الوجه الذي ينبغي، وقد فهمت المثابرة من جعل خبر كان في ﴿كُنتُمْ﴾ مضارعًا وهو ﴿تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾ حيث أفاد ذلك الاستمرار المتجدِّد.

ومن سمو الأسلوب القرآني المعجز ما نرى من تكرار ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾؛ إذ قال تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾ وجاء العطف بقوله: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾، وفي ذلك إيذان باستقلال كل من استمرار التعليم - كما يقول العلامة أبو السعود- واستمرار القراءة بالفضل وتحصيل الربانية[(٢)].

وقرئ «تَعلمون» بمعنى عالمين، و«تُدَرِّسون» من التدريس، كما قرئ «تُدرِسُون» من الإدراس، بمعنى التدريس، كأكرم بمعنى كرُم.

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٤/ ١٢٢)، «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٠٥، ٤١٠)، «إرشاد العقل السليم» لأبي السعود (١/ ٥٠٥)، «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» لأحمد بن يوسف المعروف بـ «السمين الحلبي» (٣/ ٢٧٥) تحقيق الدكتور أحمد الخراط.

(٢) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٥٠٥، ٥٠٦).

هذا، وقد قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو «تَعْلَمون» وباقي السبعة ﴿تُعَلِّمُونَ﴾، ورجح جماعة قراءة ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بالتشديد على قراءة «تعلمون» بالتخفيف بأنها أبلغ، وذلك أن كل معلِّم -كما يقولون- عالم، وليس كل عالم معلِّمًا، فالوصف بالتعليم أبلغ، وبأن قبله ذكرَ الربانيين، والرباني يقتضي أن يعْلَمَ ويُعَلِّم غيره، لا أن يقتصر بالعلم على نفسه. ورجح بعضهم قراءة ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بأنه لم يذكر إلَّا مفعول واحد، والأصل عدم الحذف، ولأنها أوفق لـ ﴿تَدْرُسُونَ﴾[1].

ومهما يكن من أمر: فإن ترجيح إحدى القراءتين على الأخرى مع كونهما في غاية الصحة ومتقاربتي المعنى: مراد به هنا المزيد من تبيين الدلالة على مقومات الربانية، والصفات التي ترقى بالمرء لأن يكون في زمرة الربانيين»[2] اهـ.

﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾:

◻ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كونوا ربانيين حكماء فقهاء». ويقال: «الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره»[3].

◻ وتفسير الحبر ابن عباس رضي الله عنهما «الرباني» بأنه الحكيم الفقيه، وافقه

---

(١) انظر: «الدر المصون» (٣/ ٢٧٧)، وانظر: «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» لابن عطية (٣/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) «الربانيون قدوة وعمل» (ص١٣- ١٩) مُلَخَّصًا.

(٣) «فتح الباري» (١/ ١٥٩- ١٦٠). رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم، ووصله ابن أبي عاصم بإسناد حسن، والخطيب بإسناد آخر حسن كما يقول الحافظ في «الفتح» (١/ ١٦٠).

عليه ابن مسعود رضي الله عنه فيما رواه إبراهيم الحربي في «غريبه» عنه بإسناد صحيح[١]، وضمُّ الحكيم إلى الفقيه منه رضي الله عنه: «له دلالته العظيمة التي لا تخفى».

□ وقد أورد الحافظ قول الأصمعي والإسماعيلي: «الرباني: نسبة إلى الرب، أي الذي يقصد ما أمره الرب بقصده من العلم والعمل، كما أورد قول أحمد بن يحيى الشيباني المعروف بـ «ثعلب»: «قيل للعلماء «ربانيين» لأنهم يربون العلم أي يقومون به، وزيدت الألف والنون للمبالغة» ثم قال: «والحاصل أنه اختلف في هذه النسبة هل هي نسبة إلى الرب أو إلى التربية، والتربية على هذا للعلم، وعلى ما حكاه البخاري لتعلمه».

□ وقد سبق الكرماني رحمه الله إلى شيء من التوسع في التفسير لرواية البخاري؛ وما ذكره الحافظ عن أن النسبة في كلمة «الرباني» هل هي نسبة إلى الرب أو إلى التربية، هو تلخيص لهذا التفسير المومى إليه. قال في كتاب «الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري» وهو يشرح كلام ابن عباس: ﴿كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾: «حكماء فقهاء»: «قوله: «ربانيين» منسوب إلى الرب، وأصله رِبيون، فزيدت الألف والنون للتوكيد والمبالغة في النسبة، وسموا «ربانيين» لأنهم منسوبون إلى الرب تبارك وتعالى، كأنهم لإخلاصهم أنفسهم لله تعالى، وشدة تعلقهم بربهم، لا يُنسبون إلَّا إلى الرب، أو لأنهم يربون العلم، أي يقومون به، يقال لكل من قام بإصلاح شيء: قد ربَّه يرُبُّه»[٢].

---

(١) «فتح الباري» (١/ ١٦٠).

(٢) «الكوكب الدراري في شرح صحيح البخاري» للكرماني (٢/ ٣١).

□ وهنا ما بدٌّ من التنبيه على ما سبقت الإشارة إليه من تقرير أن العمل بالعلم هو الأصل في تلكم الفضائل التي توحيها كلمة «الربانيين» في النص القرآني، وقد أورد الإمام ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» قول أبي عمر الزاهد: «سألت ثعلبًا عن هذا الحرف – وهو الرباني-؟ فقال: إذا كان الرجل عالمًا عاملًا معلِّمًا قيل له: هذا رباني، فإن حُرم من خصلة منها، لم نقل له: ربَّاني»[1]. وهذه الكلمات الزاكيات من ثعلب تكمل ما نقله عنه صاحب «الفتح» من قريب[2].

□ وكثيرة نُقُول المصادر عن أهل البصيرة: «أن الرباني هو العالم الراسخ في العلم والدين، أو أنه العالم العالي الدرجة العامل المعلم الذي يبتغي بعلمه وتعليمه ودلالة الأمة على الخير وجه الله تعالى»[3].

□ وقال ابن الأعرابي: «لا يقال للعالم: رباني حتى يكون عالمًا معلمًا عاملًا».

□ ولابد أن يستوقفنا قول الإمام البخاري: «ويقال: الربَّاني الذي يُربِّي الناس بصغار العلم قبل كباره»، فهذا دليل الاهتمام بالتدرج التعليمي والتربوي عند هذا العالم. والحكمة العالية في اتباع المنهج السليم تربية وتعليمًا، الأمر الذي يكشف عن العلاقة الحميمة بين تعليم العلم وتربية الناس على العمل بما يتعلمون.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن قيم الجوزية (١/ ٤٠٥).

(٢) انظر: «عمدة القاري» للبدر لاعيني (٢/ ٤٣).

(٣) انظر: «تفسير القرطبي» (٤/ ١٢٢)، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٠٥، ٤٠٩)، و«لسان العرب» مادة «ريب» (١/ ٤٠٤).

والمراد بصغار العلم – كما يقول العلماء-: ما وضح من مسائله، وبكباره، ما دقَّ منها. وقيل: يعلمهم جزئياته قبل كلياته، أو فروعه قبل أصوله، أو مقدماته قبل مقاصده، وكل هذا من الأسلوب الحكيم في مراعاة المرحلة الزمنية التي يمرُّ بها المتلقي، والعمل على إيصال المعلومة، والتربية عليها من أيسر طريق.

وبعد، فالنسب متصل بين هذا المتحدَّث عنه وبين تفسير ابن عباس للرباني بـ «الحكيم الفقيه»؛ إذ الحكمة صحة القول والعقد والفعل، وقيل: «الحكمة» الفقه في الدين بالمعنى اللغوي وهو أعم من المعنى الاصطلاحي، وقيل: «الحكمة» معرفة الأشياء على ما هي عليه. «والفقه»: الفهم لغة، والعلم بالأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية اصطلاحًا؛ فإذا انضم إلى ذلك شدة التمسُّكِ بالدين والإخلاص لرب العالمين فقد تمّت النعمة على طريق سعادة الدارين [(١)].

□ والذي عند الإمام ابن القيم في «مفتاح دار السعادة»: «قال سيبويه: زادوا ألفًا ونونًا في الرباني، إذ أرادوا تخصيصًا بعلم الرب تبارك وتعالى، كما قالوا: شَعْراني ولحياني» [(٢)].

□ ثم قال ابن القيم: «معنى قول سيبويه رحمه الله أن هذا العالم لما نُسب إلى علم الرب تعالى الذي بعث به رسوله وتخصَّص به نُسب إليه دون سائر من علَّم علمًا» [(٣)].

---

(١) «فتح الباري» (١/ ١٦٢).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤١٠).

(٣) المصدر السابق (١/ ٤١٠).

□ ثم نقل قول الواحدي في كتابه: «التفسير الوسيط»: «فالربانيُّ على قوله - يعني سيبويه- منسوب إلى الرب على معنى التخصيص بعلم الرب، أي يُعلِّم الشريعة وصفات الرب تبارك وتعالى»[(١)].

□ وقال البقاعي في «نظم الدرر»: «ولما ذكر -أي: النبيُّ- ما لا يكون له أتبعه ما له فقال: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ أي يقول: كونوا ربانيين، أي تابعين طريق الرب منسوبين إليه بكمال العلم المزيَّن بالعمل.

والألف والنون زيدتا للإيذان بمبالغتهم في العلم ورسوخهم في العلم اللدُنِّي، فإن الربانيَّ هو الشديد التمسك بدين الله سبحانه وتعالى وطاعته».

□ وبعد أن استشهد لشدة التمسك هذه والطاعة بكلمة محمد بن الحنفية يوم مات الصحابي البحر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «اليوم مات رباني هذه الأمة»، قال رحمه الله: «﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ أي بسبب كونكم عالمين بالكتاب معلمين له، ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ فإن فائدة الدرس العلم، وفائدة العلم العمل، ومنه الحث على الخير والمراقبة للخالق»[(٢)].

□ وقال الزجاج: «ومعنى الكلام: ليكن هديُكم ونيّتكم في التعليم هديَ العلماء والحكماء؛ لأن العالم إنما يستحق هذا الاسم إذا عمل بعلمه»[(٣)].

□ وقال صاحب «تفسير المنار» في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا

---

(١) «التفسير الوسيط» للواحدي (١/ ٤٥٦).

(٢) «نظم الدرر» للبقاعي (٤/ ٤٦٨).

(٣) «زاد المسير» لابن الجوزي (١/ ٤١٤).

كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ بقوله هناك: «أي ولكن يأمرهم النبي الذي أوتي الكتاب والحكم والنبوة بأن يكونوا منسوبين إلى الرب مباشرة من غير توسطه هو، ولا التوسُّل بشخصه، وإنما يهديهم إلى الوسيلة الحقيقية الموصلة إلى ذلك، وهي تعليم الكتاب ودراسته؛ فبعلم الكتاب وتعليمه والعمل به يكون الإنسان ربانيًّا مرضيًّا عند الله تعالى؛ فالكتاب هو واسطة القرب من الله تعالى، والرسول هو الواسطة المبلغة للكتاب، كما قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]»[1].

□ وهناك قول آخر، قِوامه أن الربانيَّ منسوب إلى الربِّ الذي هو المصدر بمعنى التربية، وهو الذي يَرُبُّ العلم - أي يجمعه ويتعلمه ويعلِّمه- كالحكيم، قال الراغب الأصفهاني: «وقيل: منسوب إليه وهو معناه يَرُبُّ نفسه بالعلم، وكلاهما في التحقيق متلازمان؛ لأن من ربَّ نفسه بالعلم فقد ربَّ العلم، ومن ربَّ العلم فقد ربَّ نفسه به»[2].

□ وجنح إلى ذلك أبو العباس أحمد بن يوسف الحلبي الشافعي، المعروف بـ «السمين»، والمتوفَّى سنة ست وخمسين وسبعمئة، وهو ما نجده في كتابه «عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ»؛ حيث قال هناك: «والربانيون جمع رباني، منسوب إلى لفظ الرب بمعنى التربية، وذلك أن العلماء يَربون العلم، أي يصلحونه ويتعلمونه، ثم يَرُبُّون الناس به فيعلمونهم كما تعلموا، ويصلحونهم كما صلحوا هم به، وهم الذين يُربون

---

(١) «تفسير المنار» (٣/ ٣٤٨).

(٢) «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني (ص٣٣٦).

بصغار العلم قبل كباره، فهو من لفظ التربية ومعناها»[(١)].

والملاحظ في كلامه أن يَرُبُّون من الإصلاح والإتمام، والجمع بمعنى يُرَبُّون.

□ قال الجوهري في «الصحاح»: «ربَّ فلان ولده يربُّه ربًّا، وربَّبه، وتربَّبه بمعنًى، أي: ربَّاه»[(٢)].

□ بقي أن نقول: «هنالك اتجاه ثالث عُمْدَته أن «الربانيَّ» منسوب إلى الربَّان، وهو ما ذهب إليه المبرد؛ إذ نقل عنه قوله: «الربانيون: أرباب العلم، واحدهم ربَّان من قولهم: ربَّه يربُّه فهو ربَّان إذا دبَّره وأصلحه؛ فمعناه على هذا: يدبرون أمور الناس ويصلحونها، والألف والنون للمبالغة، كما قالوا: ريَّان وعطشان، ثم ضمت إليها ياء النسبة، كما قالوا: لحياني، ورقباني، وجُمَّاني»[(٣)].

□ والملاحظ أن كلام المبرد رحمه الله يتسع فيه معنى الربان للتربية والإصلاح مع التعليم، وذلكم هو العمل بالعلم على حقيقته، ومن هنا قال الإمام القرطبي: «فمعنى الرباني: العالم بدين الرب الذي يعمل بعلمه؛ لأنه إذا لم يعمل بعلمه فليس بالعالم، فالرباني يعمل بالعلم في نفسه، ويعمل به في تعليم الناس وتربيتهم على الخير، ودعوتهم إلى ما فيه المصلحة المرعية في عاجلهم وآجلهم ودنياهم ودينهم»[(٤)].

---

(١) (ص١٢٩) منه.

(٢) «الصحاح» للجوهري مادة «ربب» (١/ ١٣٠)، وانظر: «الدر المصون» (٣/ ٢٧٥، ٢٧٦) للسمين الحلبي.

(٣) وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٤/ ١٢٢).

(٤) «تفسير القرطبي» (٤/ ١٢٢).

والقول بنسبة الرباني إلى الربَّان مع هذا التوسع والشمول في أبعاد الكلمة ومراميها: هو ما ذهب إليه شيخ المفسرين الطبري وأوسعه بيانًا، وجرى على هذا السنن آخرون من العلماء!

□ قال أبو جعفر: «وأولى الأقوال عندي بالصواب في «الربانيين» أنهم جمع «رباني»، وأن الربانيَّ: المنسوبُ إلى الربَّان الذي يربُّ الناس، وهو الذي يصلح أمورهم ويربُّها ويقوم بها، ومنه قول علقمة بن العبد:

وكنتُ امرءً أفضت إليك ربابتي … وقبلك ربتني فضِعت رُبوب

يعني بقوله: «ربَّتْني»: وليَ أمري والقيام به قبلك من يَرُبُّه ويصلحه، فلم يصلحوه، ولكنهم أضاعوني فضعت»[1].

يقال منه: «ربَّ أمري فلان يربُّه وهو رابُّه»، فإذا أريد به المبالغة في مدحه قيل: هو ربَّان».

إلى أن يقول: «فإذا كان الأمر كذلك على ما وصفنا: وكان «الربّان» ما ذكرنا، و«الرباني» هو المنسوب إلى من كان بالصفة التي وصفت، وكان العالم بالفقه والحكمة من المصلحين يربُّ أمور الناس بتعليمه إياهم الخير، ودعائهم إلى ما فيه مصلحتهم، وكان كذلك الحكيم التقي لله، والوالي الذي يلي أمور الناس على المنهاج الذي وليه المقسطون من المصلحين أمور الخلق، بالقيام فيهم بما فيه صلاحُ عاجلهم وآجلهم، وعائدةُ النفع عليهم في دينهم ودنياهم، كانوا جميعًا يستحقون أن يكونوا ممن دخل في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾.

---

(١) «جامع البيان في تأويل آي القرآن» (٦/ ٥٤٣).

فـ «الربانيون» إذًا هم عماد الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا؛ ولذلك قال مجاهد: «وهم فوق الأحبار»؛ لأن الأحبار هم العلماء، و«الربانيُّ» الجامع إلى العلم والفقه، البصرَ بالسياسة والتدبير، والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دنياهم ودينهم»(١).

هذا، ويسلمنا القول في شأن هذه النسبة في كلمة «رباني» إلى ما ورد في الآثار من صفات من يستحق أن يقال له: «رباني»، وهي صفات تلتقي مع تعليل النسبة المذكورة من حيث السعه والشمول، فقد روى الطبري بسنده عن أبي رزين مسعود بن مالك الأزدي من عدة طرق: «﴿كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ حكماء علماء».

وفي رواية له عن الحسن البصري: «كونوا فقهاء علماء».

وعن مجاهد والسدي: «حكماء فقهاء».

وعن قتادة: «كونوا فقهاء علماء».

وما ذكر من الحكماء الفقهاء، والفقهاء العلماء: هو المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن مسعود رضي الله عنه، وسعيد بن جبير، وفي رواية عنه: «حكماء أتقياء»، كما روي شيخ المفسرين عن ابن زيد: «الولاة والأحبار والعلماء».

ويرى مجاهد أن «الربانيين» فوق الأحبار، وهو ما رأيناه في كلام الطبري من قريب، وقد استحسنه النحاس.

□ قال أبو عبيدة: «سمعت عالمًا يقول: الرباني العالم بالحلال والحرام، والأمر والنهي، والعارف بأنباء الأمة وما كان وما يكون – يعني ما جاء

---

(١) «جامع البيان» للطبري (٦/ ٥٤١- ٥٤٣).

في الأخبار الصادقة- والله أعلم»[١].

□ وجميل قول ابن عطية بعد ذكر عدد من الآثار المتقدمة: «فجملة ما يقال في الرباني أنه العالم بالرب والشرع، المصيب في التقدير من الأقوال والأفعال التي يحاولها في الناس»[٢] والله الموفق.

العالم الرَّبَّانِيُّ:

□ عن كُميل بن زياد النخعي قال: «أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بيدي، فأخرجني إلى ناحية الجبَّانة، فلما أصحر - أي برز للصحراء- تنفَّس ثم قال: يا كُمَيل بن زياد! القلوب أوعية، فخيرها أوعاها للخير. احفظ عني ما أقول: الناس ثلاثة؛ فعالم رباني، ومتعلِّم على سبيل النجاة، وهمجٌ رعاع أتباع كلِّ ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق. العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على العمل - وفي رواية: على النفقة - والمال تنقصه النفقة. العلم حاكم والمال محكوم عليه، ومحبة العالم دين يُدانُ بها. العلم يكسب العالم الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته، وصنيعة المال تزول بزواله.. إلى أن قال في إشارة إلى أولئك الربانيين: لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته، لكيلا تبطل حجج الله وبيناته، أولئك الأقلون عددًا، الأعظمون عند الله قدرًا، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على

(١) انظر: «المحرَّر الوجيز» لابن عطية (٣/ ١٩٠، ١٩١)، و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٤/ ١٢٢).

(٢) «المحرر الوجيز» (٣/ ١٩١)، و«البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي (٢/ ٥٣٠).

حقيقة الأمر، فاستلانوا ما استوعر منه المترفون، وأنِسوا بما استوحش منه الجاهلون. صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلَّقةٌ بالملأ الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه.. ودعاته إلى دينه، هاه.. هاه.. شوقًا إلى رؤيتهم، وأستغفر الله لي ولك، إذا شئت فقم»[(١)]. ورواه الخطيب في كتابه «الفقيه والمتفقه»، والمزي في «تهذيب الكمال» وغيرهم.

هذا، ولا بد من الإشارة إلى أن الإمام ابن القيم قد نبَّه على ما يجب من تأويل عبارة «أولئك خلفاء الله في أرضه أو في بلاده»؛ لأن الله تعالى هو خليفة العبد؛ إذ أن العبد يموت فيحتاج إلى من يخلفه في أهله، والله ولي التوفيق.

ربّاني هذه الأمة: عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

ما أعظم ما يُرى من فقه التابعي الجليل محمد بن علي بن أبي طالب رحمه الله المشهور بـ«محمد بن الحنفيّة» لأبعاد قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ ومعرفته بأقدار الرجال حين قال يوم وافت المنيةُ حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «مات اليوم رباني هذه الأمة»[(٢)].

وغير خافٍ ما كان عليه هذا الصحابي البحر من سعة العلم ووفرة العقل وصدق التأله والتعبد والحرص على نشر العلم النافع والإسهام المتميز في بقاء التمكين للأمة وتدبير شؤونها على نهج يضمن لها الخير في دينها ودنياها، ولعل من ربانيته ما تحقق له بفضل الله من دعوات الرسول ﷺ.

---

(١) «الكشاف» للزمخشري (١/ ١٩٨).

(٢) «الكشاف» للزمخشري (١/ ١٩٨).

وعلى يَدَي ابن عباس المباركتيْن تخرّج الأفذاذ من الأئمة العلماء الربانيين الذين لا يُشَقُّ لهم غبار: سعيد بن جبير، وطاووس بن كَيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة بن دِعامة، وابن جريج. أئمة مدرسة التفسير بمكة «مدرسة ابن عباس». وهم أئمة في العلم والعمل والتعليم.

مدرسة ابن مسعود بالعراق مدرسة ربّانية:

ابن مسعود، والربيع بن خثيم، وعلقمة بن قيس النخعي، والأسود بن يزيد النخعي وأبو وائل، وإبراهيم النخعي:

مدرسة الحبر أبي عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود الرباني رضي الله عنه الذي يأخذ بمجامع قلبك حين تقرأ عن علمه وعبادته وتعليمه.

□ سُئِل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن ابن مسعود رضي الله عنه فقال: «قرأ القرآن ثم وقف عنده وكفَى به، وعلم السُّنَّة»[1].

□ عن أبي الأحوص قال: «أتينا أبا موسى، فوجدت عنده عبد الله وأبا مسعود، وهم ينظرون في مصحف، فتحدثنا ساعة، ثم راح عبد الله - يعني ابن مسعود- فقال أبو مسعود: «لا والله لا أعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك أحدًا أعلم بكتاب الله من هذا القائم»[2].

ونظرات عمر رضوان الله عليه في الرجال - وما أدراك ما هي تلكم النظرات!- تهدينا إلى حظ أوفر في أن نقدر أبا عبد الرحمن قدره فيما كان

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم (٣/ ٣١٨) وصححه ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٢٩).

(٢) رواه مسلم (٢٤٦١)، (١١٣)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٤١٤).

عليه من العلم والخَشية لله عَزَّوَجَلَّ.

□ عن زيد بن وهب قال: «إني لجالس مع عمر بن الخطاب، إذ جاء ابن مسعود، فكاد الجلوس يوازونه من قِصره، فضحك عمر حين رآه، فجعل عمر يكلِّمه، ويتهلّل وجهه، ويضاحكه وهو قائم عليه، ثم ولَّى فأتبعه عمر بصره حتى توارى. فقال: «كُنَيْف مُلِئَ علمًا»(١).

وهذا الذي شهد به عمر رضي الله عنه، كان رواقه الظليل يمتد إلى تلامذة أبي عبد الرحمن وأصحابه، حيث يفيض عليهم – وهو الربَّانيُّ المعلِّم- من علمه بالكتاب والسنة علم فقه وتدبر، وحكمة وتذكر، وما تميز به من تلاوة الكتاب العزيز غضًّا طريًّا كما أخبر عن ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم، يفيض عليهم ما به يستقيم سلوكهم وهم يبنون الحضارة المثلى فيعرفون الحلال من الحرام، ويضبطون تعاملهم مع الله جل شأنه وعُبَّاد الله بضوابط الشريعة المطهَّرة، كما يربيهم بالكلمة والقدوة والموقف، على أن يكونوا على المحجة البيضاء في دنياهم العاجلة متطلعين بإخلاص إلى ما فيه نجاتهم يوم الدين حيث العاقبة للمتقين.

□ حدَّث حبَّة بن جوين قال: «لما قدم عليٌّ رضي الله عنه الكوفة أتاه نفر من أصحاب عبد الله، فسألهم عنه حتى رأوا أنه يمتحنهم، فقال: «وأنا أقول فيه مثل الذي قالوا وأفضل؛ قرأ القرآن وأحلَّ حلاله وحرَّم حرامه، فقيه

---

(١) إسناده صحيح: رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ١/ ١١٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٢٩)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٤٣). والكُنَيْف: تصغير كِنف، وهو الوعاء يكون فيه أداة الراعي، والتصغير للتعظيم.

في الدين، عالم بالسنة»[(١)].

وحين ينضَمُّ إلى بهاء التلاوة وحسنها تدبُّر المعاني، والفقه بمرامي النصوص بصفاء قلب واستنارة بصيرة، فحدث ولا حرج عما يكون وراء ذلك من الخير للعالم الرباني في مدارج القرب من الله، ولمن يوليه الله أمرهم في الدلالة على ما فيه سعادة الدارين.

□ قال الإمام الشعبي: «ما دخل أحد من الصحابة أنفع علمًا ولا أفقه صاحبًا من عبد الله»[(٢)].

ولكم يعمل العلم الذي يراد به وجه الله عمله في نفوس الربانيين وقلوبهم، ولكم تزداد خشيتهم من الله كلما ازدادوا من ذلك العلم الذي كان تزودهم منه رغبةً في مرضاته سبحانه وتعالى!!

وما يعمله هذا العلم النافع المقترن بالخشية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] يشرق به ما يكون من سلطانه على النفوس فيهذبها ويزكيها شأن طريق المفلحين، وعلى القلوب فينيرها ويصفيها من شوائب التلفُّت إلى غير الحق رب العالمين. وعندها يكون الإقبال على الطاعة في ازدياد، والهمة في علو متجدد في فعل القربات؛ ذلك بأن هؤلاء البررة على تذوق دائم لحلاوة الإيمان التي لا تنقطع، وانشراح صدر للعمل بالعلم، واستشعار لا يعتريه فتور لما يكون في لذة المناجاة والبكاء بين يدي علام الغيوب.

□ ومصداق ذلك في حياة أبي عبد الرحمن واضح لا يعتريه لَبس أو

---

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ١/ ١١٠)، و«السير» (١/ ٤٩٢).
(٢) «السير» (١/ ٤٩٤).

غموض؛ فعن عون بن عبد الله عن أخيه عبيد الله قال: «كان عبد الله إذا هدأت العيون قام، فسمعتُ له دويًّا كدويِّ النحل»(١).

◻ وروى الإمام أحمد بسند حسن عن علي رضي الله عنه قال: «جالست أصحاب رسول الله ﷺ، فما رأيت أحدًا أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة، ولا أحب إليَّ أن أكون في مِسْلاخه من ابن مسعود»(٢).

◻ حدَّث منصور والأعمش عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: «سمعت حذيفة يقول: «إنه أشبه الناس هديًا ودلًّا وسمتًا وخطبة برسول الله ﷺ من حينِ يخرج من بيته إلى أن يرجع، لا أدري ما يصنع في أهله: لَعَبْدُ الله بنُ مسعود، ولقد علم المتهجدون - أو المجتهدون، وفي رواية: المحفوظون - من أصحاب محمد ﷺ أن عبد الله من أقربهم عند الله وسيلة يوم القيامة»(٣).

◻ وعن عبد الرحمن بن يزيد قال: «أتيْنا على حذيفة فقلنا: حدَّثنا مَنْ أقربُ الناس من رسول الله ﷺ هديًا ودلًّا، فنأخذَ عنه ونسمع منه؟ قال: كان أقربَ هديًا ودلًّا وسمتًا برسول الله ﷺ ابن مسعود حتى يتوارى منا في بيته، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن ابن أم عبد هو أقربهم إلى الله زلفى»(٤).

---

(١) «الإصابة» (٢/ ٣٧٠)، و«صفة الصفوة» (١/ ١٥٨).

(٢) في مسلاخه: أي في مثل هَدْيه وطريقته.

(٣) انظر: «صحيح البخاري» (٧/ ١٠٢، ١٠٣)، والترمذي (٥/ ٦٣١)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٣١٥)، و«السير» (١/ ٤٧٠)، و«الحلية» (١/ ١٢٦، ١٢٧)، و«الطبقات» (٣/ ١/ ١٩١).

(٤) «جامع الترمذي» (٣٨٠٩).

وعندما نذير الحديث عن هذا الرجل الرباني علمًا وعملًا ورواية غزيرة للعلم وتنسكًا وزهادة وإسهامًا في تربية الجيل المسلم على الهدى والخير، ومعاونة جادَّةً على إحكام بُنى المجتمع المسلم.. لا نكون طمعنا في غير مطمع، ولكنها عودة إلى الظل الظليل في رحلة ميمونة مع القدوة الثقة الذي لم يغادر إرث النبوة في حياته الزاخرة بالمكارم، بل كان أبدًا على الهدي المحمدي، عن علم وبصيرة وإخلاص في الدين.

• عن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقتدوا باللذَيْن من بعدي أبي بكر وعمر، واهتدوا بهَدْي عمّار، وتمسَّكوا بعهد ابن أم عبد**»[1].

• وعن زرّ بن حبيش عن عبد الله أن رسول الله ﷺ دخل المسجد وهو بين أبي بكر وعمر، وعبد الله قائم يصلي، فافتتح سورة النساء فسجَلها[2] - أو يسجِلها - فقال ﷺ: «**من أحبَّ أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد**»، فأخذ عبد الله في الدعاء، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «**سل تُعط، سل تُعط - أو سل تعطه، سل تعطه -**»، فكان فيما سأل: اللهم إني أسألك إيمانًا لا يرتد، ونعيمًا لا ينفد، ومرافقة نبيك محمد ﷺ في أعلى جنان الخلد. قال: فأتى عمر ﷺ عبد الله ليبشره، فوجد أبا بكر رضوان الله عليه خارجًا قد سبقه، فقال: لقد كنت سباقًا بالخير، وفي رواية أخرى له: يرحم الله أبا بكر، ما سبقته إلى خير قط إلَّا سبقني إليه»[3].

---

(١) «المسند» (١/ ٣٧٩).

(٢) سَجَلَها: أيْ قرأها قراءة متصلة، من السَّجل: أي الصَبّ.

(٣) «المسند» (١/ ٣٧٩).

□ انظر أخي إلى رائعة روائع ما جادت به ربانيّة ابن أم عبد رضي الله عنه قال: «إن الله نظر في قلوب العباد: فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته. ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون عن دينه؛ فما رأى المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئًا فهو عند الله سيئٌ»[(١)].

فأي استنارة في الفهم وأي عمق في الإدراك كان عند الرباني ابن أم عبد رضي الله عنه!!

□ أكرم بمدرسة الهدي المحمدي، مدرسةً يكون من عيون أبنائها المجلِّين الربانيُّ عبد الله الذي كان لا يفتأ يدندن حول حسن التأسي، مرابطًا على إرث النبوة في مخالطة إيمانية عملية لكتاب الله الحكيم، والسنة النبوية المطهرة، حتى كان - كما دلت النصوص- أقرب هديًا ودلًّا وسمتًا وخطبة بالرسول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع.

• قال رسول الله ﷺ: **«من أحب أن يقرأ القرآن غَضًّا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»**[(٢)].

• وقال ابن مسعود رضي الله عنه وهو الذي عاش على الأرض بطهر السماء: «ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٤٤٥، ٤٥٤)، والحاكم بنحوه في «المستدرك» عن علي (٣/ ٣١٧)، وصحّحه ووافقه الذهبي، وكذا رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٢٤).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٢٧٨، ٢٧٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٢٤).

يفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون – يعني فرح بطر وأشر– وبصمته إذا الناس يخلطون، وببكائه إذا الناس يضحكون – أي لهوًا وغفلة– وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا من خشية الله محزونًا، حكيمًا عليمًا سكيتًا، وينبغي لحامل القرآن أن لا يكون جافيًا ولا غافلًا، ولا صخابًا، ولا صياحًا، ولا حديدًا»[١].

• هذا قول من قال له الرسول ﷺ وهو غلام: «**يرحمك الله فإنك غُلَيِّمٌ مُعَلَّم**». أي ملهم للصواب والخير.. وفي هذا ما فيه من قوة التشجيع والتحريض على علو الهمّة عند عبد الله – بما ذهب إليه بعض أهل العلم من أن معنى قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ [يسف: ٦٨]، لذو عمل بما علمناه وهو يعقوب عليه السلام. قال الإمام القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن»: «وقيل: «لذو علم» أي عمل؛ فإن العلم أول أسباب العمل، فسمي بما هو بسببه»[٢].

□ وروى الأزهري في كتابه «تهذيب اللغة» عن سعد بن زيد عن أبي عبد الرحمن المُقرئ أيضًا أن المعنى «لذو عمل بما علَّمناه، يقول سعد: فقلت: يا أبا عبد الرحمن ممن سمعت هذا؟ قال: من ابن عيينة! قلت: حسبي»[٣].

وقد أخذ بهذا القول من المُحْدَثين العلامة الطاهر بن عاشور، فقال في «التحرير والتنوير»: «وقد دل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾

(١) «الحلية» (١/ ١٣٢).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٢٩).

(٣) «لسان العرب»: مادة (ع ل م).

بصريحه على أن يعقوب عليه السلام عمل بما علَّمه الله. ودلَّ قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ بتعريضه على أن يعقوب عليه السلام من القليل من الناس الذين علموا مراعاة الأمرين ليتقرر الثناء على يعقوب عليه السلام باستفادته من الكلام مرتين: مرة بالصراحة ومرة بالاستدراك»[(١)] والله ولي التوفيق.

□ لقد بلغ ابن مسعود رضي الله عنه منزلة عظيمة في القرب من رسول الله ﷺ، فتأثر بحبيبه ﷺ وهديه أيَّما تأثُّرٍ، فعن عبد الرحمن بن يزيد. عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا عبد الله، إذْنُك عليَّ أن يُرفعَ الحجابُ، وتسمعَ سِوادي**[(٢)] **حتى أنهاك**»[(٣)].

فأي منزلة أعلى من منزلةِ سَمْعِ السِّرَار.. فابن أم عبد يُصنع على عينِ رسول الله ﷺ.. فيكون أقرب الناس دَلًّا وهَدْيًا وسَمْتًا برسول الله ﷺ: كان حبيبه ﷺ أعلم الناس بالله وأشدهم له خشية.. وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه المُتَقَلِّبُ في نور العبودِيَّة طمعًا في التوبة والغفران، الداعي رغبًا ورَهَبًا في محراب الخوف والرجاء يقول: «خائف مستجير تائب، مستغفر راغب راهب»[(٤)].

---

(١) «التحرير والتنوير» للطاهر بن عاشور (١٣/ ٢٥).

(٢) السِّوَاد: السِّرار، يُقال: ساودتُ الرَّجُل مساودَةً إذا ساررته. قيل: هو من إدناء سَوادك من سَواده: أي شخصك من شخصه.

(٣) رواه مسلم (٢١٦٩) باب جعل الإذن رفع حجاب أو نحوه من العلامات، وابن ماجه في المقدمة (١٣٩)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ١/ ١٠٨، ١٠٩)، وابو نعيم في «الحلية» (١/ ١٢٦).

(٤) «السير» (١/ ٤٩٦).

ولما قال رجل في مجلسه: ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين، وأن أكونَ من المقربين أحبُّ إلي؟ قال رضي الله عنه: «لكن ها هنا رجل ودَّ إذا مات أنه لا يُبعث –يعني نفسه–»[1].

وهو الرباني مُجاب الدعاء: الذي يقول في قيامه بالليل «اللهم إني أسألك إيمانًا لا يرتد، ونعيمًا لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع – أو قال: لا تبيد–، ومرافقة النبي ﷺ في أعلى جنة الخلد»، وقول النبي ﷺ: «**سَلْ تُعَط سَلْ تُعْطَ –أوْ سَلْ تُعطه سَلْ تُعطه–**».

وابن مسعود رضي الله عنه مع هذا كله بطل من أبطال المسلمين، ومجاهد فذّ شهد مع الرسول ﷺ بدرًا وأُحُدًا، والخندق، وبيعة الرضوان، وسائر المشاهد، وشهد اليرموك، وهو الذي أجهز على أبي جهل يوم بدر، إذ جاءه وما يزال به رمق بعد أن أثبته ابنا عفراء.

وعلى يد هذا النجيب الربّاني تربّى الربّانيون:

الربيع بن خُثَيْم:

التابعيُّ الجليل، والإمام العَلم المُرَبِّي، خير أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وتلامذته، أبو يزيد الربيع بن خُثَيم بن عائذ.

كان الإمام الرباني القدوة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يضع الربيع –وهو من عيون أصحابه والآخذين عنه– موضع التكريم ورفعة الشأن:

□ عن أبي عُبيدة بن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كان الربيع بن

---

(١) «الحلية» (١/ ١٣٣، ١٣٤)، و«السير» (١/ ٤٩٦، ٤٩٧)، و«صفة الصفوة» (١/ ١٥٩).

خُثيم إذا دخل على عبد الله لم يكن عليه إذنٌ لأحد –وفي رواية: لم يكن له إذن لأحد– حتى يفرغ كل واحد من صاحبه. قال: وقال له عبد الله: «يا أبا يزيد، لو رآك رسول الله ﷺ لأحبَّك».

وفي رواية: «لأحبَّك ولأوسَعَ لك إلى جنبه، وما رأيتُك إلَّا ذكرت المخبتين»[(١)].

ويا نعم ما كان عليه أبو يزيد من مخافة الله سبحانه وتعالى، والفَرَق من أن يكون من أصحاب الجحيم، وهذا دليل استنارة القلب بمعرفة الله ﷻ؛ فعلى قدر المعرفة تكون الخشية!!.

□ عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: «خرجنا مع عبد الله بن مسعود ومعنا الربيع بن خُثيم، فمررنا على حداد، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار، فنظر الربيع إليها. فتمايل ليسقط، فمضى عبد الله حتى أتينا على أتون على شاطئ الفرات، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه، قرأ هذه الآية: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان].

قال: فصَعِق الربيع فاحتملناه فجئنا به إلى أهله، قال: ثم رابطه عبد الله إلى المغرب فلم يفق، ثم إنه أفاق، فرجع عبد الله إلى أهله»[(٢)].

ورواه ابن أبي حاتم بلفظ: «فحملوه إلى بيته، ورابطه عبد الله إلى

---

(١) «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٢، ١٨٣)، و«الحلية» (٢/ ١٠٦)، و«صفة الصفوة» (٢/ ٣١)، و«السير» (٤/ ٢٥٨).

(٢) «الحلية» (٢/ ١١٠).

الظُّهر، فلم يُفق رضي الله عنه»[(١)].

سبحان من أودع في كل قلب ما شغله، كيف لا يقع من الربيع ما وقع، وهو على حال قد شفَّه فيها الحزن، واستأثرت بقلبه مخافة أن يكون ممن تسعَّر بهم الجحيم!! لما أنه يرى بأدبه مع الله، وما أُكرم به من عبودية المخبتين، أنه شديد التقصير في جنب الله، وهذه الخليقة المباركة من أكرم ما يتصف به العالم العامل الرباني.

□ وعن عبد الرحمن بن عجلان قال: «بِتُّ عند الربيع بن خثيم ذات ليلة، فقام يصلي، فمرّ بهذه الآية ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية][(٢)].

□ وكان رحمه الله إذا قيل له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحنا ضعفاء مذنبين نأكل أرزاقنا وننتظِرُ آجالنا»[(٣)].

وحدَّث نُسير بن ذُعلوق قال: كان الربيع بن خثيم يبكي حتى تبتل لحيته من دموعه، ويقول: أدركنا قومًا كنا في جنوبهم لصوصًا. رواه ابن سعد.

وانظر إلى عظيم أخذه بالسنة علمًا وعملًا، وما أثمر له ذلك من الخير في نفسه، وفيمن يأخذون عنه بالتَّعلُّم والتزكية والقدوة.

□ قال أبو حيان يحيى بن سعيد بن حيان التميميُّ: «حدثني أبي قال:

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٢٥٤١).
(٢) «الحلية» (٢/ ١١٢).
(٣) «الحلية» (٢/ ١٠٩)، و«السير» (٤/ ٢٥٩).

كان الربيع بعدما سقط شقه بالفالج يُهادى بين رجلين إلى مسجد قومه، وكان أصحاب عبد الله يقولون: يا أبا يزيد، لقد رخَّص الله لك لو صليت في بيتك! فيقول:إنه كما تقولون، ولكني سمعته ينادي حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح – وفي رواية: إني أسمع حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح–، فمن سمع منكم ينادي حيَّ على الفلاح، فليُجب ولو زحفًا، ولو حَبْوًا، وعند ابن سعد: فإن استطعتم أن تأتوها ولو حبوًا [فافعلوا]»(١).

وهذا من الورع وشدة الاستمساك بالهدي النبوي بمكان!.

وهذه الصورة من صور الورع – وغيرها كثير في سلوك أبي يزيد– تؤكد صواب وصدقَ ما روي عن الشعبي رحمه الله أنه كان يقول: «كان الربيع أورع أصحاب عبد الله (٢)؛ فأصحاب ابن مسعود رضي الله عنه كلهم وَرِع، ولكن الربيع أشدهم وَرَعًا.

من دُرَر كلام الربَّاني الربيع بن خُثَيْم:

□ قال الربيع بن خُثيم: «كُلُّ ما لا يُرادُ به وجه الله يضمحِلّ»(٣).

وقال: «اتق الله فيما علمت، وما استؤثر به عليك، فكِلْه إلى عالمه؛ لأَنا في العمد أخوفُ مني عليكم في الخطأ، وما خيِّرُكم اليوم بخيِّر، ولكنه خير من آخر شرٍّ منه، وما تتبعون الخير حق اتباعه، وما تفرُّون من الشر حق

---

(١) «الحلية» (٢/ ١١٣)، و«الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٩، ١٩٠)، و«تهذيب التهذيب» (١١/ ٢١٤)، و«المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٧١).

(٢) «السير» (٤/ ٢٦١)، و«الحلية» (٢/ ١٠٧).

(٣) «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٦)، و«السير» (٤/ ٢٥٩).

فراره. ولا كلَّ ما أنزل الله على محمد ﷺ أدركتم، ولا كلَّ ما تقرؤون تدرون ما هو.

ثم يقول: السرائرَ السرائرَ اللاتي يَخْفَيْن عن الناس وهن لله بَوَاد - أي ظاهرات - التمسوا دواءهنَّ، وما دواؤهن إلَّا أن تتوب ثم لا تعود»[1].

□ وكان يقول في وصاياه: «أقلُّوا الكلام إلَّا من تسع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتلاوة القرآن، ومسألة الخير، والاستعاذة من الشر»[2].

□ وبلفظ آخر عنه: «أقلوا الكلام إلَّا بتسع: تسبيح، وتكبيرٍ، وتهليل، وسؤالِك الخير، وتعوذِك من الشر، وأمرِك بالمعروف، ونهيك عن المنكر، وقراءة القرآن»[3].

□ وعن منذر الثوري عن ربيع بن خثيم أنه كان يقول: «يا عبد الله، قل خيرًا أو اعمل خيرًا، ودم على صالحة، لا يطولنَّ عليك الأمد، ولا يقسونَّ قلبك، ولا تكوننَّ من الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون.

* يا عبد الله، إن كنت عملت خيًا، فأتْبِعْ خيرًا خيرًا؛ فإنه سيأتي عليك يوم تودُّ لو ازددت، وإن كان مضى منك الهمُّ بسيئة لا محال، فاعمل خيرًا؛ فإن الله يقول: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤)﴾ [هود: ١١٤].

---

(١) «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٥)، و«الحلية» (٢/ ١٠٨، ١٠٩)، و«السير» (٤/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٢) «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٥)، و«الحلية» (٢/ ١٠٩).

(٣) «الحلية» (٢/ ١٠٩).

* يا عبد الله، ما علَّمك الله في كتابه من علم فاحمد الله عليه، وما استؤثر عليك فيه من علم فكِلْهُ إلى عالِمه، ولا تكلَّف، فإنه يقول: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص].

يا عبد الله، اعلم أن العبد إذا طالت غيبته، وحانت جيئته.. انتظره أهله كأن قد جاء، فأكثِروا ذكر هذا الموت الذي لم تذوقوا قبله مثلَه، والسرائرَ السرائرَ اللائي يَخْفين من الناس وهنَّ لله بَوَاد»[1].

رحم الله أبا يزيد: فقد كان من أهل الخير علمًا وعملًا، وعطاءً سخيًا على صعيد التفقيه في الدين، والإرشاد إلى ما فيه مرضاة رب العالمين، والنجاة يوم الوعد الحق، والنبإ اليقين.

□ وعن أبي قيس السهمي قال: جلستُ إلى الربيع بن خثيم فقال: «قولوا خيرًا، وافعلوا خيْرًا تجزوا خيرًا»[2].

□ وقال: «قولوا خيْرًا، وافعلوا خيرًا، ودوموا على صالح ذلك، واستكثروا من الخير، واجتنبوا الشر لا تقسوَ قلوبكم، ولا يطول عليكم الأمد».

وانظر إلى صدق دعائه وإشراق مناجاته:

□ قال الشعبي: «دخلنا على الربيع بن خثيم نعوده، قال: فقلنا له: ادع الله لنا فقال: اللهم لك الحمد كلُّه، وبيدك الخير كلُّه، وإليك يرجع الأمر كلُّه، وأنت إله الخلق كلِّه، نسألك من الخير كله، ونعوذ بك من

---

(١) «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٣، ١٨٤).

(٢) «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٥).

الشر كله»[١]

□ وعن عبد خير قال: «كنت رفيقًا للربيع بن خثيم في غزاة – فذكرها– قال: فرجع ومعه رقيق ودواب، قال: فمكثت أيامًا، ثم أتيته فلم أحسَّ من ذاك الرقيق ولا من تلك الدوابِّ شيئًا، فاستأذنت فلم يجبني أحد، ثم دخلت. قال: فقلت: أين رقيقك ودوابُّك؟ فلم يجبني، فأعدت عليه فقال: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]»[٢] .

□ وقال رحمه الله: «ما غائب ينتظره المرءُ خير من الموت».

□ وقال سفيان الثوري: كان الربيع بن خثيم يقول: «أريدوا بهذا الخير الله تَنالوه، لا بغيره. وأكثروا ذكر هذا الموت الذي لم تذوقوا قبله مثله؛ فإن الغائب إذا طالت غيبته وجبت محبته، وانتظره أهله، وأوشك أن يقدم عليهم»[٣] .

لله درُّ الربيع:

□ عن سعيد الحارثي قال: «ضرب الربيعَ بنَ خثيم الفالجُ، فطال وجعه، فاشتهى لحم دجاج، فكفَّ نفسه أربعين يومًا، ثم قال لامرأته: اشتهيت لحم دجاج منذ أربعين يومًا، فكففت نفسي رجاء أن تكفَّ فأبت، فقالت له امرأته: سبحان الله، وأيُّ شيء هذا حتى تكفَّ نفسك عنه؟ قد أحلَّه الله لك؛ فأرسلت إلى السوق فاشترت له دجاجة بدرهم ودانقين، فذبحتها وشوتها، واختبزت له خبز أصباغ، ثم جاءت بالخِوان حتى

---

(١) «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٩١).

(٢) المصدر السابق (٦/ ١٩١).

(٣) «الحلية» (٢/ ١١٢).

وضعته بين يديه، فلما ذهب ليأكل قام سائل على الباب، فقال: تصدَّقوا عليَّ بارك الله فيكم! فكف عن الأكل، وقال لامرأته: خذي هذا فلُفِّيه وادفعيه إلى السائل!! فقالت امرأته: سبحانه الله! فقال: افعلي ما آمُرُكِ، قالت: فأنا أصنع ما هو خير وأحبُّ إليه من هذا! قال: وما هو؟ قالت: نعطيه ثمن هذا، وتأكل أنت شهوتك، قال: قد أحسنت! ائتيني بثمنه، قال: فجاءت بثمن الدجاجة والخبز والأصباغ، فقال: ضعيه على هذا، وادفعيه جميعًا إلى السائل [(١)].

ومن هذا القبيل ما روى منذر الثوري من أن أهل الربيع صنعوا له طعامًا معيَّنًا بناءً على طلبه – وكان لا يكاد يشتهي عليهم شيئًا –، فأرسل إلى جار له مصاب كان به خَبْلٌ – وهو نوع من البلَه- فجعل يلقِّمه هذا الطعام ولعابه يسيل، فلما خرج من عنده قال أهلُه: تكلفنا وصنعنا ثم أطعمتَ هذا؟! ما يدري هذا ما أكل. فقال الربيع: ولكن الله يعلم.

□ وكان يقول: «ما أحب أن تكون كل مناشدة العبد ربه أن يقول: يا رب، قد قضيتَ على نفسك الرحمة، يا رب قد قضيت على نفسك كذا، يستبطئ، وما رأيت أحدًا بعدُ يقول: يا رب، قد قضيت ما عليَّ، فاقضِ – بلطفك- ما عليك [(٢)]»، يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

□ وكثيرًا ما كان يخاطب نفسه فيقول: «أي عُبيد تواضع لربك ثم يقول: أي لَحْمِيَهْ! أي دَمِيَهْ! كيف تصنعان إذا سُيِّرت الجبال، ودكَّت

---

(١) «صفة الصفوة» (٣/ ٣٣- ٣٤).

(٢) «الطبقات الكبرى» (٦/ ٩١)، و«الحلية» (٢/ ١١٤).

الأرض دكًّا دكًّا ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر].

□ وحين قال له قائل - حاجة في نفسه-: «يا أبا يزيد، قُتل ابن فاطمة عليه السلام قال: فاسترجع ثم تلا هذه الآية: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزمر]، قال: قلت: ما تقول؟ قال: ما أقول؟ إلى الله إيابهم، وعلى الله حسابهم»[١].

□ ويقول حفص بن عمر: قال الربيع بن خثيم: «إذا تكلمت فاذكر سَمْعَ الله إليك، وإذا هممت فاذكر علمه بك، وإذا نظرت فاذكر نظره إليك، وإذا تفكرت فاذكر اطلاعه عليك؛ فإنه يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء][٢].

أبو شبل علقمة بن قيس النخعي:

مثلما تبوَّأ الربيع مقام الرِّيادة في العلم والعمل والاجتهاد في العبادة، والجهاد في سبيل الله، والنصح للمسلمين، رأس علقمة في العلم والعمل والتزكية والجهاد، وتفقّه به العلماء، وتلا عليه القرآن جِلَّةٌ من الأفذاذ، وبعُد صيته في دنيا المسلمين [٣].

□ عن مُرّة الطيِّب قال: «**كان علقمة من الربانيين**»[٤]، وفي رواية لأبي

---

(١) «الحلية» (٢/ ١١١)، و«صفة الصفوة» (٣/ ٣٢).

(٢) «صفة الصفوة» (٣/ ٣٥).

(٣) «السير» (٤/ ٥٣، ٥٤).

(٤) «الطبقات الكبرى» (٦/ ٩١)، و«السير» (٤/ ٥٧)، و«الحلية» (٢/ ٩٨).

نُعَيم: «كان علقمة بن قيس رباني هذه الأمة»[(١)].

□ وقال مرّة الطيِّب: «كان علقمة من الدَّيِّنين الذين يقرؤون القرآن»[(٢)].

□ قال ابن مسعود: «ما أقرأ شيئًا ولا أعلم شيئًا إلَّا وعلقمة يقرؤه أو يعلمه»، قيل: يا أبا عبد الرحمن، والله ما علقمة بأقرئنا، قال: «بلى، إنه والله لأقرؤكم»[(٣)].

□ وعن علقمة قال: «كنت رجلًا قد أعطاني الله حسن الصوت بالقرآن، وكان عبد الله بن مسعود يرسل إليَّ فأقرأ عليه القرآن، قال: فكنت إذا فرغت من قراءتي قال: زدنا من هذا»[(٤)].

□ وقد عُدَّ علقمة عند البعض أعلم الناس بعبد الله، وعدّه آخرون من المقدمين بذلك العلم. قال عثمان بن سعيد: علقمة أعلم بعبد الله، وقال ابن المديني: لم يكن أحد من الصحابة له أصحاب حفظوا عنه، وقاموا بقوله في الفقه إلَّا ثلاثة: زيدُ بن ثابت، وابنُ مسعود، وابنُ عباس، وأعلم الناس بابن مسعود: علقمةُ، والأسودُ النخعي، وعَبيدةُ السَّلماني، والحارث بن قيس الجُعفيُّ الكوفي[(٥)].

□ وقال إبراهيم النخعي: «انتهى علم الكوفة إلى ستة من أصحاب

---

(١) المصدر السابق.
(٢) «الحلية» (٩٨٢).
(٣) «الحلية» (٢/ ٩٩).
(٤) «الحلية» (٢/ ٩٩).
(٥) «السير» (٤/ ٥٥)، و«المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٥٣).

عبد الله بن مسعود؛ فهم الذين كانوا يفتون الناس، ويعلمونهم، ويفقهونهم: علقمةُ بن قيس النخعي، والأسود بن يزيد النخعي، ومسروق بن الأجدع الهمْداني، وعَبيدة السَّلماني، والحارث بن قيس الجُعفي الكوفي، وعمرو بن شُرحبيل الهمْداني»[١].

□ وعن الأسود قال: «رأيت عبد الله يُعلِّم علقمة التشهُّد كما يُعلِّمه السورة من القرآن»[٢].

□ وحدَّث الأعمش عن عمارة بن عمير قال: «قال لنا أبو معمر: قوموا بنا إلى أشبه الناس بعبد الله هديًا ودلًّا، وسمتًا، فقمنا معه حتى جلسنا إلى علقمة»[٣].

الهدي: السيرة، **والسمت والدل**: معناهما متقارب؛ إذ يلتقيان عند السكينة والوقار ونورانية التقوى والورع في دين الله. ودلالة ذلك من الناحية التربَويّة على شدَّة التوجُّه القلبي والنفسي عند علقمة إلى حُسْن التأسِّي بعبد الله لا تخفى.

□ وروى سفيان بن عيينة عن داود بن أبي هند قال: «قلت للشعبي: أخبرني عن أصحاب عبد الله حتى كأني أنظر إليهم، قال: كان علقمة أبْطَنَ القوم به[٤]، وكان مسروق قد خلط منه ومن غيره، وكان الربيع بن خثيم أشدَّ الناس اجتهادًا، وكان عبيدة يوازي شريحًا في العلم

---

(١) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٥٣).

(٢) «الطبقات الكبرى» (٦/ ٨٩).

(٣) «السير» (٤/ ٥٥).

(٤) أبطن القوم به: يعني من خواصِّه.

والقضاء»[١].

□ وروى زائدة عن أبي حمزة قال: «قلت لرباح أبي المثنى: أليس قد رأيت عبد الله؟ قال: بلى، وحججت مع عُمَرَ ثلاث حجَّات وأنا رجل. قال: وكان عبد الله وعلقمة يَصُفَّان الناس صفّين عند أبواب كِنْدة، فيقرئ عبد الله رجلًا، ويقرئ علقمة رجلًا، فإذا فرغا تذاكرا أبواب المناسك، وأبواب الحلال والحرام؛ فإذا رأيت علقمة فلا يضرُّك أن لا ترى عبد الله؛ أشبه الناس به سمتًا وهديًا، وإذا رأيت إبراهيم النخعيَّ فلا يضرُّك أن لا ترى علقمة؛ أشبه الناس به هديًا وسمتًا»[٢].

وهذه المرابطة من علقمة على باب التلقي لقراءة القرآن، والفقه في الدين، والعمل بأحكامه وآدابه عن البحر الذي كان شديد القرب من رسول الله ﷺ، وأشبه الناس به هديًا ودلًّا وسمتًا. هذه المرابطة كما حملته - بعون من الله- إلى حيث يشارك أستاذه الإقراء ومذاكرة أبواب المناسك، وأبواب الحلال والحرام؛ تعدَّت ذلك إلى أن يتفقَّه به أئمة كبار كإبراهيم بن يزيد النخعي، والشعبي، وإبراهيم بن سويد النخعي، وأبي الضحى مسلم بن صبيح، ويحيى بن وثاب، والقاسم بن مخيمرة، وطائفة، وأن يُسأل ويُستفتى مع وجود الصحابة عليهم الرضوان.

□ جاء في «السير» للذهبي: «وتفقه به أئمة كإبراهيم والشعبي، وتصدَّى للإمامة والفتيا بعد علي وابن مسعود، وكان يشبَّه بابن مسعود في هديه ودلِّه وسمته، وكان طلبته يسألونه، ويتفقهون به والصحابة

---

(١) «السير» (٤/ ٥٤، ٥٥).

(٢) «السير» (٤/ ٥٥).

متوافرون»[١].

□ ويقول قابوسُ بن أبي ظَبيان: «قلت لأبي: لأي شيء كنت تَدَعُ الصحابة رضي الله عنهم وتأتي علقمة؟ قال: «أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يسألون علقمة ويستفتونه»[٢].

□ وروى أبو نُعيم في «الحلية» بسنده أن عبد الله مرَّ بحلْقة فيها علقمة والأسود ومسروق وأصحابهم، فوقف عليهم فقال: «بأبي وأمي العلماء، بروح الله ائتلفتم، وكتابَ الله تلوتم، ومسجد الله عمرتم، ورحمة الله انتظرتم، أحبَّكم الله وأحبَّ من أحبَّكم»[٣].

□ قال إبراهيم النخعي: «كان علقمة يقرأ القرآن في خمس»[٤].

□ وقال: «كان علقمة يقرأ القرآن في خمس، والأسود في سِت، وعبدالرحمن بن يزيد في سبع»[٥].

□ وحدَّث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة قال: «أُتي عبد الله بشراب فقال: أعط علقمة، أعط مسروقًا، فكلُّهم قال: إني صائم، فقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۝٣٧﴾ [النور]»[٦].

□ وحدَّث ابن عيينة عن عمر بن سعد قال: «كان الربيع بن خثيم

---

(١) «السير» (٤/ ٥٤)، و«تذكرة الحفّاظ» للذهبي (١/ ٤٨).
(٢) «الحلية» (٢/ ٩٨)، و«تذكرة الحفّاظ» (١/ ٤٨).
(٣) «الحلية» (٢/ ٩٨، ٩٩).
(٤) «السير» (٤/ ٥٦).
(٥) «السير» (٤/ ٥٩).
(٦) «السير» (٤/ ٥٧).

يأتي علقمة، فيقول: ما أزور أحدًا ما أزورك»[١]، ويقول الإمام الشعبي: «إن كان أهل بيت خلقوا للجنة، فهم أهل بيت علقمةُ والأسود»[٢]، أما أبو قيس الأودي فيقول: رأيت إبراهيم آخذًا بالركاب لعلقمة»[٣].

مدرسة الربانيين: أبو قلابة عبد الله بن زيد الجَرمي وأيوب السَّختياني وحماد بن زيد:

من أئمة الهدي الذين أخذ عنهم أيوب السختياني، وتأثَّر بم عِلْمًا وسلوكًا، وروى الكثير من أخبارهم الإمام شيخ الإسلام أبو قِلابة عبدالله بن زيد الجَرْمي البصري، وكان من خيار التابعين».

□ قال علي بن حَمَلة: «قدم علينا مسلم بن يسار دمشق، فقلنا له: يا أبا عبد الله، لو علم الله أن بالعراق من هو أفضل منك، لجاءنا به، فقال: كيف لو رأيتم عبد الله بن زيد أبا قِلابة الجَرْميَّ! قال: فما ذهبت الأيام والليالي حتى قدم علينا أبو قلابة»[٤].

ولا يعوزك وأنت تستطلع مقدار انتفاع أيوب بأبي قلابة وتأثره به تأثر بناء وتكوين: أن تقع على الكثير مما يدل على ذلك.

حدَّث صالح بن رستم قال: قال أبو قلابة لأيوب: «إذا أحدث الله لك علمًا فأحْدِث لله عبادة، ولا تكونن إنما همُّك أن تحدث به الناس»[٥].

---

(١) «السير» (٤/ ٥٩).

(٢) «السير» (٤/ ٦٠).

(٣) «السير» (٤/ ٦٠).

(٤) «السير» (٤/ ٤٦٨، ٤٦٩، ٥١١)، و«المعرفة والتاريخ» (٢/ ٨٦).

(٥) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٦٦)، و«اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي (ص٣٥).

□ وأبو بكر أيوب السختياني نعم التلميذ لأبي قلابة قال فيه الحسن البصري: «أيوب سيد شباب أهل البصرة»[(١)].

□ وكان يقول عنه: «هذا سيِّد الفتيان»[(٢)].

□ وقال الحُميدي: «لقي سفيان بن عيينة – وهو ممن روى عن أيوب – ستة وثمانين من التابعين، وكان يقول: «ما رأيت مثل أيوب»[(٣)].

□ وقال هشام بن عروة: «ما رأيت بالبصرة مثل أيوب، ولا بالكوفة مثل مسعر»[(٤)].

□ وقال سفيان الثوري: «ما رأيت بالبصرة مثل أربعة، فبدأ بأيوب»[(٥)].

□ وقال عبد الله بن وهب صاحب مالك: «سمعت مالك بن أنس ذكر أيوب السختياني وذكر منه فضلًا وقال: كان أشدَّ الناس تثبتًا[(٦)]، وقال أبو حاتم – وسئل عن أيوب-: ثقة لا يسأل عن مثله. قال الذهبي بعد إيراد هذه المقولة: قلت: إليه المنتهى في الإتقان»[(٧)].

□ قال شعبة بن الحجاج: «حدثني أيوب سيد الفقهاء»[(٨)].

---

(١) «المعرفة والتاريخ» (٣/ ٤٥٨، ٤٥٩)، و«السير» (٦/ ١٦، ١٧)، و«الحلية» (٣/ ٣).

(٢) «السير» (٦/ ١٧)، و«المعرفة والتاريخ» (٢/ ١٣٢).

(٣) «الحلية» (٣/ ٣).

(٤) «الحلية» (٣/ ٤)، و«السير» (٦/ ١٨).

(٥) «السير» (٦/ ١٩).

(٦) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٣٣).

(٧) «السير» (٦/ ٢٠).

(٨) «السير» (٦/ ١٩).

□ وقال أشعث بن سوَّاد الكندي: «كان أيوب جهبذ العلماء»[(١)].

□ قال حماد بن زيد: «أيوب عندي أفضل من جالسته، وأشدُّه اتباعًا للسُّنَّة»[(٢)].

□ وقال مالك بن أنس: «كنا ندخل على أيوب السَّختياني، فإذا ذكرنا له حديث رسول الله ﷺ بكى حتى نرحمه»[(٣)].

□ وقيل لمالك بن أنس – أجزل الله مثوبته-: «إنك تتكلم في حديث أهل العراق، وتروي مع هذا عن أيوب؟ فقال: «ما حدثتكم عن أحد، إلَّا وأيوب أوثق منه»[(٤)].

□ وقال رحمه الله: «ما بالعراق أحد أقدمه على أيوب، ومحمد بن سيرين في زمانهما»[(٥)].

□ وشيخ الإسلام حماد بن زيد هو أخصُّ الناس بأيوب السختياني، قال شعبة بن الحجّاج: «من أراد أيوب فعليه بحمّاد بن زيد».

قال الذهبي: «قلتُ: صدق، أثبت الناس في أيوب هو»[(٦)].

□ قال عبد الله بن بشر: «إن الرجل ربما جلس إلى أيوب السختياني فيكونُ لما يرى منه أشدَّ اتباعًا منه لو سمع حديثه»[(٧)].

---

(١) «السير» (٦/ ٢١) والجَهْبذ: الناقد البصير.

(٢) «السير» (٦/ ٢١).

(٣) «الحلية» (٣/ ٤).

(٤) «السير» (٦/ ٢٤).

(٥) «الحلية» (٣/ ١١).

(٦) «السير» (٦/ ٢٠).

(٧) «الحلية» (٣/ ٧).

□وهذا سفيان بن عُيينة يروي عن أيوب أنه كان يقول: «إنه ليبلغني موت الرجل من أهل السُّنَّة، فكأنما يسقط عضوٌ من أعضائي».

وفي رواية لحمّاد بن زيد عنه: «فكأنما أفقدُ بعض أعضائي»[(١)].

□ وكان أيوب رحمه الله من أشد الناس بُغضًا لأهل البدع الضالّة والأهواء، فعن سلّام ابن أبي مطيع قال: «رأى أيوب رجلًا من أصحاب الأهواء فقال: إني لأعرف الذلة في وجهه ثم تلا: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، ثم قال: هذه لكل مفتر، وكان يسمي أصحاب الأهواء خوارج، ويقول:إن الخوارج اختلفوا في الاسم، واجتمعوا على السيف، وقال له رجل من أهل الأهواء – يبدو أنه كان آيسًا من رجوعه إلى الحق-: أكلمك كلمة، أو أسأل عن كلمة؟ فولّى، وهو يقول: ولا نصفَ كلمة. مرتين[(٢)].

□ ومن كلماته المحذِّرة المنذرة في هذا الباب قوله: «ما ازداد صاحب بدعة اجتهادًا إلّا ازداد من الله بعدًا»[(٣)].

ولشدَّ ما تذكرنا مواقفُ أيوب الصَّلبةُ الحازمة من أهل الأهواء والبدع: بانتفاعه وتأثره بما كان عليه أبو قِلابة في ذلك. حدث حماد بن زيد عن أيوب قال: قال أبو قِلابة: «لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تحادثوهم، فإني لا آمن أن يغمُروكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون»[(٤)].

---

(١) «الحلية» (٣/ ٩).
(٢) «السير» (٦/ ٢١)، و«الحلية» (٣/ ٩).
(٣) «الحلية» (٣/ ٩).
(٤) «الطبقات الكبرى» (٧/ ١٨٤)، و«الحلية» (٢/ ٢٨٧)، و«السير» (٤/ ٤٧٢).

□ وعن أيوب عن أبي قِلابة قال: «إذا حدثت الرجل بالسنة فقال: دعنا من هذا وهات كتاب الله، فاعلم أنه ضال»[(١)].

□ قال الإمام الذهبي: «قلت أنا: وإذا رأيت المتكلم المبتدع يقول: دعنا من الكتاب والأحاديث الآحاد وهات «العقل» فاعلم أنه أبو جهل، وإذا رأيت السالك التوحيدي يقول: دعنا من النقل ومن العقل، وهات الذوق والوجد، فاعلم أنه إبليس قد ظهر بصورة بشر أو حلَّ فيه..» إلى آخر ما قال يرحمه الله. وصلاة الله وسلامه على مَنْ ترك الأمة على بيضاء نقية لا يزيغ عنها إلَّا هالك وعلى آله وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

□ هذا: ويبدو أن أبا قِلابة – وهو يتفرَّس في أيوب الخير والقدرة على العطاء- كان لا يني يفتح له مغاليق الأمور في كل صغيرة وكبيرة دليل نورانيته يرحمه الله. يقول أيوب: رآني أبو قلابة وقد اشتريت تمرًا رديئًا، فقال: «أما علمت أن الله قد نزع من كل رديء بركته»[(٢)]!.

□ وفي رواية أخرى: «رآني أبو قِلابة وأنا أشتري تمرًا رديئًا فقال: «قد كنت أظن أن الله تعالى قد نفعك بمجالسنا، أما علمت أن الله تعالى قد نزع من كل رديء بركته»[(٣)].

أيوب.. وأبو قلابة:

أي علاقة حميمة كانت بين أبي قلابة عبد الله بن زيد بن عمرو الجَرمي

---

(١) «الحلية» (٢/ ٢٨٧)، و«السير» (٤/ ٤٧٢)، و«الطبقات الكبرى» (٧/ ١٨٤).

(٢) «السير» (٤/ ٤٧٢).

(٣) «الحلية» (٢/ ٢٨٦).

البصري وأيوب السختياني!!!، ولله ما أحلى ثمرها الطيِّب على صعيد التأثُّر والتأثير من الهداية والخير!!! ناهيك عن كونه نورًا على نور، ومائدة ربَّانية يظفر فيها المتحابُّون فيه سبحانه وتعالى بمرضاته، وأن يكونوا على منابر من نور يوم القيامة.

□ قال مطرِّف بن عبد الله: «ما كان اثنان يتحابَّانِ في الله إلَّا كان أشدُّهما حُبًّا لصاحبه أفضلهما، قال الحسن: صدق مُطرِّف»[1].

□ ولم يكن عجبًا من العجب انتفاع أيوب بأبي قلابة وهو على خُبر بعلمه وعلقه وورعه وصدقه مع الله. قال حماد بن سلمة: سمعت أيوب ذكر أبا قِلابة فقال: «كان والله من الفقهاء ذوي الألباب، إني وجدت أعلم الناس بالقضاء أشدَّهم منه فرارًا، وأشدَّهم منه فرقًا، وما أدركتُ بهذا المِصْر أعلم بالقضاء من أبي قِلابة. لا أدري ما محمد - يعني ابن سيرين -»[2].

□ ويروي أيوب عن عمر بن عبد العزيز - وهو مَن هو يرحمه الله في معرفته بالرجال وقَدْرِهِ العلماءَ العاملين قدرهم، وإدراكِ أثرهم في الإصلاح على صعيد المجتمع والأمة-: يروي عنه ما يدل على عظيم ثقته بأبي قلابة وإدراك موقعه من حركة التغيير إلى ما هو الأفضل».

□ يقول أيوب: «مرض أبو قِلابة بالشام، فأتاه عمر بن عبد العزيز يعوده فقال: «يا أبا قِلابة، تشدَّد لا تُشمت بنا المنافقين»، وفي رواية: «لا يَشمتَ بنا المنافقون»[3].

---

(١) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٩٠).

(٢) «الطبقات الكبرى» (٧/ ١٣٨)، و«السير» (٤/ ٤٧٠).

(٣) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٦٧)، و«السير» (٤/ ٤٧٢ - ٤٧٣).

□ هذا: وقد بلغ من محبة أبي قلابة لأيوب وثقته بدينه وعلمه وأمانته أنه أوصى له بكتبه التي فيها مروياته وآراؤه وعظاته التربوية ووصاياه. قال حماد بن زيد: أوصى أبو قلابة قال: «ادفعوا كتبي إلى أيوب إن كان حيًّا، وإلَّا فأحرقوها»(١).

□ وقال أيوب: «أوصى أبو قلابة إليَّ بكتبه، فأُتيت بها من الشام، فأعطيت كِراءها بضعة عشر درهمًا»(٢).

□ ومما روى أيوب من كتاب أبي قلابة قال: «مَثل العلماء كمثل النجوم التي يُهتَدى بها، والأعْلام التي يُقتدَى بها، فإذا تغيَّبت تحيَّرُوا، وإذا تركوها ضَلُّوا»(٣).

□ وحدَّث أيوب عن كتاب أبي قلابة قال: «العلماء ثلاثة: فعالِمٌ عاش وعاش الناس بِعلمه، وعالم عاش بعلمه ولم يَعِش الناس بعلمه، وعالِمٌ لم يَعِش بعلمه ولم يَعِش الناس بعلمه»(٤).

ولأيوب السختياني الربَّاني العامل الخبرُ العجيب:

□ قال رحمه الله: «إذا ذُكِر الصالحون كنت عنهم بمعزل»(٥).

□ وفي إخفائه لعمله روى أبو نعيم عن حماد بن زيد تلميذ السختياني

---

(١) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٨٩).

(٢) انظر: «كتاب العلل ومعرفة الرجال» للإمام أحمد (١/ ٣٩٤)، و«المعرفة والتاريخ» للفسوي (٢/ ٨٨- ٨٩).

(٣) «الحلية» (٢/ ٢٨٣).

(٤) «الحلية» (٢/ ٢٨٣).

(٥) «السير» (٦/ ٢٢).

قال: غلب أيوب البكاء يومًا فقال: «الشيخ إذا كبِر مجّ [١]، وغلبه فوه ووضع يده على فمه، وقال: الزُّكمة ربما عرضت» [٢].

هكذا حاول هذا الإمام التقي النقي أن يحول دون من رأوا عينيه تذرفان من خشية الله، ودون تأويل ذلك بالتقوى والصلاح، وسلك لهذه المحاولة الأسلوب الحكيم الذي لم يخالف عن الصدق قِيدَ أُنملة، وذلك بأن ذكَّر الحضور بما يكون عليه الشيخ الهرم من ضعف يبلغ به أن لا يستطيع حبس ريقه من كثرته بل يمجُّ به، كما أوحى إليهم ما قد يعرض له من الزُّكمة، وهو الزُّكم، كي يذهب بهم الظن بأن ما شهدوا منه قد يكون من هذا القبيل! [٣].

□ و«كان رحمه الله يقوم الليل كُلَّه، فيُخفي ذلك، فإذا كان عند الصبح رفع صوته؛ كأنه قام تلك الساعة» [٤].

□ وقال شعبة: «ربما ذهبت مع أيوب لحاجة، فلا يدعني أمشي معه، ويخرج من ها هنا وها هنا؛ لكيلا يُفطَن له» [٥].

□ قال مخلد بن حسين: قال أيوب: «ما صدق عبدٌ قط فأحبَّ الشُّهرة».

□ وحدَّث عنه أبو بكر بن المفضل أنه كان يقول: «والله ما صدق عبد

---

(١) يُقال: مَجَّ ريقه: إذا لفظه انظر: «لسان العرب» مادة: مج.

(٢) «الحلية» (٣/ ٦، ٧)، و«السير» (٦/ ٢٢).

(٣) «الربانيون قدوة وعمل» (ص٢٨٥).

(٤) «الحلية» (٣/ ٨).

(٥) «الحلية» (٣/ ٦)، و«السير» (٦/ ٢٢).

قط إلَّا سَرَّه أن لا يُشعَرَ بمكانه»[١].

ومما يحكيه صاحبه الأدنى حماد بن زيد حائز قصب السبق في الأخذ عنه والتأسي بسلوكه: أنه كان يأخذ به في طريق أبعد، فيقول -أي حماد-: إن هذا أقرب، فيقول أبو بكر: إني أتقي هذه المجالس، وكان إذا سلَّم يردون عليه سلامًا فوق ما يُرَدُّ على غيره، فيقول: اللهم إنك تعلم أني لا أريده»[٢].

□ قال حماد بن زيد تلميذه: «كنتُ أمشي معه، فيأخذ في طرق إني لأعجب له كيف يهتدي لها، فرارًا من الناس أن يُقال: هذا أيوب»[٣].

□ وقال حَمَّاد بن زيد: «ما رأيتُ أحدًا أعظم رجاءً لأهله القبلة من أيوب وابن عون»[٤].

□ وقال يونس بن عبيد: «ما رأيت أحدًا أنصح للعامة من أيوب والحسن»[٥].

كرامةٌ للسختياني:

□ قال أبو يعمر: «كان أيوب في طريق مكة، فأصاب الناسَ عطش حتى خافوا، فقال أيوب: أتكتمون عَلَيَّ؟ قالوا: نعم، فدوّر رداءه، ودعا، فنبع الماء، وسَقَوا الجمالَ، ورَوُوا، ثم أمرَّ يده على الموضع، فصار كما كان.

---

(١) «السير» (٦/ ٢٢)، و«الحلية» (٣/ ٦).

(٢) «الطبقات الكبرى» (٧/ ٢٤٩).

(٣) «السير» (٦/ ٢٢).

(٤) «الطبقات الكبرى» (٧/ ٢٤٩).

(٥) «السير» (٦/ ٢٠).

قال أبو الربيع: فلما رجعت إلى البصرة حدثت حماد بن زيد بالقصة، فقال: حدثني عبد الواحد بن زيد أنه كان مع أيوبَ في هذه السفرة التي كان هذا فيها»[١].

□ وقال أبو بكر الحميدي: حدثنا سفيان الثوريُّ قال: «سمعت عمرو ابن دينار والزهري يتمثلان بالشعر في مجالسهما في المسجد الحرام، ورأيت عمرو بن دينار يسمر إلى قريب من ربع الليل – يعني بالعلم –، فإذا ذهبوا دخل أيوب الطواف، فربما دخلت معه، فيقول: لولا أنا أكنتَ تطوف؟ فأقول: لا تجدني. ثم يقول لي: اذهب»[٢].

الرِّضا عن الله شعار أبي قلابة وصاحبه السختياني:

ومن دروس القُدوة المؤثرة حقًّا في سلوك هؤلاء الربانيِّين أنهم دائمًا على الرضا بقضاء الله في السرَّاء والضرَّاء، وقد مَرّ بنا في «علو الهمَّة في الصبر»: قصة موت أبي قلابة بعريش غزة.. وهي الكلمات التي تدمي العيون والقلوب لأبي قلابة الجرمي الفارُّ بدينه.. الهارب من تولي القضاء المبتلى في جسده كأشد ما يكون البلاء، ثم ولده – الذي كان يخدمه وهو منقطع في الصحراء – فأكله السَّبع – وثناؤه على رضاه ورضاه عنه..

عذابُـه فيـك عـذبُ ... وبُعْـدُه فيـك قـربُ
وأنـت عنـدي كروحـي ... بـل أنـتَ منهـا أحـبُّ
حـسبي مـن الحُـبِّ أني ... لمـا تُحِـبُّ أُحِـبُّ

---

(١) «السير» (٦/ ٢٢، ٢٣).

(٢) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ١٨).

أما تلميذه السَّختياني:

□ فقد قال سعد بن سليمان: «دخلت أنا وأخي على أيوب نعوده وقد طُعِنَ – أي أصيب بالطاعون– وكان أخي أسنَّ مني، وقد اعتقل لسانه، فقال له أخي: بأبي أنت وأمي، أبشر بأبي أنت وأمي بأحدى الحسنيين؛ إما حياةُ الطاعة، وإما وفاةٌ فما عند الله خير للأبرار. قال: فكأنه سرَّه ذلك. قال: ثم أعاده عليه، فكأنه سرَّه ذلك»[1].

□ انظر كم رفع الله أيوب السختياني بصدقه وورعه وإخلاصه، وفيه يصدق قول أيوب نفسه: «إن قومًا يريدون أن يرتفعوا فيأبى الله إلَّا أن يضعهم، وآخرين يريدون أن يتواضعوا فيأبى الله إلَّا أن يرفعهم»[2].

عمر بن عبد العزيز وميمون بن مهران:

الحديث عن أولئك العلماء الربانيين من التابعين بإحسان لمن أخذوا عنهم من أصحاب النبي ﷺ، فأحسنوا الأخذ والتلقي، واقتدوا بهديهم – وهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه فأحسنوا لاقتداء – حديث عن التفاعل المثمر البناء في ظل الهدي الرباني، والمسيرة الخيِّرة المباركة التي قادها البشير النذير صلوات الله وسلامه عليه.

وهو التفاعل الذي حمل التأثر والتأثير بين جيل الصحابة عليهم الرضوان جيل الإيمان والصفاء، والجهاد بكل أنواعه والنقاء، وبين من ساقتهم المقادير إلى هذا المحضن المبارك –أعني التابعين بإحسان– فكانوا

---

(١) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٦٦– ٢٦٧).

(٢) «الطبقات الكبرى» (٧/ ٢٤٨).

عند الذي تقتضيه أمانةُ التلقي أخذًا وتحملًا، وأمانة العطاء لمن وراءهم درسًا وتعليمًا وتزكية، وإرساءً لتلك القواعد النورانية في المنهج الذي يشرق بذلك كله، مزدانًا بالدعوة إلى العمل بالعلم، وأن تأخذ القدوة مكانها السامق في التربية والتزكية»(١).

▫ قال الصحابي التقي النَّقِي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «من كان مستَنًّا فليستَنَّ بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ: كانوا خير هذه الأمة، أبرَّها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلَّها تكلفًا؛ قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، ونقل دينه؛ فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمد ﷺ، كانوا على الهدي المستقيم والله رب الكعبة»(٢).

وكم يكون حظ الأمة موفورًا حين يتوافر لها أن يكون أدِلَّاؤها على طريق الهداية علماء ربانيين عاملين، يشهد لهم أهل الفضل بالوثوق بعلمهم ونهجهم في الأخذ والعطاء، فقهًا في الدين، وحرصًا على إيصال النفع للمسلمين في اتقاء وإخلاص لله رب العالمين.

ومن جِلَّة التابعين وخيارهم، ومن كان له أثر في نشر العلم النافع، وحِرْصٌ على التربية المشْرِقة بالتزكية والعمل، وإغناء لتكوين الجيل المسلم بما كان له من تجربة في حياته الحافلة بالحركة النيِّرة طاعةً لله عز وجل، الإمام القدوة الحجّة عالم الجزيرة ومُفتيها أبو أيوب ميمون بن مِهران الجَزَري الرَّقِّي.

حدَّث أبو أيوبَ عن أبي هريرة، وعائشة أم المؤمنين، وابن عباس،

---

(١) «الربانيون قدوة وعمل» (ص٣٤).

(٢) «الحلية» (١/ ٣٠٥- ٣٠٦)، و«المعرفة والتاريخ» (١/ ٤٩٠).

وابن عمر، وعبد الله بن الزبير، والضحاك بن قيس الفهري، وأم الدرداء، وصفية بنت شيبة العبدرية، وعمرو بن عثمان، وعمر بن عبد العزيز، وعديٍّ بن عديٍّ الكندي، ونافع، ويزيدَ بنِ الأصم، وسعيد بن جبير، وسعيد بن المسيَّب، وآخرين، وأرسل عن عمر بن الخطاب، والزبير بن العوَّام.

□ روى سعيد بن عبد العزيز عن سليمان بن موسى قال: «هؤلاء الأربعة علماء الناس في زمن هشام بن عبد الملك: مكحول، والحسن، والزهري، وميمون بن مهران»[1].

□ قال عنه أبو نعيم: «ومنهم الحكيم اليقظان أبو أيوب ميمون بن مِهران، إمام أهل الجزيرة، حميد السيرة، سديد السريرة».

□ وعن سعيد بن عبد العزيز قال: «كان علماء الأمة في زمن هشام هؤلاء الأربعة، فقال سليمان بن موسى: إن جاءنا العلم من أهل الحجاز عن الزهري قبلناه، وإن جاءنا من الشام عن محكول قبلناه، وإن جاءنا العلم من الجزيرة عن ميمون بن مهران قبلناه، وإن جاءنا العلم من العراق عن الحسن قبلناه»[2].

□ وعن ميمون بن مهران قال: «أتيت المدينة، فسألت عن أفقه أهلها، فدُفعت إلى سعيد بن المسيِّب، فجعلت أسأله. فقال: إنك تسأل مسألة رجل كان قد تبحَّر ما هاهنا قبل اليوم. وفي رواية أخرى: أتيت سعيد بن المسيب أسأله، فقال: ممن أنت؟ فقلت: من أهل الجزيرة، قال: ما أتاني

---

(١) «السيرة» (٥/ ٧٢).

(٢) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٤٠٤)، و«تهذيب الكمال» للمزي (٢٩/ ٢١٥).

أحد من أهل بلدك يسألني مسألتك، قلت: إني أُسألُ هناك»[١].

□ وقال ميمون بن مهران: «كنت عند عمر بن عبد العزيز، فلما قمت من عنده قال: «إذا ذهب هذا وضرباؤه صار الناس بعدهم رجراجة»[٢] أي: لا خير فيهم.

حيَّهلاً بميمون بن مهران:

إذا ذكر الرجال الذين ترقى بهم نفوسهم الكبار إلى موقع الريادة في الأمة: فحيَّهلًا بعلمائها الربانيين العارفين بالله، الذين تراهم -وهم يعلِّمون الكتاب ويدرسون ويربون- قائمين بأمر الله في نصرة الحق الذي نزل به الكتاب، لا يفتؤون يعتصمون بالله، يقولون عنه -جل شأنه- وعن رسوله ﷺ ما أراد، مستنيرة بهديه عقولهم، مشرقة بنفحات عطائه قلوبهم.

وكلما ازدادوا علمًا ومعرفة به سبحانه، ازدادوا مسارعة إلى فعل ما يقربهم إليه زلفى، ويسلكهم في مدارج أهل البر والتقى، عملًا بهذا العلم، واجتهادًا في إيصاله إلى المسلمين، وضربًا في أرض الحياة على طريق الربانية التي تبدأ بهذا السلوك المتميز المرضيِّ لله رب العالمين، وتنتهي بجنة عرضها السموات والأرض أعدت لمن أخلصوا دينهم لله، وعملوا على تحقيق الخير للمسلمين، وجاهدوا في الله حق جهاده حتى أتاهم اليقين[٣].

---

(١) «تهذيب الكمال» (٢٩/ ٢١٤- ٢١٥).

(٢) «تهذيب الكمال» (٢٩/ ٢١٥)، انظر: «النهاية» لابن الأثير مادة رجج وفي «اللسان» لابن منظور: وفي حديث عمر بن عبد العزيز: الناس رجاج بعد هذا الشيخ -يعني ميمون بن مهران- هم رعاع الناس وجُهّالهم.

(٣) «الربانيون» (ص٣٤٦).

وعلى رأس هؤلاء أبو أيوب ميمون بن مهران الذي لقي الله وهو دائب على نشر العلم، حريصٌ على الإسهام في أن يكون المسلمون على المورد العذب المتمثِّل بالهدْي النبوي، ثم ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من الاستمساك بهذا الهدي المبارك علمًا وعَمَلًا في جميع الأحوال.

□ حدَّث الإمام العلم أبو المليح الرَّقِّي وهو من عيون من أخذوا عن ميمونٍ ورووا عنه، قال: قال ميمون بن مهران: «لقد أدركت من لم يتكلم إلَّا بحق أو يسكت، وأدركت من لم يكن يملأ عينيه من السماء فرقًا من ربه عز وجل، وأدركت من كنت أستحيي أن أتكلم عنده»[1] يعني بذلك الصحابة الذين تأثر بهم وانتفع بسلوك من صحب منهم عليهم الرضوان وها هو يحدِّث بهذه الوصية الغالية عن حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما قال له: «يا ميمون لا تشتم السلف، وادخل الجنة بسلام»[2].

من دُرر الربَّاني ميمون بن مهران:

□ قال رحمه الله: «إن هذا القرآن قد خَلِق في صدر كثير من الناس، والتمسوا ما سواه من الأحاديث - يعني أحاديث الدنيا -، وإن فيمن يبتغي هذا العلم: من يتخذه بضاعة يلتمس بها الدنيا، ومنهم من يريد أن يشار إليه، ومنهم من يريد أن يماري به. وخيرُهم من يتعلَّمه ويطيع الله عز وجل به»[3].

---

(١) «تهذيب الكمال» (٢٩/ ٢١٥)، و«الحلية» (٤/ ٨٨) مختصرًا.

(٢) «تهذيب الكمال» (٢٩/ ١٢٦).

(٣) «الحلية» (٤/ ٨٤).

□ وقال: «من تبع القرآن حتى لم يتركه يَحُلَّ به الجنة، ومن ترك القرآن لم يدعه القرآن، يتبعه حتى يقذفه في النار»[١].

□ وقال رحمه الله: «لو أن أهل القرآن صحلوا لصلح الناس»[٢].

□ وقال: «يا أصحاب القرآن، لا تتخذوا القرآن بضاعة تلتمسون به الشفَّ - يعني الربح- في الدنيا، والتمسوا الدنيا بالدنيا والآخرة بالآخرة»[٣].

□ وحدَّثَ هارون أبو محمد البربري: «أن عمر بن عبد العزيز استعمل ميمون بنَ مِهرانَ على الجزيرة على قضائها وعلى خَراجها، فكتب إليه ميمون يستعفيه وقال: كلفتني ما لا أطيق، أقضي بين الناس وأنا شيخ كبير ضعيف رقيق..، فكتب إليه عمر: إني لم أكلفْك ما يُعنِّيك، أجْبِ الطيبَ من الخراج، واقض بما استبان لك، فإذا لبِّس عليك أمرٌ فارفعه إليَّ؛ فإن الناس لو كانوا إذا كبُر عليهم أمر تركوه، لم يقم دين ولا دنيا»[٤].

□ ويغلب عليه الخوف من أن تكون قد زلَّت به القدم أيًّا كانت هذه الزلَّة. فيقول في أواخر حياته -كما يروي حبيب بن أبي مرزوق-: «وددت أن عيني ذهبت، وبقيت الأخرى أتمتَّع بها، وأني لم أل عملًا قط، قلت له: ولا لعمر بن عبد العزيز؟ قال: لا لعمر ولا لغيره»[٥].

---

(١) المصدر نفسه (٤/ ٨٤).

(٢) «تهذيب الكمال» (٢٩/ ٢١٩).

(٣) المصدر السابق، و«الحلية» (٤/ ٩٠).

(٤) «الحلية» (٤/ ٨٨)، و«السير» (٥/ ٧٤).

(٥) «الحلية» (٤/ ٨٦)، و«السير» (٥/ ٧٧).

عمر بن عبد العزيز.. وميمون بن مهران.. التأثير والتأثُّر:

□ يقول الدكتور محمد أديب الصالح: «ما أحسبني أُبعد النُّجعة إذا ذهبت – بغلبة ظن على الأقل- إلى أن ميمونًا – وهو الأثير عند عمر بن عبد العزيز برجاحة علقه وتقواه، وما أوتي – بفضل الله- من صفاء القلب ورقة الحس القائمين على قاعدة من العلم النافع والعمل-: كانت أهليته للانتفاع والتأثر بسلوك الهداة المهتدين، ومن عيونهم عمر بن عبدالعزيز، والتفاعلِ مع ما يكون عليه أولئك الذين ذاقوا حلاوة الإيمان، ومخالطةِ النهج المتميز الذي كان يطبع بنوره الأخاذ سلوك خامس الراشدين: تعمل عملها الخيِّر المؤثر في تطلعاته السامية وسلوكه، خصوصًا إذا لاحظنا صلته الحميمة به وشدة حبِّه له – يرحمه الله- وأنه كان يعلم من خبايا الزوايا في شخصيته ذات التميز الشيء الكثير.

وإذا كان الأمر كذلك: فلا عجب أن يكون ذلك كله قد عاد عليه بالكثير من الترقي في مدارج البر، وزاد في قدرته على العطاء الخيِّر في التربية والتعليم والتزكية والإسهام المجدي في تحقيق ما هو خير للفرد والجماعة في دنيا المسلمين.

وفي بعض مرويات أبي أيوب عن خامس الراشدين غَناءٌ بالقليل عن الكثير، ومقنع لمن أراد مقدمًا»[(١)].

□ قال ميمون بن مهران: «كان عمر بن عبد العزيز يُعلِّمُ العُلَماء»[(٢)].

□ وقال رحمه الله: «أتينا عمر بن عبد العزيز ونحن نرَى أنه يحتاجُ إلينا،

---

(١) «الربانيون» (ص٣٣٨).

(٢) «الحلية» (٥/ ٣٤٠).

فما كُنَّا معه إلَّا تلامذة»[١].

وفي الواقع: ثبت أن ميمون بن مهران كان من خير من تلمذ لعمر بن عبد العزيز.

ويحدث أبو أيوب أنه خرج مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة، قال: فلما نظر عمر إلى القبور بكى، ثم أقبل عليَّ فقال: يا أبا أيوب، هذه قبور آبائي من بني أمية، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم؛ أما تراهم صرعى قد حلَّت بهم المُثلات[٢]، واستحكم فيهم البلاء، وأصابت الهوامُّ في أبدانهم مقيلًا. ثم بكى حتى غُشي عليه، ثم أفاق، فقال: انطلق بنا، فوالله ما أعلم أحدًا أنعمَ ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن عذاب الله[٣].

إنه لون من ألوان التعليم والتربية بالقدوة يرتفع بمن يتلقاه إلى حيث الإحساس بحقائقَ هي من البداهة بمكان، ولكن كثيرًا من الناس عنها غافلون.

□ وها هو يروى عنه في كثير مما رُوي، أنه أُتي بسلق وأقراص، فأكل، ثم اضطجع على فراشه، وغطى وجهه بطرف ردائه، وجعل يبكي ويقول: عبد بطيء بطين! يتباطأ ويتمنى على الله منازل الصالحين[٤].

فماذا أنت قائل في هذا الصنيع الصادق من عمر، والأهلية المشرقة عند

---

(١) «السير» (٥/ ١٢٠).

(٢) المثلات: جمع مَثُلة وهي العقوبة.

(٣) «الحلية» (٥/ ٢٦٩)، و«المعرفة والتاريخ» (١/ ٥٨٥).

(٤) «المعرفة والتاريخ» (١/ ٥٨٥).

ميمون؟! وقل مثل ذلك في قول أبي أيوب: إني لعند عمر بن عبد العزيز، إذ فُتح له منطق حسن حتى رقَّ له أصحابه، قال: ففطن لرجل منهم وهو يجرف دمعته، فقطع منطقه!!.

□ قال ميمون: فقلت: امض في منطقك يا أمير المؤمنين، فإني أرجو أن يمنَّ الله بك على من سمعه منك، أو انتهى إليه، فقال بيده: إليك عني، فإن في القول فتنة، والفعل أولى بالمرء من القول»[١].

عمر بن عبد العزيز إمام هُدًى وعالم ربّاني عامل، وشهيد سعيد:

□ سيرة عمر بن عبد العزيز رحمه الله سيرةٌ مُشرِقةٌ بفضائل وكمالاتِ أولي الهمم المقرَّبين، وما كان له -وهو العظيم الفَذُّ- من حُسْنِ الأُحدوثة في التاريخ!».

□ قال الذهبي: «قد كان هذا الرَّجُل حَسَنُ الخَلْق والخُلُق، كامل العقل، حسنَ السمتِ، جيِّدَ السياسية، حريصًا على العدل بكل ممكن، وافرَ العلم، فقيهَ النفس، ظاهرَ الذكاء والفهم، وأوَّاهًا مُنيبًا، قانتًا لله، حنيفًا زاهدًا مع الخلافة، ناطقًا بالحق مع قلة المُعين، وكثرة الأمراء الظلمة الذين ملُّوه وكرهوا محاققته لهم، ونقصَه أُعطياتهم، وأخذَه كثيرًا مما في أيديهم، مما أخذوه بغير حقٍّ، فما زالوا به حتى سقَوه السُّمَّ، فحصلت له الشهادة والسعادة، وعُدَّ عند أهل العلم من الخلفاء الراشدين، والعلماء العاملين»[٢].

□ والحقُّ أن استعداد أبي أيوب – وهو من هو في التابعين علمًا وفضلًا

---

(١) المصدر السابق (١/ ٥٩٥).

(٢) «السير» (٥/ ١٢٠).

واتقاءً لله وحرصًا على وضع الأمور مواضعها - للتأثر بها كان عليه خامس الخلفاء الراشدين، من غزارة العلم، ورجاحة العقل، وعلو الهمة في الصلاح والإصلاح، ونورانية السلوك، وشدة الورع في دقيق الأمور وجليلها.. هذا الاستعداد يشهد له ما كان عليه - مع شدة حبه لعمر - من عظيم تقديره له، وبالغ وثوقه بنهجه المتميز الفريد يومذاك، واتزانه الواضح في تقويم شخصيته التي كانت تواجه ما تواجه من الأعباء الجسام. انظر إليه يختصر الحديث عن هذا الموروث العظيم في تاريخنا من حياة هذا الإمام الرباني التي جادت بالوافر من العطاء الكبير فيقول: «إن الله كان يتعاهدُ الناسَ بنبيٍّ بعد نبي، وإن الله تعاهد الناس بعمر بن عبد العزيز»(١).

حيَّهلاً بعمر بن عبد العزيز، وميمون بن مهران الذي تتلمذ له وأخذ عنه الكثير:

□ قال ميمون: «دعاني عمر، فقال: يا مهرانُ بنَ ميمون، فقلت: أو ميمون بن مهران يا أمير المؤمنين؟ قال: أو ميمون بن مهران؟ إني أوصيك بوصية فاحفظها، إياك أن تخلو بامرأة غير ذات محرم وإن حدثتك نفسك أن تعلمها القرآن»(٢).

□ وفي ظل التأثير والتأثر بين أمير المؤمنين وميمون: نجد أن هذه الوصية من عمر لميمون باتت واحدة من عدة وصايا يوصي بها ميمون إخوانَه والآخذين عنه؛ فعن معمر بن سليمان، عن فرات بن السائب، عن

---

(١) «السير» (٥/ ١٢٧)، و«الحلية» (٥/ ٣٣٩).

(٢) «الحلية» (٥/ ٢٧١ - ٢٧٢).

ميمون قال: «ثلاث لا تبلونَّ نفسك بهنَّ: لا تدخل على السلطان وإن قلت آمره بطاعة الله، ولا تُصغِيَنَّ بسَمعك إلى هوى، فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه، ولا تدخل على امرأة - يعني غير ذات محرم- ولو قلت أعلمها كتاب الله»(١).

□ وحدَّث أبو المليح سمع ميمونًا يقول: «لأن أوتمن على بيت مال أحبُّ إليَّ من أن أوتمنَ على امرأة»(٢).

تَأَثُّر وتأثير:

□ جاء في «أحكام القرآن» للإمام القرطبي: «عن الزهري: أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [الشعراء] ثم يبكي ويقول:

نهارُك يا مغرورُ سهوٌ غفلةٌ ... وليلُك نومٌ والرَّدَى لك لازمُ

فَلا أنتَ في الأيقاظ يقظانُ حازمٌ ... ولا أنتَ في النُّوَّامِ ناجٍ فسالمُ

تُسَرُّ بما يَفْنى وتفرحُ بالمنى ... كما سُرَّ باللذاتِ في النومِ حالمُ

وتسعى إلى ما سوف تكره غِبَّه ... كذلك في الدنيا تعيشُ البهائمُ(٣)

وجاء عن التلميذ العظيم ميمون التأثُّر بنفس الآيات:

□ روى أبو نعيم بسنده عن علي بن الحسن الحلبي قال: «حدثني

---

(١) «السير» (٥/ ٧٧).

(٢) «السير» (٥/ ٧٧).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن الكريم» للقرطبي (١٣/ ١٤١). والغِبُّ والمغَبَّة: العاقبة.

عمرو بن ميمون بن مِهران قال: خرجت بأبي أقوده في بعض سكك البصرة، فمررت بجدول، فلم يستطع الشيخ يتخطاه، فاضطجعت له فمرَّ على ظهري، ثم قمت فأخذت بيده، ثم دَفَعْنا إلى منزل الحسن - يعني البصريَّ- فطرقت الباب، فخرجت إلينا جارية سداسية، فقالت: من هذا؟ قلت: هذا ميمون بن مِهران، أراد لقاء الحسن، فقالت: كاتبُ عمر ابن عبد العزيز؟ قلت لها: نعم! قالت: يا شقي ما بقاؤك إلى هذا الزمان السوء! قال: فبكى الشيخ، فسمع الحسن بكاءه، فخرج إليه، فاعتنقا، ثم دخلا. فقال ميمون: يا أبا سعيد، قد أنست من قلبي غلظة فاستلن لي منه؛ فقرأ الحسن: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [الشعراء].

قال: فسقط الشيخ، فرأيته يفحص برجله كما تفحص الشاة المذبوحة، فأقام طويلًا ثم أفاق، فجاءت الجارية فقالت: قد أتعبتم الشيخ قوموا تفرقوا؛ فأخذت بيد أبي، فخرجت به، ثم قلت: يا أبتاه! هذا الحسن، قد كنت أحسَب أنه أكبر من هذا! قال: فوكزني في صدري وكزة ثم قال: يا بنيَّ، لقد قرأ علينا آيةً لو فهمتها بقلبك، لأبقى لها فيك كلومًا، وفي رواية: لألفي، أو لصار فيه -أي في القلب- كلوم [1].

□ وروى أن ميمونًا لقي الحسن في الطواف، وكان يتمنى لقاءه. فقال له: «عظني، فلم يزده على تلاوة هذه الآيات، فقال ميمون: لقد وعظت فأبلغت».

---

(١) «الحلية» (٤/ ٨٢- ٨٣)، و«تهذيب الكمال» للمزي (٢٩/ ٢٢٤- ٢٢٥).

إخفاء العمل:

□ عن ميمون بن مهران قال: قال لي عمر بن عبد العزيز: «حدثني، فحدثته حديثًا بكى منه بكاءً شديدًا، فقلت: يا أمير المؤمنين، لو علمت أنك تبكي هذا البكاء لحدثتك حديثًا ألين من هذا. قال: يا ميمون، إنا نأكل هذه الشجرة العدس، وهي ما علمتَ مُرِقَّة للقلب، مغزرة للدمع، مذلة للجسد»[(١)].

□ وقد ذكرنا وقائع من هذه البابة صدرت عن كبار أهل العلم والعُبَّاد في «علو الهمة في تحرِّي الإخلاص».

□ عن ميمون قال: قلتُ لعمر ليلةً: «يا أمير المؤمنين، ما بقاؤك على ما أرى؟ أما في أول الليل فأنت في حاجات الناس، وأما وسطَ الليل فأنت مع جلسائك، وأما آخرَ الليل فالله أعلم ما تصير إليه! قال: «فضرب على كتفي وقال: ويحك يا ميمون إني وجدت لقيا الرجال تلقيحًا لألبابهم»[(٢)].

إنه الدرس البليغ الذي يلقيه المسؤول الأول في الأمة، وأبو أيوب وضرباؤه أولى من يفيد من هذا الدرس الذي من ثمراته الانتفاع بآراء أولي النهى الذين أتيحت لهم حرية الكلمة في ضوء ما هم عليه من العلم المقترن بالخشية، والحرص على مصلحة الجماعة».

مع ميمون بن مهران:

□ قال رحمه الله: «لا يكون الرجل من المتقين حتى يكون لنفسه أشدَّ محاسبة من الشريك لشريكه، وحتى يعلم من أين ملبسُه ومطعمُه ومشربُه

---

(١) «المعرفة والتاريخ» (١/ ٦٠٠)، و«السير» (٥/ ١٣٧).

(٢) «المعرفة والتاريخ» (١/ ٦١٩).

أمن حلٍّ ذلك أم من حرام؟». وفي رواية: «حتى يحاسبَ نفسَه أشدَّ من محاسبته شريكه»[(١)].

□ وقال ميمون رحمه الله: «لا يزالنَّ أحدكم حديثَ عهد بعمل صالح، فإنه أهون عليه حين ينزل به الموت أن يتذكَّر عملًا صالحًا قد قدَّمه»[(٢)].

□ وقال: «لا يسلم للرجل الحلال حتى يجعلَ بينه وبين الحرامِ حاجزًا من الحلال»[(٣)].

□ وحدَّث أبو المليح أن رجلًا قال لميمون: «يا أبا أيوبَ، ما يزال الناس بخيرٍ ما أبقاك الله لهم، فقال له ميمون: أقبل على شأنك أيها الرَّجُل، فما يزال الناس بخيرٍ ما اتقوا ربهم». وفي رواية: «لا يزال الناس بخير ما اتقوا الله»[(٤)].

□ وقال: «لا خير في الدنيا إلَّا لأحدٍ رجليْن: رجل تائب، ورجل يعمل في الدرجات»[(٥)].

□ وقال: «يا معشر الشباب، قوَّتَكم! اجعلوها في شبابكم ونشاطكم في طاعة الله. يا معشر الشيوخ حتى متى؟!»[(٦)].

□ وقال رحمه الله: «من كان يريد أن يعلم منزلته عند الله عز وجل، فلينظر في

---

(١) «الحلية» (٤/ ٨٩)، و«تهذيب الكمال» (٢٩/ ٢١٨- ٢١٩)، و«صفة الصفوة» (٤/ ١٦٥).

(٢) «الحلية» (٤/ ٨٤).

(٣) «الحلية» (٤/ ٨٤).

(٤) «تهذيب الكمال» (٢٩/ ٢٢١)، «والحلية» (٤/ ٩٠)، و«السير» (٥/ ٧٥).

(٥) «صفة الصفوة» (٤/ ١٦٥).

(٦) «تهذيب الكمال» (٢٩/ ٢١٩)، و«الحلية» (٤/ ٨٧).

عمله، فإنه قادمٌ على عمله كائنًا ما كان»[١].

□ وقال: «من أحبَّ أن يعلم ما له عند الله، فليعلم ما لله عنده، فإنه قادمٌ على ما قدّم لا محالة»[٢].

□ وقال أبان بن أبي راشد: «كنتُ إذا أردت الصائفة أتيت ميمون بن مِهران أودعه، فما يزيدني على كلمتين: اتق الله، ولا يغيِّرك طمعٌ ولا غضب»[٣].

□ وقال ميمون رحمه الله: «ما من صَدَقةٍ أفضل من كلمة حق عند إمامٍ جائر»[٤].

□ وقال: «الصبر صبران، والذِّكر ذكران: فذكر الله عز وجل عندما تشرف عليه من معاصيه، والصبر عند المصيبة حسن، وأفضل منه أن تصبر نفسك على ما تكره من طاعة الله عز وجل، وإن ثقل عليك»[٥].

□ وقال ميمون: «إن أعمالكم قليلة، فأخلِصوا هذا القليل»[٦].

□ وعن ميمون قال: «ما أقلَّ أكْياسَ الناس، لا يبصر الرجل أمره حتى ينظر إلى الناس وإلى ما أُمروا به، وإلى ما أكبُّوا عليه من أمور الدنيا، فيقولَ: ما هؤلاء إلَّا أمثال الأباعر التي لا همَّ لها إلَّا ما تجعل في أجوافها، حتى إذا أبصر غفلتهم نظر إلى نفسه فقال: والله إني لأراني من شرهم بعيرًا

---

(١) «الحلية» (٤/ ٨٤).

(٢) «الحلية» (٤/ ٩١).

(٣) «الحلية» (٤/ ٨٥).

(٤) «الحلية» (٤/ ٨٩).

(٥) «صفة الصفوة» (٤/ ١٦٦).

(٦) «الحلية» (٤/ ٩٢).

واحدًا»[١].

□ يقول يونس بن عبيد: «كتبت إلى ميمون بن مِهران بعد طاعون كان ببلادهم أسأله عن أهله، فكتب إليَّ: «بلغني كتابك، وإنه مات من أهلي وخاصتي سبعة عشر إنسانًا، وإني أكره البلاء إذا أقبل، فإذا أدبر لم يسرَّني أنه لم يكن»[٢].

وغير خافٍ ما تشرق به هذه الكلمات من تمام الرضا بقضاء الله عَزَّ وَجَلَّ المقترنِ بالوضوح وعدم التكلُّف!!.

□ وفي رواية: أنه أتبع ذلك بقوله خطابًا ليونس: «أما أنتَ فعليك بكتاب الله، فإن الناس قد بَهؤوا به- قال يونس: يعني نسوه واختاروا عليه الأحاديث، أحاديث الرجل – وإياكَ والجدال والمراء في الدين، لا تمارينَّ عالمًا ولا جاهلًا، فإنك إن ماريت الجاهل خشَّن صدرَك ولم يطعك، وإن ماريت العالم خزن عنك علمه، ولم يبال ما صنعت»[٣].

ومدارس الربانيين ريَّانة ما دام الخير في الأمة:

نعم مدارس الربانيين ريَّانة ما دام الخير وبقي في الأمة.. وكلها ترفع شعار «اقتضاء العلم العمل».. وأن الرَّبانية قدوة وعمل.

□ قال عبد الله بن وهب: «ما نقلنا من أدب مالك أكثر مما تعلَّمنا من علمه»[٤].

---

(١) «الحلية» (٤/ ٨٩).

(٢) «السير» (٥/ ٧٥).

(٣) «تهذيب الكمال» (٢٩/ ٢٢٢).

(٤) انظر: ترجمة مالك في «السير» (٨/ ٤٨- ١٣٥).

□ وقال الحسن بن إسماعيل: «سمعت أبي يقول: كان يجتمع في مجلس أحمد زهاءَ خمسةِ آلاف أو يزيدون، أقل من خمسمئة يكتبون، والباقون يتعلَّمون منه حُسْن الأدب وحسن السَّمْت»(١).

□ وقال أبو بكر بن المُطَّوِّعي: «اختلفت إلى أبي عبد الله ثنتي عشرة سنة، وهو يقرأ «المسند» على أولاده، فما كتبتُ عنه حديثًا واحدًا، إنما كنتُ أنظر إلى هدْيه وأخلاقه»(٢).

الربَّانية.. القُدْوة.. القُدْوة:

القُدوات المباركة أهلُ الهمم العَلِيَّة والقلوب النقيّة والعقول القويمة والنفوس الشفافة الرَّقراقة.

* قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة].

□ قال ابن عُيَيْنة: «لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوسًا».

□ وقال ابن تيمية: «إنما تُنال الإمامة في الدين بالصبر واليقين».

* وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان].

□ وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ثم قال: «من أراد أن يكون من أهل هذه الآية فليُؤَدِّ شرطها».

□ قال أخي الحبيب الشيخ مشهور حسن آل سلمان: «والقُدوات

---

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص٢٧١).
(٢) «السير» (١١/٣١٦).

ينبغي أن تُراعي التروكَ قبل الأفعال».

□ وقال سُئل الإمام أحمد رحمه الله: «من نسألُ بعدك؟ فقال: عبدالوهَّاب الوَرَّاق. فقيل له: إنه ضيِّق العلم. فقال: إنه رجل صالح، مِثْلُهُ يُوَفَّقُ لإصابة الحق»(١).

□ وقال إسماعيل شدَّاد: «قال لنا سفيان بن عُيَيْنة: ما فَعَل ذلك الحَبْر الذي فيكم ببغداد؟ قُلنا: من هو؟! قال: أبو محفوظ - معروف الكَرْخِيُّ. قُلْنا: بخيرٍ. قال: لا يزالُ أهلُ تلك المدينة بخير ما بقي فيهم»(٢).

□ وقال أبو موسى الأشعري: «لَمقعَدٌ كنتُ أقعُدُه مع عبد الله بن مسعود أحبُّ إليَّ مِن عَمِل سَنَةٍ في نفسي».

□ قال العلامة ابن مُفلِح مُعلِّقًا: «وهذا إنما قاله لِما يحصُل له من علمِه وهَدْيه وسَمْته»(٣).

□ وقال حمدان البَلْخي: «ما رأيتُ أحدًا إذا رُؤِي ذُكر الله تعالى إلَّا القَعْنَبِيُّ رحمه الله، فإنه كان إذا مَرَّ بمجلس يقولون: «لا إله إلَّا الله»، وقيل: كان يُسمَّى «الراهِبَ» لعبادته وفضله»(٤).

□ وقال جعفر بن سليمان: «كنتُ أذا رأيتُ من قلبي قسوةً، نظرتُ إلى وجه محمد بن واسع، كان وجهه كأنه وجه ثَكْلى»(٥).

□ قال أبو حازم رحمه الله لولده: «يا بني، لا تقتد بمن لا يخاف الله بظهر

(١) «الآداب الشرعية» (٢/ ١٣٦).

(٢) «السير» (٩/ ٣٤٠).

(٣) «الآداب الشرعية» (٢/ ١٣٣).

(٤) «السير» (١٠/ ٢٦٢، ٢٦٣).

(٥) «الحلية» - ترجمة محمد بن واسع.

الغيب، ولا يَعِفُّ عن العيب، ولا يصلحُ عند الشَّيْب»[١].

□ وقال الإمام مالك: «إذا لم يكن للإنسان في نفسه خيرٌ، لم يكن للناس فيه خير»[٢].

□ وقال سيد الخائفين والمُرَبِّين الفضيل بن عياض: «أنت لا ترى خائفًا، فكيف تخاف؟!»[٣].

□ وقال سهل بن عبد الله التُّستِري رحمه الله: «مَن لم تُهَذِّبْك رؤيته، فاعلم أنه غيرُ مُهَذَّب»[٤].

□ ولله در عثمان بن عفان رضي الله عنه حيث يقول: «أنتم إلى إمامٍ فعّالٍ أحوجُ منكم إلى إمامٍ قوّال».

□ وقال عون بن عبد الله: «من اقتدى بمَنْ قبله اقتدى به مَن بعدَه»[٥].

□ وقال الجُنيد بن محمد: «عِلْمُنا هذا مضبوط بالكتاب والسُّنَّة، مَنْ لم يحفظ الكتاب، ويكتُب الحديث ولم يتفقَّه، لا يُقتدَى به»[٦].

□ وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: «ترى الرَّجُل وما يَلْحَنُ حَرْفًا، وعمله كله لَحْنٌ»[٧].

---

(١) «تهذيب الحلية» (١/ ٥١٩).

(٢) «الحلية» (٦/ ٣٥٠).

(٣) المصدر السابق (٨/ ١١٣).

(٤) «شعب الإيمان» (١٢/ ٦٧).

(٥) «الحلية» (٤/ ٢٦٠).

(٦) «السير» (١٤/ ٦٧).

(٧) «تهذيب الحلية» (١/ ٤٢٩).

□ وقال الإمام الأوزاعي رحمه الله: «كنا نضحكُ ونمزحُ، فلمَّا صِرْنا أئمة يُقتدى بنا، خشيتُ ألَّا يَسعَنا التبسُّمُ»[١].

□ وقال أبو عبد الرحمن الأعرج: «كان إبراهيم بن أدهم يحدِّثنا ويُضاحِكنا، فإن رأى غريبًا قال: هذا جاسوس»[٢].

□ قال الإمام ابن حبَّان: «إني لأكرهُ استعمال المُزاح عند العوام»[٣].

□ وقال محمد بن الطُّفَيْل رحمه الله: «رأى الفضيلُ بن عياضُ قومًا من أصحاب الحديث يمزَحُون ويضحكون فناداهم: مَهْلًا يا ورثة الأنبياء مهلًا! إنكم أئمة يُقتدى بكم»[٤].

□ ورأى مالك بن دينار رَجُلًا يُسيء الصلاة، فقال: «ما أرحمني بعياله!»، فقيل له: يا أبا يحيى، يسيء الصلاة وترحم عياله؟! فقال: إنه كبيرهم، ومنه يتعلَّمون»[٥].

□ لا بُدَّ من علم وعمل.. و«من لم تكن له بدايةٌ مُحرِقة لم تكن له نهاية مُشرِقة».

عَرَفت فالزم.. علِمْتَ فاعمل:

• عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه. وعن علمه ماذا عمل**

---

(١) «السير» (٧/ ١٣٢).

(٢) «روضة العقلاء» (ص١٣١).

(٣) «روضة العقلاء» (ص١٣١).

(٤) «الحلية» (٨/ ١٠٣).

(٥) «تهذيب الحلية» (١/ ٤٢٩).

فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»[١].

• قال رسول الله ﷺ: **«مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه»[٢].**

□ قال ابن مسعود رضي الله عنه: «تعلموا تعلموا، فإذا علمتم فاعملوا»[٣].

□ وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «مثل علم لا يعمل به كمثل كنز لا ينفق منه في سبيل الله عز وجل»[٤].

• وعن عيسى بن مريم عليه السلام: «إلى متى تصفون الطريق للدالجين وأنتم مقيمون مع المتحيرين، إنما يبتغى من العلم القليل ومن العمل الكثير»[٥].

□ وعن أبي الدرداء رضي الله عنه: «إنما أخاف أن يكون أول ما يسألني عنه ربي أن يقول: قد علمت، فما عملت فيما علمت»[٦].

□ قال ابن المنكدر: «العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلَّا ارتحل».

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه الدارمي، والترمذي وقال: حسن صحيح، وقال الألباني: إسناده صحيح، انظر: «اقتضاء العلم العمل» (ص١٦، ١٧).

(٢) إسناده جيد: رواه الطبراني، والضياء المقدسي في «المختارة» عن جندب، انظر: «تخريج الشيخ الألباني في «اقتضاء العلم» (ص٤٩)، و«قيام رمضان» (ص٥).

(٣) إسناد موقوف حسن: انظر: «اقتضاء العلم» (ص٢٢، ٢٣)، وتخريج تحقيق الشيخ الألباني.

(٤) قال الألباني: إسناده موقوف لا بأس به، انظر: «الاقتضاء» وتخريجه وتحقيقه (ص٢٤).

(٥) «اقتضاء العلم العمل».

(٦) قال الألباني: «موقوف حسن الإسناد، انظر: «الإقتضاء» (ص٤١).

□ قال الحسن: «إياك والتسويف، فإنك بيومك ولست بغدك، فإن يكن غد لك فكن في غدٍ كما كنت في اليوم، وإن لم يكن لك غد لم تندم على ما فرطت في اليوم».

□ قال داود الطائي: «يا أخي: إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهي ذلك إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدم في كل يوم مرحلة زادًا لما بين يديها فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب، والأمر أعجل من ذلك فتزوّد لنفسك، واقض ما أنت قاض فكأنك بالأمر قد بغتك».

✍ **أخي**: «إن الخطأ الأكبر أن تنظم الحياة من حولك وتترك الفوضى في قلبك»[1].

□ قال عبد الله بن إدريس: «مهما فاتك من العلم فلا يفوتك العمل».

✍ **أخي**: ما أحسن ما قاله أبو عبد الله الروذباري: «العلم موقوف على العمل، والعمل موقوف على الإخلاص، والإخلاص لله يورث الفهم عن الله عَزَّ وَجَلَّ».

✍ **أخي**: انظر إلى الكلام الطيب يهديكه مالك بن دينار: إن العبد إذا طلب العلم للعمل كسره علمه، وإذا طلبه لغير ذلك ازداد به فجورًا أو فخرًا».

□ قال سهل بن عبد الله: «العلم كله دنيا، والآخرة منه العمل به».

□ قال الجنيد: «متى أردت أن تُشَرَّفَ بالعلم، وتنسب إليه، وتكون

---

(١) «الرقائق» لمحمد أحمد الراشد (ص٤٥)، وهذا القول لمصطفى صادق الرافعي رحمه الله.

من أهله قبل أن تُعطِيَ العلم ما له عليك احتجب عنك نوره وبقي عليك رسمه وظهوره، ذلك العلم عليك لا لك، وذلك أن العلم يشير إلى استعماله، فإذا لم تستعمل العلم في مراتبه رحلت بركاته».

أتـــرى يرجـــع لي دهـــر مـــضى ... أتـــرى ينفعنـــي قـــولي تـــرى

ويـــك يـــا عـــينُ أعينـــي قلقـــي ... إنْ توانيـــت فـــلا ذقـــت الكـــرى

أخي:

ولا تُرج فعل الخير يومًا إلى غد ... لعـــلَّ غـــدًا يـــأتي وأنـــت فقيـــد

فيومـــك أن اعتبتـــه عـــاد نفعـــه ... عليك، وماضي الأمس ليس يعود

إخواني: أنذرتكم «سوف»، فإنها جند من جنود إبليس..

إلى كـــم أقـــول ولا أفعـــل ... وكـــم ذا أحـــوم ولا أنـــزل

وأزجـــر عينـــي فـــلا ترعـــوي ... وأنـــصح نفـــسي فـــلا تقبـــل

وكـــم ذا تعلَّـــل لي ويحهـــا ... بعـــلّ وســـوف وكـــم تمطـــل

وكـــم ذا أؤمـــل طـــول البقـــا ... وأغفـــل والمـــوت لا يغفـــل

أخي: أعربنا في القول ولحنّا في العلم.

أخي: إن الواو والراء والدال ولا تشم منها رائحة الورد.

أخي: كن بالخير موصوفًا ولا تكن للخير وصّافًا.

وبعد يا داعية الإسلام: بادر يا أخي فإنك مبادر بك، وأسرع فإن مسروع بك، وَجِدَّ فإن الأمر جد، تيقظ من رقدتك وانتبه من غفلتك.

وا حسرتا، أأكون كالقوس، رفعت السهم فمرّ، ولم تبرح، أأصبر

كالإبرة تكسو غيرها وهي عريانة، أأشبه حال الشمعة أضاءت غيرها باحتراق نفسها؟!

أعوذ بك يا إلهي أن تجعل حظي لفظي.

وا آسفي أأصف وأصفِّي؟ ويشرب غيري.

فعندي زفير ما ترقَّى إلى الحشى وعندي دموع ما بلغن المآقيا

✍ **أخي:** اجلس إلى من تكلمك صفته، ولا تجلس إلى من يكلمك لسانه..

ما لي - وقَدْ فَرطت في أمري - سوى رب إلى نفحاته أتعرضُ

ما كان من عذر لتقصيري سوى نفس تقاد إلى الجنان فتعرض

نامت وأهل الجدِّ قُوَّامٌ، ولمْ تنفض غبار النوم فيها يُنْفَضُ

لم تَحْذُ حَذْوَ الصادقين وظهرها من زحمة الأوزار أوشك يُنقَضُ

قعدت ولم تبذل كما بذلوا، ولم تسمع دعاء الله: «مَنْ ذا يُقرضُ؟»

عبد بضاعته الكلام جهاده صحف تسطر، أو قريض يُقرضُ

يدعو الورى للصالحات وسِفْرُهُ في صالح الأعمال خِلْوٌ أبيض

ويحب درب الصالحين وإن أكُنْ قَصَّرتُ فيها طولوه وعرضوا [(١)]

□ أو كما قال أبو سليمان الداراني: «الأخ من يعظك بحاله قبل أن يعظك بمقاله».

---

(١) «مناجاة» للقرضاوي من ديوان «نفحات ولفحات» للقرضاوي (ص٨٨، ٨٩).



✍ **أخي:**

إنما يصلح التأديب بالسوط من صحيح البدن ثابت القلب قوي الذراعين، فيؤلم ضربه فيردع، فأما من هو سقيم البدن لا قوة له، فماذا ينفع تأديبه بالضرب؟!

كان الحسن إذا خرج إلى الناس كأنه رجل عاين الآخرة، ثم جاء يخبر عنها. وكانوا إذا خرجوا من عنده خرجوا وهم لا يعدون الدنيا شيئًا.

□ قال بعض السلف: «إن العالم إذا لم يرد بموعظته وجه الله زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا».

وصفت التقى حتى كأني ذو تقى ... وريح الخطايا من ثيابي تعبق

العالم الذي لا يعمل بعلمه كمثل المصباح يضيء للناس ويحرق نفسه.

□ قال أبو العتاهية:

وَبَّخْت غيرك بالعمى فأفدته ... بصرًا وأنت محسن لعماك

وفتيلة المصباح تحرق نفسها ... وتضئ للأعشى وأنت كذاك

✍ **أخي:** قال الحسن: «اليوم ضيفك، والضيف مرتحل يحمدك، أو يذمك وكذلكم ليلتك».

✍ **أخي:** إذا ذكرت حالنا وحال سلفنا يظهر لك قول الشاعر:

وكنا نستطب إذا مرضنا ... فصار هلاكنا بيد الطبيب[1]

يا إخوتي ليس لي منكم سوى طلب ... هل يخذل الأخ من في الله آخاه؟

---

(١) انظر: «لطائف المعارف» من (ص١٣).

إذا قـرأتم وصـليتم صـلاتكم وقـام قـائمكم لله ناجـاه
وهزت الأرض بالتسبيح سجدتُه وبللـت وجهـه بالـدمع عينـاه
وراح يـدعو بـما يحلـو لـه طلبًـا للحـسنيينِ: بـدنياه وأخـراه
فـلا تخلـو أخـاكم مـن دعـائكم بظهر غيـب وسـتر الليـل أرخـاه
ولتـشفعوا لي إلى ربي وربكـم وادعـوا «لـسيد»: لا تتركـه ربَّـاه
ادعـوه يمنحنـي عفـوًا وعافيـة فلـيس أكـرم منـه في عطايـاه
ادعـوه يقبلنـي في المخلـصين لـه مـن اسـتقاموا وقـالوا: ربنـا الله
وأنـتم القـوم لا يـشقى جليـسكمو ومن شفعتم لـه يكرمـه مـولاه[1]

▫ قال ابن الجوزي في «صيد الخاطر»: «لقد تاب على يديَّ في مجالس الذكر أكثر من مِئتي ألف، وأسلم على يديّ أكثر من مِئتي نفس، وكم سالت عين متجبر بوعظي ولم تكن تسيل، ويحق لِمَنْ تلمح هذا الإنعام أن يرجو التمام، وربما لاحت أسباب الخوف بنظري إلى تقصيري وزللي، ولقد جلست يومًا فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف، ما منهم إلَّا قد رقّ قلبه أو دمعت عينه، فقلت لنفسي: كيف بك إنْ نَجَوْا وهلكت فصحت بلسان وجدي:

«إلهي: وسيدي إنْ قضيت عليّ بالعذاب غدًا فلا تعلمهم بعذابي صيانه لكرمك لا لأجلي، لئلا يقولوا: عذَّب مَنْ دلَّ عليه.

إلهي: قد قيل لنبيك ﷺ: اقتل أبيّ المنافق فقال: «**لا يتحدثُ الناسُ أن**

---

(١) قصيدة «شوق وحنين» من ديوان «نفحات ولفحات» للقرضاوي (ص١٠٣).

محمدًا يقتل أصحابه».

إلهي: فاحفظ حسن عقائدهم فيّ بكرمك أنْ تعلمهم بعذاب الدليل عليك.. حاشاكَ والله يا رب من تكدير الصافي.

زوّر رجل شفاعة إلى بعض الملوك على لسان بعض أكابر الدولة فاطلع المزور عليه على الحال فسعى عند الملك في قضاء تلك الحاجة واجتهد حتى قُضيت، ثم قال للمزور عليه: ما كنَّا نخيب مَنْ علق أمله بنا ورجا النفع من جهتنا.

إلهي: فأنت أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، فلا تخيب من عَلّق أمله ورجاءه بك وانتسب إليك ودعا عبادك إلى بابك، وإن كان متطفلًا على كرمك، ولم يكن أهلًا للسمسرة بينك وبين عبادك، ولكنه طمع في سعة جودك وكرمك فأنت أهل الجود والكرم، وربما استحيا الكريم من رَدّ من تطفّل على سماط كرمه»اهـ.

لئن لم يعظ العاصين من هو مذنب ... فمن يعظ العاصين بعد محمد

يا ضيعة العمر إن نجا السامع وهلك المسموع، يا خيبة المسعى إن وصل التابع وانقطع المتبوع [(١)].

اللَّهم لا تجعلنا مِمَّن يدعو إليك بالأبدان ويهرب منك بالقلوب.. يا أكرم الأشياء، علينا لا تجعلنا أهون الأشياء عندك.

---

(١) «تحفة الواعظ في الخطب والمواعظ» للشيخ أحمد فريد.

مدارس الربانيين:

مدرسة الخوف والورع والزهد: مدرسة الفضيل بن عياض الفضيل.. علي بن الفُضَيل.. بشر بن الحارث الحافي.. مُخة بنت الحارث:

□ هذه مدرسة إمامها شيخ الإسلام الفضيل بن عياض أخوف أهل الأرض في زمانه، الذي قال فيه عبد الله بن المبارك شيخ الإسلام: «إذا مات الفضيل ارتفع الخوف من الأرض».

□ وقال أيضًا فيه: «كنتُ كلما قسى قلبي نظرت إلى وجه الفضيل، فيجدِّد لي الحزن فأمقت نفسي».

□ والفضيل بن عياض إمام في الزهد والورع، يبحث عن الحلال ويُدقِّق فيه، لا يُدخل جوفه إلَّا الحلال ولو استفَّ التراب.

□ وظهر أثر تربية الفضيل وخوفه في ابنه علي بن الفضيل وهو سيد من سادات أولياء هذه الأمة.. يُضرب به المثل في الخوف، بل قدّمه بعض الأئمة - في الخوف - على والده، والذي مات من جرّاء آيات سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ إلى آخر الآيات، ظل يرددها حتى خرجت روحه.. وبلغ علي رحمه الله مبلغًا كبيرًا في الورع.

□ وعلى الدرب سار بشر بن الحارث وأهل بيته وأخواته.. دققوا في مسائل الورع حتى قال فيهم إمام أهل السنة أحمد بن حنبل: «من بيتهم خرج الورع».

□ وقال: «أتسألوني عن الزهد وفيكم بشر؟!».

وإبراهيم بن أدهم رباني كبير القدر:

□ إمام عظيم لا يُدرَكُ شأوه.. وربَّاني كبير صاحب سرائر يحترز الأئمة كسفيان الثوري من الكلام عنده وفي حضرته.. عظيم القدر في تربية الأئمة على الإخلاص ودقائقه وأسراره.. ويُضرب به المثل في الخوف من الشهرة، وتحرّي الحلال بدرجة كبيرة لا تخطر ببالنا.

فـاتني أن أرى الـدِّيار بطـرفي ... فلَعِـلِّي أَرَى الـديار بـسمعي

□ قال حمدون القصّار: «من نظر في سِيَر السَّلَف، عَرَف تقصيره وتخلُّفه عن درجات الرِّجال»[1].

□ وقال بشر بن الحارث: «كم من أُناس موتَى تحيا القلوب بذكرهم، وأُناسٍ أحياء تموت القلوب بذكرهم».

□ وقال ابن الجوزي: «وينبغي أن يُعلَم أن الطَّبْعَ لِصٌّ، فإذا تُرِك مع أهل هذا الزمان، سَرَق طبائِعهم، فصار مثلهم، فإذا نظر لسيَر القدماء زاحمهم، وتأدَّب بأخلاقهم»[2].

□ وقال أيضًا عن السلف: «من نظر في سِيَرهم تأدَّب».

□ وقال العلَّامة الكبير الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله: «فليجعل المسلم كلمات السلف وسيرتهم مِرْآةً له، ينظر من خلالها في القُدوة والاقتداء بالشرع المطهر».

□ وقال الشيخ عائض القرني: «أُوصيك بمطالعة سِيَرِ الصالحين -

---

(١) «الاعتصام» للشاطبي (١/ ١٥٩) تحقيق الشيخ مشهور حسن.

(٢) «المنتقى النفيس من تلبيس إبليس» (ص١٣٠).

من الصحابة والتابعين والعُبَّاد والزُهَّاد من أهل السُّنَّة- والوقوف على أخبارهم وقراءة أحوالهم، فإنها تشحَذُ هِمَّتَك، وتقدَحُ في القلب زِنادَ الاقتداء بهم، أو على الأَقَلِّ تخجَلُ من نفسك، وتستحي من ربك إذا نظرت إلى حالتهم وحالتك، فعليك بتدبُّر أخبارهم، وعش معهم في زُهدهم وورعهم وعبادتهم وخوفهم من ربهم وتواضعهم وحُسنِ خُلُقهم وصبرهم».

أما أبناء عصرك، فهم مِثْلُك، قلَّ أن تَجِدَ منهم الزاهدَ العابدَ الورعَ المتعَفِّفَ، ولله في خَلْقِه شؤون».

والحب الإلهي له مدارس ربَّانية ملأت الدنيا حُبًّا للجميل الودود:

السَّرِيّ السقطي والجنيد، وأبو سليمان الداراني وأحمد بن أبي الحواري وسمنون المحب، ويحيى بن معاذ الرازي.. وذو النون المصري ورابعة:

سادات علّموا الناس كيف يُحبُّون ذي الجلال، وأنبتوا الأرض حدائق حُبٍّ لا ينتهي زرعها، بل هو ريَّان موصول ما بقيت الدنيا، وأمطروا سماء الدنيا كلمات طاهرات أنبتت من كل زوجٍ بهيج، وسقت أنهار الدنيا – أمواج شوق للجميل الجليل.. لا ينسى الناس ذكرهم ما بقيت الدنيا، كيف لا وهم الذين تُدمي القلوب كلماتهم في محبة ربهم.. ملؤوا القلوب من عذب كلماتهم ومناجاتهم حُبًّا طاهرًا، وهدهدوا الأرواح شوقًا إلى بلاد الأفراح..

ملأ الضلوعَ وفاض عن جَنَباتِها ... قلبٌ إذا ذُكِرَ الحبيب يذوبُ

ما زال يخفق ضارِبًا بجناحه ... يا ليت شعري هل تطيرُ قلوبُ

وعبد القادر الجيلاني إمامٌ كبير ومُرَبٍّ شهير.. وما أدراك ما الجيلاني؟!!

✍ هو الشيخ عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جنكي دوست الجيلاني نسبة إلى جيل، وهي بلاد متفرِّقة من وراء طبرستان، ويُقال لها: «جيلان وكيلان».

حياته العلمية[1]:

بدأ الشيخ حياته العلمية بعد وصوله إلى بغداد سنة (٤٨٨هـ).

وبغداد يومئذٍ من أعظم مراكز العلم في ديار الإسلام، وكان فيها الصفوة من العلماء في كل فن.

وأخذ يسأل عن مدارس الفقهاء وحلقات المحدثين، وكان يقضي وقته متعلمًا في حلقات العلم.

واستمرت حياة التلقي عنده ما يزيد عن ثلاثين عامًا، أتقن فيها كثيرًا من العلوم والفنون، بما في ذلك علم السلوك والتصوف.

□ قال ابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة»: «كان يتكلم في ثلاثة عشر علمًا، كانوا يقرؤون عليه درسًا في التفسير، ودرسًا في الحديث، ودرسًا في المذهب، وكان يفتي على مذهبي الشافعي وأحمد بن حنبل، ودرسًا في الخلاف، ودرسًا في الأصول وفي النحو، وكان يقرأ بالقراءات بعد الظهر»[2].

وكان يحضر دروسه كبار العلماء، وتوجد في درسه مئات المحابر،

---

(١) انظر: «مواعظ الشيخ عبد القادر الجيلاني» لصالح أحمد الشامي (ص٨) وما بعدها- طبع المكتب الإسلامي.

(٢) «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» للندوي (ص٢٥٨).

الأمر الذي يذكرنا بدروس الإمام الغزالي.

وإن سعة علمه كانت من البواعث الرئيسة لكبار العلماء على حضور دروسه.

□ قال الحافظ أبو العباس البندنيجي: «حضرت أنا والشيخ جمال الدين ابن الجوزي - رحمه الله تعالى - مجلس سيدنا الشيخ عبد القادر رحمة الله عليه.. فقرأ القارئ آية، فذكر الشيخ في تفسيرها وجهًا.

فقلت للشيخ جمال الدين: تعلم هذا الوجه؟ قال: نعم.

ثم ذكر وجهًا آخر، فقلت له: أتعلم هذا الوجه؟ قال: نعم.

فذكر فيها الشيخ أحد عشر وجهًا، وأنا أقول له: أتعلم هذا الوجه؟ وهو يقول: نعم.

ثم ذكر الشيخ فيها وجهًا آخر. فقلت له: أتعلم هذا الوجه؟ قال: لا.

حتى ذكر فيها كمال الأربعين وجهًا، يعزو كل وجه إلى قائله، والشيخ جمال الدين يقول: لا أعرف هذا الوجه، واشتد عجبه من سعة علم الشيخ رضي الله عنه»[١].

□ يقول الإمام النووي -رحمه الله تعالى-: «كان الشيخ عبد القادر شيخ السادة الشافعية والسادة الحنابلة ببغداد، وانتهت إليه رياسة العلم في وقته، وتتلمذ له خلق لا يحصون عددًا، وانعقد عليه إجماع المشايخ والعلماء رضي الله عنه بالتبجيل والإعظام والرجوع إلى قوله، والمصير إلى

---

(١) «الشيخ عبد القادر الجيلاني» للدكتور عبد الرزاق الكيلاني (ص١٧٠)، نقلًا عن «قلائد الجواهر».

حكمه»(١).

مجالس وعظه وتدريسه:

□ كان شيخه القاضي أبو سعيد المخرِّمي الحنبلي قد بنى لنفسه مدرسة بباب الأزج في بغداد، وكان يدرس فيها الفقه على المذهب الحنبلي. وقد انقطع إلى الشيخ عبد القادر في سنوات دراسته الأخيرة من سنة (٥٢١هـ) وكان يساعد شيخه في التدريس إلى أن توفي الشيخ رحمه الله.

ولما توفي الشيخ أبو سعيد لم يجد تلاميذه أفضل من الشيخ عبد القادر يفوضون مدرسته إليه، فجلس فيها للتدريس والفتوى والوعظ والإرشاد، ولكنها ضاقت بالناس فخرج إلى المصلى، خارج سور بغداد ليلقي دروسه هناك.

وقد اشتهر الشيخ بمجالس وعظه التي كان يقصدها الآلاف، وقد كان له التأثير الكبير في إصلاح المجتمع، فقد أسلم على يده أكثر من خمسة آلاف، وتاب على يده أكثر من عشرين ألفًا(٢).

وكان للشيخ نوعان من الدروس:

دروس منتظمة تتناول شتى فنون المعرفة، إضافة إلى التربية الروحية المنتظمة، وهو ما كان يقوم به في المدرسة المذكورة.

ودروس الوعظ والدعوة للجماهير، وكان يلقيها في ثلاثة أوقات بانتظام: صباح يوم الجمعة، ومساء يوم الثلاثاء، ومكان ذلك في المدرسة المذكورة، وصباح يوم الأحد في الرباط.

---

(١) المصدر السابق (ص٢٩٩).

(٢) «الفتح الرباني» للجيلاني (ص١٤٥).

بدأت دروسه بالرجلين والثلاثة، ثم تكاثر الناس وتزاحموا في درسه، حتى اضطره ذلك إلى الخروج من المدرسة، وإلقاء درسه بالرباط بجانب سور بغداد.

وتقول بعض الروايات: «إن مجلسه كان يضم سبعين ألفًا، وهذه الرواية وإن كانت لا تخلو من مبالغة؛ فإنها تدل على كثرة القاصدين لدرس الشيخ.

وقد يسأل سائل: لماذا اتجه الشيخ إلى الوعظ، حتى اشتهر به وعُرِف؟

إن دراسة عصر الشيخ يمكن أن تعطي الجواب على هذا السؤال، فقد كثر في زمنه الفقهاء والعلماء الذين يلقون دروسهم المتخصصة على طلابها، ولم تكن بغداد يومئذٍ ينقصها هذا الصنف.

وقد كثر الفساد في المجتمع واتسعت دائرته، فكان عامة الناس بحاجة إلى من يأخذ بأيديهم ويردهم إلى دائرة الشريعة، ويعلمهم ما هم بحاجة إليه، وهي القضية التي تنبّه إليها الشيخ، ورآها وقد احتلت الدرجة الأولى في سلم الأولويات فكانت دروس وعظه تلبية لحاجة ملحة.

□ يقول الشيخ أبو الحسن الندوي في وصف الشيخ ووصف مجلسه: «كان صاحب نفس زكية، وهمة قوية مؤثرة، وعلى جانب عظيم من الزهد والقناعة والعزوف عن الشهوات.

يجد ضعاف الإيمان في مجالسه قوة اليقين وحرارة الإيمان.

ويجد أهل الشك والارتياب السكينة والإذعان.

ويجد أصحاب النفوس القلقة والقلوب الجريحة المنكسرة: الهدوء والعزاء والسلوان.

ويجد هواة الحقائق والمعارف وأصحاب الدراسات: العلوم الدقيقة، والنكت اللطيفة.

ويجد أصحاب البطالة والعطلة، وأصحاب القلوب الخامدة ما يملؤهم حماسة وإيمانًا، وما يحفزهم إلى العمل والجهاد.

ويجد عباد الملذات والشهوات، والمترفون في الحياة، الذين تجرؤوا على المعاصي والمحارم: ما يبعث فيهم الإقلاع والندامة والتوبة والإنابة.

وبالجملة: يجد كل أحد في مجالسه: غناءه ودواءه وغذاءه وشفاءه، ويقف كمنارة عالية من الإيمان والعلم في بحر الظلمات والجاهلية يأوي إليها الغرقى ويهتدي بها الحائرون..»[(١)].

هذا النوع من الدروس، الذي يلبي حاجة كل طالب، هو ما يفسر لنا كثرة القاصدين له حتى بلغ عشرات الآلاف.

على أن الشيخ -مع ذلك- لم يترك دروس العلم في مدرسته كما رأينا، ولكنها كانت ممزوجة بالتربية الروحية والتطبيق العملي للمعلومات.

وقد آتت هذه التربية ثمارها، فكان لتلاميذ الشيخ أثرهم الكبير في الحياة الاجتماعية في شتى أنحاء العالم الإسلامي»[(٢)].

شهادات:

ولإعطاء تصور أفضل عن حياة هذا العَلَم، يحسن بنا أن ننقل بعض ما قيل في حقه من قبل العلماء الذين عايشوه، أو الذين جاؤوا من بعده:

---

(١) «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» لأبي الحسن الندوي (ص٢٥١).

(٢) انظر كتاب «هكذا ظهر جيل صلاح الدين» للدكتور ماجد كيلاني.

□ قال الشيخ موفق الدين ابن قدامة المقدسي، صاحب «المغني»: «دخلنا بغداد سنة إحدى وستين وخمسمئة، فإذا الشيخ عبد القادر مما انتهت إليه الرياسة بها علمًا وعملًا وحالًا واستفتاءً، كان يكفي طالب العلم عن قصد غيره، من كثرة ما اجتمع فيه من العلوم، والصبر على المشتغلين وسعة الصدر، وما رأيت أحدًا يعظّمه الناس من أجل الدين أكثر منه».

□ وقال شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني: «كان الشيخ عبد القادر متمسكًا بقوانين الشريعة، يدعو إليها وينفر عن مخالفتها، ويشغل الناس فيها، مع تمسكه بالعبادة والمجاهدة..».

□ وقال الإمام ابن رجب: «شيخ العصر، وقدوة العارفين، وسلطان المشايخ وسيد أهل الطريقة في وقته محيي الدين، أبو محمد ظهر للناس، وحصل له القبول التام، وانتصر أهل السنة الشريفة بظهوره، وانخذل أهل البدع والأهواء، واشتهرت أحواله وأقواله وكراماته، وجاءته الفتاوى من سائر الأقطار، وهابه الخلفاء والوزراء فمن دونهم».

□ ويقول عنه أيضًا: «صاحب المقامات والكرامات والعلوم والمعارف والأحوال المشهورة»[(١)].

□ وقال ابن الجوزي عنه: «تكلَّم على الناس بلسان الوعظ، وظهر له صيته بالزهد، وكان له سمت وصمت، وكان يجلس عند سور بغداد مستندًا إلى الرباط، ويتوب عنده في المجلس خلق كثير»[(٢)].

---

(١) «الذيل على طبقات الحنابلة» لابن رجب (١/ ٢٩٤).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٩١).

□ وقال الحافظ ابن كثير: «.. كان له اليد الطولى في الحديث والفقه والوعظ وعلوم الحقائق، وكان له سمت حسن، وصمت عن غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وبالجملة كان من سادات المشايخ الكبار قدس الله سره»(١).

□ وقال الحافظ الذهبي: «الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف القدوة، شيخ الإسلام علم الأولياء..»(٢).

□ وأما الإمام ابن تيمية: «فإنه يذكره بكثير من الاحترام والتقدير، فتارة يصفه بأنه من الشيوخ الكبار فيقول: «وكلام الشيوخ الكبار كالشيخ عبد القادر وغيره..»، وتارة يقول: «الشيخ عبد القادر ونحوه من أعظم مشايخ زمانهم..»(٣).

□ وقال: «وأما أئمة الصوفية والمشايخ المشهورون: مثل الجنيد وأتباعه، ومثل الشيخ عبد القادر وأمثاله، فهؤلاء من أعظم الناس لزومًا للأمر والنهي..»(٤).

□ ويلاحظ على الإمام ابن تيمية أنه إذا مر ذكر الشيخ، أتبع ذلك بقوله: «قدس الله روحه»(٥).

□ ويقول: «والشيخ عبد القادر ونحوه من أعظ مشايخ زمانهم أمرًا

---

(١) «الشيخ عبد القادر الجيلاني» للدكتور عبد الرزاق الكيلاني (ص٢٩٥).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٤٣٩).
(٣) «الفتاوى» (١٠/ ٤٦٣، ٤٨٨).
(٤) «الفتاوى» (٨/ ٣٩٨).
(٥) «الفتاوى» (٨/ ٣٠٦)، (١٠/ ٤٥٨)، (١٠/ ٤٧٠).

بالتزام الشرع والأمر والنهي، وتقديمه على الذوق والقَدَر، من أعظم المشايخ أمرًا بترك الهوى والإرادة النفسِيَّة»[(١)].

□ وأثنى شيخ الإسلام ابن تيمية على الشيخ الجيلاني وشيخه حماد بن مسلم الدبَّاس، فقال: «فأمر الشيخ عبد القادر وشيخه حمَّاد الدبَّاس وغيرهما من المشايخ أهل الاستقامة رضي الله عنهم: بأنه لا يريد السالك مرادًا قط وأنه لا يريد مع إرادة الله عز وجل سواها، بل يجري فعله فيه فيكون هو مراد الحق»[(٢)].

□ وقال الأستاذ أبو الحسن الندوي: «لقد ظهر الشيخ عبد القادر الجيلاني في بغداد، وتسلَّم الزعامة الدينية، وعاش نحو قرن فردًا فريدًا في الدعوة إلى الله تعالى، والتفَّ حوله العالم الإسلامي، وأثر فيه تأثيرًا لم يؤثر مثلَه عالمٌ أو مصلح في مدة طويلة»[(٣)].

إنه الرجل الخبير بأمراض المجتمع، الخبير بأمراض النفس، العليم بطرق إنقاذ الغرقى.

فلنتعرف على المحاور التي سلكها في علاج تلك الأمراض.

ومن أهم تلك المحاور:

١- تصحيح العقيدة:

□ كان الشيخ عبد القادر كثيرًا ما يُرَدِّد في مجالس وعظه وحلقات درسه عبارة: اعتقادنا اعتقاد السلف الصالح والصحابة[(٤)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٨٨).

(٢) المصدر السابق (١٠/ ٤٥٥).

(٣) «رجال الفكر والدعوة» للأستاذ الندوي (ص٢٥٢).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٤٤٢).

إنَّ قضية «التوحيد» هي القضية الأساسية، التي تقوم عليها العقيدة الإسلامية، وحتى يتم التوحيد لا بد من التخلص من الشرك.

▫ والشرك كما يقول الشيخ شركان:

شرك في الظاهر: وهو عبادة الأصنام.

وشرك في الباطن: وهو الاتكال على الخلق، ورؤيتهم في الضر والنفع[1].

والمسلم لا يكون موحدًا حتى يتخلص من الشرك الظاهر، ولكنه قد لا يحسن التخلص من الشرك الباطن، ولذا انصبّ اهتمام الشيخ على بيان ذلك، وكثرتْ معالجته لهذا الموضوع وبيان أخطاره، ومن ذلك قوله: «يا غلام، ما أنت على شيء، الإسلام ما صح لك، تقول: «لا إله إلَّا الله» وتكذب، في قلبك جماعة من الآلهة: خوفك من سلطانك، ووالي محلتك آلهة، اعتمادك على كسبك وقوتك وبطشك آلهة، رؤيتك للضر والنفع والعطاء والمنع من الخلق آلهة»[2].

▫ وقال: «كيف تقول: «لا إله إلَّا الله» وفي قلبك كم إله! كل شيء تعتمد عليه وتثق به دون الله فهو صنمك، لا ينفعك توحيد اللسان مع شرك القلب»[3].

▫ وقال: «دع عنك الشرك بالخلق، ووحد الحق عَزَّ وَجَلَّ، هو خالق الأشياء جميعها، يا طالب الأشياء من غيره ما أنت عاقل..»[4].

---

(١) «الفتح الرباني» (ص١٤٤).

(٢) المصدر نفسه (ص٧٤).

(٣) المصدر نفسه (ص١٥٥).

(٤) «الفتح الربَّاني» (ص١٢).

وهكذا يوضح فكرة الشرك الباطن، حتى يبتعد عنها المسلم، ويكون موحدًا ظاهرًا وباطنًا.

٢- التزام الكتاب والسُّنَّة:

قامت الشريعة الإسلامية على الكتاب والسُّنَّة، ولا بد أن يكون عمل المسلم منضبطًا معهما حتى يكون مقبولًا.

ولهذا كان تأكيد الشيخ على تحكيم هذا الضابط والالتزام به كبيرًا، وقلَّ مجلس من مجالسه لم يذكر فيه هذا الأمر ويذكر به.

ومن أقواله في ذلك:

□ «كل من لم يتبع النبي ﷺ ويأخذ شريعته في يد والكتاب المُنَزَّل عليه في اليد الأخرى، ولا يصل في طريقه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ يَهلك ويُهلك، ويَضل ويُضل، هما دليلان إلى الحق عَزَّ وَجَلَّ: القرآن دليلك إلى الحق عَزَّ وَجَلَّ، والسُّنَّة دليلك إلى الرسول ﷺ»(١).

□ ولما كان بعض المتصوفة المنحرفين يدَّعون العمل بالحقيقة والقول بها بعيدًا عن الالتزام بالشرع، قرعهم بقوله: «كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، طر إلى الحق عَزَّ وَجَلَّ بجناحي الكتاب والسُّنَّة»(٢).

وكثيرًا ما كرر الجملة الأولى من هذه الفقرة بيانًا لانحراف الذين يبتعدون عن الشريعة أيًا كان شأنهم.

□ ومن أقواله: «من لم يكن الشرع رفيقه في جميع أحواله، فهو هالك

---

(١) «الفتح الرباني» للجيلاني (ص١١٧).

(٢) المصدر السابق (ص١٧٩).

مع الهالكين»[١].

□ ومن لزم السُّنَّة فطريقه الاتباع، ولذلك يقول: «عليكم بالاتباع من غير ابتداع، عليكم بمذهب السلف الصالح، امشوا في الجادة المستقيمة، لا تشبيه ولا تعطيل، بل اتباعًا لسنة رسول الله ﷺ من غير تكلف ولا تطبع ولا تشدد.. يسعكم ما وسع من كان قبلكم»[٢].

٣- نقد العلماء:

يوجد في كل زمن من العلماء من لا يتفق سلوكه مع العلم الذي يحمله، ويرى الشيخ في هذا النمط من العلماء خطرًا داهمًا على عامة الناس، الذين ينظرون إلى سلوك هؤلاء العلماء قبل النظر والاستماع إلى أقوالهم.

ولهذا اشتدت وطأة هجوم الشيخ عليهم، وكانت لغته قاسية معهم؛ لأنهم يقولون ما لا يفعلون. ومن أقواله في ذلك: «يا أعداء الله ورسوله، يا قاطعي عباد الله عز وجل، أنتم في ظلم ظاهر ونفاق ظاهر، إلى متى هذا النفاق يا علماء يا زهاد؟ كم تنافقون الملوك والسلاطين حتى تأخذوا منهم حطام الدنيا وشهواتها ولذاتها..»[٣].

□ ويخاطب الناس ويطلب منهم ألا يستمعوا من هؤلاء العلماء فيقول: «لا تسمعوا من هؤلاء الذين يفرِّحون نفوسكم، يذلون للملوك، ويصيرون بين أيديهم كالذر، لا يأمرونهم بأمره، ولا ينهونهم عن نهيه،

---

(١) «الفتح الرباني» (ص١٦١).

(٢) «الفتح الرباني» (ص٤٧).

(٣) «الفتح الرباني» (ص٢١٦).

وإن فعلوا ذلك فعلوه نفاقًا وتكلفًا، طهَّر الله منهم الأرض ومن كل منافق، أو يتوب عليهم ويهديهم إلى بابه»(١).

□ ويطلب من طلبة العلم عدم الاغترار بهؤلاء العلماء فيقول: «يا غلام، لا تغتر بهؤلاء العلماء الجهال بالله عَزَّوَجَلَّ، كل علمهم عليهم لا لهم، هم علماء بحكم الله عَزَّوَجَلَّ، جهال بالله عَزَّوَجَلَّ، يأمرون الناس بأمر ولا يمتثلونه، وينهونهم عن شيء ولا ينتهون عنه، يدعون إلى الحق عَزَّوَجَلَّ وهم يفرون منه..»(٢).

□ إنه لا بد للعلم من العمل، ولذلك يوجه النصيحة في هذا الشأن فيقول: «يا غلام، علمك يناديك: أنا حجة عليك إن لم تعمل بي، وحجة لك إن علمت بي؛ اسمعه بأذن قلبك وسرك، واقبل قوله فإنك تنتفع به؛ العمل بالعلم يقربك إلى العالم المنزل للعلم، لا تصح متابعتك للرسول ﷺ حتى تعمل بما قال»(٣).

٤- إصلاح التصوف والزهد:

□ يرى الشيخ أن مفهوم التصوف قد انحرف عن معناه، وأصبحت المظاهر تشغل أصحابه بعد أن كان هدفه صفاء الباطن. ولذا فهو يتوجه إليهم بالنصيحة لتصحيح المسار فيقول: «يا من قد لبس الصوف، ألبسِ الصوف لسرِّك ثم لقلبك، ثم لنفسك ثم لبدنك. بداية الزهد من هناك، لا من الظاهر إلى الباطن، إذا صفا السر تعدى الصفاء إلى القلب والنفس

---

(١) المصدر السابق (ص٣٠٦).

(٢) «الفتح الربَّاني» (ص٥٧).

(٣) «الفتح الرباني» (ص٢٣).

والجوارح، والمأكول والملبوس، وتعدى إلى جميع أحوالك، أول ما يعمر داخل الدار، فإذا كملت عمارتها، اخرج إلى عمارة الباب، لا كان ظاهر بلا باطن..»[١].

□ وقال: «يا غلام، صفِّ قلبك بأكل الحلال وقد عرفت ربك ﷻ، صفِّ لقمتك وخرقتك وقلبك وقد صرت صافيًا، التصوف مشتق من الصفاء، يا من لبس الصوف، الصوفي الصادق في تصوفه يصفو قلبه عما سوى مولاه ﷻ، وهذا شيءٌ لا يجيء بتغيُّر الخرق، وتصفير الوجوه، وجمع الأكتاف، ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين، وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق ﷻ، والزهد في الدنيا، وإخراج الخلق من القلب..»[٢].

□ ويتجه إلى الذين ادعوا الزهد وتركوا العمل فيقول لهم: «يا طالب الدنيا بنفاقه، افتح يدك، فما ترى فيها شيئًا، ويلك، زهدت في الكسب وقعدت تأكل أموال الناس بدِينِك، الكسب صنعة الأنبياء جميعهم، ما منهم إلَّا من كان له صنعة..»[٣].

□ ويلوم الزهاد على جهلهم ويطلب منهم أن يتعلموا فيقول: «يا من اعتزل بزهده مع جهله، تقدم واسمع ما أقول: يا زهاد الأرض، تقدموا، خرِّبوا صوامعكم واقتربوا مني، قد قعدتم في خلواتكم من غير أصل.. تقدموا والقطوا ثمار الحكم رحمكم الله..»[٤].

---

(١) «الفتح الرباني» (ص١١١).

(٢) «الفتح الرباني» (ص١١٥).

(٣) «الفتح الرباني» (ص١٨٧).

(٤) «الفتح الرباني» (ص٩٥).

إنها صرخات في سبيل إصلاح مدَّعي التصوف والزهد.

٥- تصحيح مفهوم التوكل:

▫ ظن بعضهم أن التوكل ينافي العمل، وقد عمل الشيخ في مجالسه على تصحيح هذا المفهوم وبيان أن التوكل لا ينافي العمل، ومن وقوله في ذلك: «اشتر (المر) والزنبيل واقعد على باب العمل، فإن قُدِّر عملك فسوف تعمل، أعطِ السبب حقه، وتوكل واقعد على باب العمل..»[1].

▫ وقال: «خذ المر والزنبيل واقعد على باب العمل، حتى إذا طلبت تكون قريبًا من المستعمل، ولا تقعد على فراشك وتحت لحافك، من وراء أغلاق ثم تطلب العمل..»[2].

▫ ويبين أن ترك الكسب والاعتماد على ما في أيدي الناس عقوبة من الله تعالى فيقول: «الأنبياء جمعوا بين الكسب والتوكل.. تَرْكُ الكسب والكدية من الناس، عقوبة من الله عَزَّوَجَلَّ للعبد»[3].

٦- الإخلاص:

إن الإخلاص هو المدار الذي يتركز عليه قبول العمل. وقَلَّ مجلس للشيخ إلَّا وفيه نصيب للحديث عن هذا الموضوع.

ومن أقواله في ذلك:

«عليك بالإخلاص في الأعمال، ارفع بصرك عن عملك واطلب

---

(١) «الفتح الرباني» (ص٢١١).

(٢) المصدر السابق (ص٢٢٨).

(٣) المصدر السابق (ص١٢٦).

العوض عليه، اعمل لوجه الله عز وجل، كن من الذين يريدون وجهه»[١].

والنية هي المؤشر على الإخلاص، ولهذا ينصح الشيخ فيقول: «يا غلام، إذا تكلمت فتكلم بنية صالحة، وإذا سكت، فاسكت بنية صالحة، كل من لم يقدم النية قبل العمل فلا عمل له»[٢].

□ ويرشد إلى علامة الإخلاص فيقول: «علامة إخلاصك: أنك لا تلتفت إلى حمد الخلق ولا إلى ذمهم»[٣].

□ والإخلاص لا يكون مع العجب؛ ومن قوله في ذلك: «لا تعجبن بشيء من أعمالك، فإن العجب يفسد العمل ويهلكه»[٤].

□ وقال: «يا معجبين بأعمالكم ما أجهلكم! لولا توفيقه ما صليتم ولا صمتم ولا صبرتم»[٥].

٧- ذم الدنيا:

يلاحظ عند النظر في مواعظ الشيخ، كثرة «ذم الدنيا». ولا بد من وقفة عند هذا الأمر، لتحديد المقصود بالدنيا التي يذمها.

والشيخ رحمه الله لم يترك لنا ذلك، بل بيَّن مراده بكلام واضح لا لبس فيه، حتى لا يكون ظاهر كلامه حجة للكسالى والبطالين والخاملين فقال: «ليس من الدنيا ما لا بد منه. ليس من الدنيا: بيت يكنك، ولباس يسترك،

---

(١) «الفتح الرباني» (ص٨٢).

(٢) المصدر السابق (ص١١٩).

(٣) «الفتح الرباني» (ص١٩٠).

(٤) «الفتح الرباني» (ص٢٠١).

(٥) «الفتح الرباني» (ص١٧٩).

وخبز يشبعك، وزوجة تسكن إليها.

حياة الدنيا: نفسك وهواك وطبعك. هذه الدنيا.

الحياة الدنيا: الإقبال على الخلق والإدبار عن الحق»[١].

من مواعظ الجيلاني:

□ قال الجيلاني: «داوِمْ على سماع المواعظ، فإن القلب إذا غاب عنها عَمِي».

□ وقال: «لا تستهينوا بكلمات الحكماء العلماء، فإنها ثمرة وحي الله عَزَّ وَجَلَّ».

التسليم لله تعالى:

□ قال أبو محمد: «الاعتراض على الحق عَزَّ وَجَلَّ عند نزول الأقدار، موت الدين، موت التوحيد، موت التوكل والإخلاص.

والقلب المؤمن لا يعرف «لِمَ؟» و«كيف؟» لا يعرف»[٢].

هم النفس وهم القلب:

□ قال أبو محمد: «لا يكن همَّك ما تأكل وما تشرب، وما تلبس، وما تسكن وما تجمع..

كل هذا همُّ النفس والطبع.

فأين همُّ القلب والسرِّ؟ وهو طلب الحق عَزَّ وَجَلَّ.

همُّك ما أهمَّك!

---

(١) المصدر السابق (ص٣٤٤).

(٢) «الفتح الرباني» (ص٩-١٠).

فليكن همُّك ربك عَزَّ وَجَلَّ وما عنده.

الدنيا لها بدل، وهو الآخرة.

والخلق لهم بدل، وهو الخالق عَزَّ وَجَلَّ.

كلما تركت شيئًا من هذا العاجل، أحدث عوضه وخيرًا منه في الآجل.

قدِّر: أن قد بقي من عمرك هذا اليوم فحسب.

تهيأ للآخرة، تهيأ لمجيء ملك الموت»[١].

الطريق الموصل:

□ قال أبو محمد: «ذِلَّ لله عَزَّ وَجَلَّ، وأنزل به حوائجك، ولا تعدَّ لنفسك عملًا، والْقَهُ على قدم الإفلاس، أغلق أبواب الخلق، وافتح الباب بينك وبينه، واعترف بذنوبك، واعتذر إليه من تقصيرك، وتيقن أن لا ضار ولا نافع ولا معطي ولا مانع إلَّا هو، فحينئذٍ يزول عمى عينِ قلبك، ويحركُ البصر البصيرة»[٢].

علاج العجب:

□ قال أبو محمد: «لا تعجبن بشيء من أعمالك، فإن العجب يفسد العمل ويهلكه، من رأى توفيق الله عَزَّ وَجَلَّ له، انتفى عنه العجب بشيء من الأعمال»[٣].

---

(١) «الفتح الرباني» (ص١٥ – ١٦).

(٢) المصدر السابق (ص١٨ – ١٩).

(٣) المصدر السابق (ص٢٠١).

شمس التوحيد:

□ قال أبو محمد: «لا تكن في أخذك للدنيا كحاطب ليل، ما يدري ما يقع بيده.

إني أراك في تصرفاتك كحاطب ليل، في ليلة ظلماء، لا قمر فيها، ولا ضوء معه، وهو في رملة كثيرة الدغل[1] والحشرات القاتلة، فيوشك أن يقتلك شيء منها.

كن في تصرفاتك مع شمس التوحيد والشرع والتقوى.

فإن هذه الشمس تمنعك عن الوقوع في شبكة الهوى والنفس والشيطان والشرك بالخلق»[2].

فقه اللسان وعمل القلب:

□ قال أبو محمد: «فقه اللسان بلا عمل القلب لا يخطيك إلى الحق خطوة.

السير سير القلب، والعمل عمل المعاني مع حفظ حدود الشرع بالجوارح، والتواضع لله عَزَّ وَجَلَّ ولعباده.

من جعل لنفسه وزنًا فلا وزن له.

من أظهر أعماله للخلق فلا عمل له.

الأعمال تكون في الخلوات، لا تظهرْ في الجلوات سوى الفرائض التي لا بد من إظهارها»[3].

---

(١) الدغل: الفساد، وأصله الشجر المُلْتَفُّ الذي يكمن أهل الفساد فيه.

(٢) «الفتح الرباني» (ص٢٧).

(٣) المصدر السابق (ص٤١).

بناء الباطن أولاً:

□ قال أبو محمد: «المرائي ثوبه نظيف وقلبه نجس، يزهد في المباحات ويأكل الحرام الصريح، يأكل بدينه ولا يتورع جملة.

كل زهده وطاعته على ظاهره.

ظاهره عامر، وباطنه خراب.

ويلك! طاعة الله ﷻ بالقلب لا بالقالب.

أنت لسانك ورع، وقلبك فاجر.

لسانك يحمد الله ﷻ، وقلبك يعترض عليه.

ظاهرك مسلم، وباطنك كافر.

ظاهرك موحد، وباطنك مشرك.

زهدك على ظاهرك، دينك على ظاهرك، وباطنك خراب، كبياض على بيت الماء [1]، وكقفل على مزبلة. إذا كنت هكذا خيم الشيطان على قلبك وجعله مسكنًا له.

المؤمن يبتدئ بعمارة باطنه، ثم بعمارة ظاهره، كالذي يعمل دارًا ينفق على الداخل منها مبالغ من المال، وبابها خراب، فإذا أكمل عمارتها بعد ذلك يعمل بابها.

هكذا البداية بالله ﷻ ورضاه، ثم الالتفات إلى الخلق بإذنه.

البداية بتحصيل الآخرة، ثم تتناول الأقسام [2] من الدنيا [3].

---

(١) بيت الماء: أي بيت الخلاء.

(٢) الأقسام: جمع قسم، وهو نصيبك وما قُدِّر لك.

(٣) «الفتح الرباني» (ص ٤٤- ٤٥).

□ وقال: «من ادَّعى حبَّ الله عَزَّ وَجَلَّ من غير ورعٍ في خلوته فهو كذاب».

ما لا تفعلون:

□ قال أبو محمد: «يا من يُعلِّم العلم، وقد قنع منه بالاسم دون العمل، ماذا ينفعك إذا قلت: أنا عالِم.. قد كذبت.

* كيف ترضى لنفسك أنك تأمر غيرك بما لا تعمله أنت. وقد قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف]؟

ويحك! تأمر الناس بالصدق وأنت تكذب.

تأمرهم بالتوحيد، وأنت مشرك.

تأمرهم بالإخلاص، وأنت مراءٍ منافق.

تأمرهم بترك المعاصي، وأنت ترتكبها.

قد ارتفع الحياء من عينيك، لو كان لك إيمان لاستحيت»[1].

ويحك! تحفظ القرآن ولا تعمل به.

تحفظ سنة رسول الله ﷺ ولا تعمل بها.

تأمر الناس وأنت لا تفعل، وتنهاهم وأنت لا تنتهي.

صفات الله تعالى:

□ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «أما تستحون! يصف الحق عَزَّ وَجَلَّ نفسه بصفاتٍ يرضاها له. تتأوّلونها وتردُّونها عليه.

ما يسعكم ما وسِع مَن تقدَّمكم من الصحابة والتابعين؟

ربنا عَزَّ وَجَلَّ على العرش، كما قال، من غير تشبيه ولا تعطيل ولا

(١) المصدر السابق (ص١٠١).

تجسيم»[١].

حفظ الباطن:

□ قال أبو محمد: «لا تقنع من أحوالهم بالاسم، والتزيي بزيهم، والتشدق بكلامهم.

لا ينفعك ذلك مع مخالفتك لأفعالهم.

أنت كدر بلا صفاء.

دنيا لا آخرة.

باطل بلا حقيقة.

ظاهر بلا باطن.

قول بلا عمل.

عمل بلا إخلاص.

إخلاص بلا إصابة السنة.

إن الله عز وجل لا يقبل قولًا بلا عمل، ولا عملًا بلا إخلاص، ولا يقبل شيئًا من الجملة غير موافق لكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

إن حصل لك قبول الخلق مع كذبك، فما حصل لك قبول الحق عز وجل.

هو العالم بما في القلوب.

لا تبهرج، فإن الناقد بصير.

وأنت يا مسافرًا في طريق الآخرة، كن أبدًا مع الدليل إلى أن يوصلك إلى المنزل.

---

(١) «الفتح الرباني» (ص٩٩).

المريد لا بدَّ له من قائد ودليل.

إن أردت الفلاح، فاصحب شيخًا عالمًا بحكم الله عَزَّ وَجَلَّ وعلمه، يعلمك ويؤدبك، ويعرفك الطريق إلى الله عَزَّ وَجَلَّ[1].

كن واعظ نفسك:

□ قال أبو محمد: «كن أنت واعظ نفسك، ولا تحتجْ إليَّ ولا إلى غيري.

وعظي على ظاهرك.

ووعظك على باطنك.

عِظْ نفسك بدوام ذكر الموت، وقطع العلائق والأسباب.

تعلق برب الأرباب الخلاق العظيم العليم.

تعلق برحمته ورأفته»[2].

علاج قساوة القلب:

□ قال أبو محمد: «أدنِ قلبك من الذكر.

وذكِّره يوم النشور.

تفكَّر في القبور الدوارس.

تفكَّر كيف يَحشر الحقُّ عَزَّ وَجَلَّ جميع الخلق، ويقيمهم بين يديه.

إذا دمت على هذا التفكر، زالت قساوة قلبك، وصفا من كدره»[3].

---

(١) «الفتح الرباني» (ص٢١٠).

(٢) المصدر نفسه (ص٢٤٣).

(٣) المصدر السابق (ص٢٢٨).

مخالطة العلماء:

□ قال رحمه الله: «يا جُهَّال! خالِطوا العلماء، واخدموهم وتعلَّموا منهم.

العلم يُؤخذ من أفواه الرجال.

جالسوا العلماء بحسن الأدب، وترك الاعتراض عليهم، وطلب الفائدة منهم، لينالكم من علومهم، وتعود عليكم بركاتهم، وتشملكم فوائدهم.

جالسوا العارفين بالصمت، وجالسوا الزاهدين بالرغبة فيهم.

يا جاهل، اترك الدفتر من يدك. وتعال اقعد ها هنا بين يدي، العلمُ يُؤخَذ من أفواه الرِّجال، لا من الدفاتر.

يُؤخذُ من الحال، لا من المقال»[1].

تعجب!!:

□ قال أبو محمد: «لِمَ تقولون شيئًا وفعلكم يكذب قولكم؟

أما سمعتم قول ربكم عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف].

ملائكتكم تتعجب من وقاحتكم.

تتعجب من كثرة كذبكم في أحوالكم.

تتعجب من كذبكم في توحيدكم.

كل حديثكم في الغلاء والرخص، وأحوال السلاطين والأغنياء، أكل فلان، لبسَ فلان، تزوجَ فلان، استغنى فلان، افتقر فلان.

كل هذا هوَس ومقت وعقوبة.

---

(١) «الفتح الرباني» (ص٢٢٨، ٢١٤).

توبوا، واتركوا دنياكم.

ارجعوا إلى ربكم دون غيره، اذكروه وانسوا غيره»[١].

الناس أربعة:

□ قال أبو محمد: «الناس أربعة رجال:

رجل لا لسان له ولا قلب، وهو العاصي الغِرُّ، الغبي، لا يعبأُ الله به ولا خير فيه. وهو وأمثاله حثالة لا وزن لهم، إلَّا أن يَعمهم الله ﷻ برحمته، فيهدي قلوبهم للإيمان به، ويحرك جوارحهم بالطاعة له ﷻ.

فاحذر أن تكون منهم، ولا تكترث بهم، فإنهم أهل العذاب والغضب والسخط، سكان النار وأهلها، نعوذ بالله ﷻ منهم.

إلَّا أن تكون من العلماء بالله ﷻ ومن معلمي الخير.. فدونك فأتهم وادعهم إلى طاعة الله ﷻ..

الرجل الثاني: رجل له لسان بلا قلب.

فينطق بالحكمة ولا يعمل بها، يدعو الناس إلى الله، وهو يفر منه ﷻ.

يستقبح عيبَ غيره، يدوم هو على مثله في نفسه.

يظهر للناس تنسكًا، ويبارز الله ﷻ بالعظائم من المعاصي، إذا خلا كأنه ذئب عليه ثياب.

وهو الذي حذر منه النبي ﷺ بقوله: «**أخوف ما أخاف على أمتي من كل منافق عليم اللسان**»[٢].

---

(١) المصدر السابق (ص٣٠١).

(٢) ضعيف: انظر «كنز العمال» (٢٨٨٥٠).

نعوذ بالله من هذا، فابتعد منه، وهرول لئلا يختطفك بلذيذ لسانه.

والرجل الثالث: قلب بلا لسان وهو مؤمن.

ستره الله ﷻ من خلقه، وأسبل عليه كنفه، وبصَّره بعيوب نفسه، ونور قلبه وعرَّفه غوائل مخالطة الناس..

فهذا رجل ولي الله ﷻ. فالخير كل الخير عنده، فدونكه ومصاحبته ومخالطته.

والرجل الرابع: المدعو في الملكوت بالعظيم.

كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**من تعلَّم وعلَّم كتب في ملكوت السماوات عظيمًا**»[1]. وهو العالم بالله ﷻ وآياته.. اصطفاه واجتباه.

فهذه هي الغاية القصوى في بني آدم، لا منزلة فوق منزلته إلَّا النبوة، فعليك به، واحذر أن تعاديه.

فقد قسمت لك الناس، فانظر لنفسك، إن كنت ناظرًا، واحترز لها إن كنت محترزًا.. هدانا الله وإياك لما يحبه ويرضاه[2].

كن بواب قلبك:

□ قال أبو محمد: «اخرج من نفسك وتنحَّ عنها، وانعزل عن ملكك، وسلم الكل إلى الله.

فكن بوابه على قلبك، وامتثل أمره في إدخال من يأمرك بإدخاله، وانتهِ بنهيه في صد من يأمرك بصده.

فلا تدخل الهوى قلبك بعد أن أُخرج منه.

---

(١) لا يصح عن نبينا ﷺ، وهو مرويٌّ عن عيسى عليه السلام.

(٢) «الفتح الرباني» (ص٥٧ - ٥٩).

فأخرج الهوى من القلب بمخالفته، وترك متابعته في الأحوال كلها.

فلا تُرِدْ إرادةً غيرَ إرادته تعالى، وغير ذلك منك تمنٍّ وهو وادي الحمقى»[1].

اتق الشرك:

□ قال أبو محمد:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ١١٦].

اتق الشرك جدًّا ولا تقربْه.

واجتنبه في حركاتك وسكناتك، وليلك ونهارك، في خلوتك وجلوتك.

واحذر المعصية في الجملة، في الجوارح والقلب، واترك الإثم ما ظهر منه وما بطن.

لا تهرب منه عَزَّ وَجَلَّ فيدركك.

ولا تنازعه في قضائه فيقصمك.

ولا تتهمه في حكمه فيخذلك.

ولا تغفل عنه فينبهك ويبتليك.

ولا تحدث في داره حادثة فيهلكك.

ولا تقل في دينه بهواك فيرديك ويُظلم قلبك ويسلب إيمانك

---

(١) «الفتح الرباني» (ص١٦).

ومعرفتك، ويسلط عليك شيطانك ونفسك وهواك وشهواتك»[(١)].

أنت بين حالين:

□ قال أبو محمد: «لا يخلو أمرك من قسمين: إما أن تكون غائبًا عن القرب من الله، أو قريبًا منه واصلًا إليه.

فإن كنت غائبًا عنه، فما قعودك وتوانيك عن الحظ الأوفر، والنعيم والعز الدائم.. والسلامة والغنى..؟

فقم وأسرع في الطيران إليه عَزَّ وَجَلَّ بجناحين:

أحدهما: ترك اللذات والشهوات، الحرام منها والمباح، والراحات أجمع.

والآخر: احتمال الأذى والمكاره، وركوب العزيمة، والخروج من الخلق والهوى.

وإن كنت من المقربين الواصلين إليه عَزَّ وَجَلَّ، ممن أدركتهم العناية.. ونالتهم الرحمة والرأفة، فأحسن الأدب، ولا تغتر بما أنت فيه، فتقصر في الخدمة، وتخلد إلى الرعونة، واحفظ قلبك من الالتفات إلى ما تركته من الخلق والهوى»[(٢)].

قطع طمع النفس:

□ قال أبو محمد: «ينبغي أن تقطع طمعك من الآدميين، ولا تطمع فيما في أيديهم.

---

(١) المصدر السابق (ص٤٢).

(٢) «الفتح الرباني» (ص٨١- ٨٢).

فإنه العز الأكبر، والغنى الخاص، والملك العظيم.. واليقين الصافي، والتوكل الشافي الصريح.

وهو باب من أبواب الثقة بالله عز وجل.

وهو باب من أبواب الزهد.

وبه ينال الورع ويكمل نسكه»[(١)].

شراء مملوك:

□ قال أبو محمد: «اشترى رجل مملوكًا. وكان ذلك المملوك من أهل الدين والصلاح.

فقال له: يا مملوك، إيش تريد أن تأكل؟

فقال: ما تطعمني.

فقال له: ما الذي تريد أن تلبس؟

فقال: ما تلبسني.

فقال له: أين تريد أن تقعد في داري؟

فقال: موضع ما تقعدني.

فقال له: ما الذي تحب أن تعمل من الأشغال؟

فقال: ما تأمرني.

فبكى الرجل، وقال: طوبى لي لو كنت مع ربي عز وجل كما أنت معي.

فقال المملوك: يا سيدي وهل للعبد مع سيده إرادة أو اختيار؟

فقال له: أنت حر لوجه الله»[(٢)].

---

(١) المصدر السابق (ص١١٩).

(٢) المصدر السابق (ص٢٥٥).

الأثر العظيم للمدرسة القادرية في دعم الدولة الزنكية والأيوبية والجهاد ضد الصليبيين، وإنهاء الوجود الفاطمي بمصر:

كان للشيخ عبد القادر الجيلاني الدور الكبير في التصدي للتطرق الشيعي الباطني والرد العظيم على الرافضة.

وقد لعبت المدرسة القادرية دورًا رئيسيًّا في إعداد جيل المواجهة للخطر الصليبي في البلاد الشامية.

ولقد قامت المدرسة القادرية بدور مهم في إعداد أبناء النازحين عن مناطق الاحتلال الصليبي، فكانت تستقدمهم وتوفر لهم الإقامة والتعليم، ثم تعيدهم إلى مناطق الثغور والمرابطة، ولقد كان هؤلاء الطلاب يعرفون باسم «المقادسة» نسبة إلى بيت المقدس وكانت المدرسة القادرية، والقيادة الزنكية تعد أبناء النازحين لقيادة حركة الجهاد [(١)].

□ وهاجر العلماء من المدرسة القدرية للعمل في المدارس النورية، وشاركوا في الميادين السياسية مع نور الدين محمود زنكي، ومن كبار هذه المدرسة أسعد بن المنجَّا بن بركات، وكذلك علي بن بردوان بن زيد الكندي الذي حظي عند نور الدين» [(٢)].

□ وكذلك الشيخ حامد بن محمود الحراني الذي صحب الشيخ عبدالقادر ودرس عليه، واتصل بنور الدين فولاه التدريس والقضاء والمظالم في حرَّان. وجاء إلى دمشق في حوائج إلى نور الدين [(٣)].

---

(١) «هكذا ظهر جيل صلاح الدين» (ص٢٢٤- ٢٣٨).

(٢) المصدر السابق (ص٢٨٠).

(٣) المصدر السابق (ص٢٨٠).

□ وكان لزين الدين علي بن إبراهيم بن نجا الواعظ الأنصاري الدمشقي الذي تتلمذ على يد الشيخ عبد القادر دور كبير ضد الفاطميين وتقويض بنيانهم، إذ أرسله الشيخ عبد القادر للشيخ عثمان بن مرزوق القرشي قائد المعارضة السُّنِّيَّة بمصر وشيخ المدرسة الإصلاحية بها، وقد قام ابن نجا بدور خطير ومهم في زحف جيش نور الدين إلى مصر انتهى بفتحها وتوحيدها مع الشام.

وتحالف ابن نجا مع الشيخ عثمان في تهيئة الأجواء العامة لتقويض الدولة الفاطمية، واستطاع ابن نجا اختراق بلاط الفاطميين وتعرَّف على مواطن الضعف والقوة عندهم، ولعب ابن نجا الذي كان صلاح الدين يشبهه بعمرو بن العاص رضي الله عنه الدور الكبير في كشف مؤامرة الفاطميين ضد صلاح الدين، وكان لابن نجا الدور الكبير في زوال الدولة الفاطمية. وكان لشيوخ المدرسة القادرية الدور الكبير كمتطوعين في تحرير بيت المقدس، وشكلوا جانبًا مهمًّا في جيش صلاح الدين حتى مَنَّ الله على صلاح بتحريره وفتحه.

المدرسة الربانيَّة لشيخ الإسلام ابن تيمية وأعظم ثمارها ابن قيم الجوزية.. وإصلاح العقائد وأخذ الإسلام بشموله:

شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبدالسلام ابن تيمية الحرَّاني الحفصلي أشهر في الدنيا من الدنيا.

نشأ في تصون تام، وعفاف، وتأله، تقيًّا ورِعًا عابدًا ناسِكًا صوَّامًا قوَّامًا، ذكرًا الله تعالى في كل أمر، وعلى كل حال، رجَّاعًا إلى الله تعالى في سائر الأحوال والقضايا، وقَّافًا عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه، آمرًا

بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، فارِغًا من شهوات المأكل والملبس والجماع، لا لذّة له في غير نشر العلم وتدريسه، عُرِضَ عليه منصب قضاء القضاة ومشيخة الشيوخ فلم يقبل، وقبل وظائف والده في التدريس وله إحدى وعشرون سنة.

وانتهت إليه الإمامة في العلم، والعمل، والزهد، والورع، والشجاعة، والكرم، والتواضع، والحلم، والأناة، والجلالة والمهابة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، مع الصدق والأمانة، والعِفَّة والصِّيانة، وحسن القصد، والإخلاص، والابتهال إلى الله تعالى، وشدة الخوف منه، ودوام المراقبة له، والتمسك بالأمر، والدعاء إلى الله تعالى، وحُسْن الأخلاق، ونفع الخلق والإحسان إليهم.

وكان رحمه الله سَيْفًا مسلُولًا على المخالفين، وشجًى في حلوق أهل الأهواء والمبتدعين، وإمامًا قائمًا ببيان الحق ونصرة الدين، طَنَّت بذكره الأمصار، وضنَّت بمثله الأعصار.

جهاد الإمام ومحنته:

بدأ تعويل الأمة عليه في دفع أعدائها عنها في نوبة غازان[1]، فقام بأعباء الأمر بنفسه، واجتمع بنائبه وجرؤ على المغول وتوجه بعد ذلك بعام إلى الديار المصرية لما اشتد الأمر بالشام من المغول، واستصرخ بأركان الدولة وحضهم على الجهاد، ثم عاد بعد أيام إلى دمشق، وظهر اهتمامه بجهاد التتار وتحريضه الأمراء على ذلك إلى ورود الخبر بانصرافهم، وقيامه القيام المحمود في وقعة «شَقْحَب» سنة اثنتين وسبعمئة واجتماعه

---

(١) غازان: قائد جيش التتار الذي حاصر دمشق في المرة الأولى سنة ٦٩٩.

بالخليفة والسلطان، وأرباب الحل والعقد، وتحريضهم على الجهاد.

ثم توجهه في آخر سنة أربع وسبعمئة لقتال الكسروانيين(١) واستئصال شأفتهم.

«كثرت تأليفه؛ لأنه كان يؤلف من صدره، حفظ الكتاب والسنة وما دوِّن في شروحها، وما قاله العلماء في تفسيرهما، وقد ساعده كثرة محفوظه، وفيض خاطره، وسعة بيانه على تدوين حقائق لم يكتب لعالم مثله في موضوعه، ولو لم يكن له إلَّا «منهاج السُّنَّة» لكفاه على الأيام فخرًا لا يبلى، ففيه مثال من علمه وقوة حجته، ومعرفته بالملل والنحل، وإذا قلنا: إنه لم يؤلِّف نظيره في الرد على المخالفين لأهل السنة، لصدقنا كل منصف من أهل القبلة.

وكتاب «منهاج السنة» من أصح الشهادات على علوِّ كعبه في معرفة الشرع وما تقلب عليه، وما حاول بعض أهل الأهواء من العبث به، وفيما أورده الموافقون والمخالفون من صحيح الآراء وبهرجها، وكان عنوان مداركه الواسعة بتاريخ الإسلام، وتاريخ الملل والنحل.

ولو ادعينا: أنه لم يأت عالم «مثله» يعرف ما طرأ على الدين ومذاهب أهله فيه ساعة ساعة ويومًا يومًا ما قدر أحد على رد دعوانا.

رد على المعتزلة، وعلى الجهمية، وعلى الشيعة، وعلى الفلاسفة وعلى غيرهم، فجاء بالعجيب من الآراء التي استخرجها من روح الشريعة واستنبطها ببعد نظره، وشدة بحثه، فما كتب لإمام من الأئمة في عصره

---

(١) الكسروانيون: هم سكان جبل كسروان، وقد جرت المعركة معهم سنة أربع وسبعمئة.

وبعد عصره أن يناقضه ويرد أقواله.

وما سمع لأحد علماء الدين في عصره صوت مثل صوته، في إحقاق الحق، ونصرة سلطان الإسلام»[(١)].

قالوا عن شيخ الإسلام ابن تيمية:

□ قال الحافظ الذهبي: «شيخنا وشيخ الإسلام، وفريد العصر علمًا ومعرفةً وشجاعةً، وذكاءً، وتنويرًا إلهيًّا، وكرمًا ونصحًا للأمة، وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر.

سمع الحديث، وأكثر بنفسه من طلبه، وكتب وخرَّج، ونظر في الرجال والطبقات، وحصل ما لم يحصله غيره، وبرع في تفسير القرآن، وغاص في دقيق معانيه، بطبع سيال، وخاطر وقاد إلى مواضع الإشكال. واستنبط منه أشياء لم يسبق إليها.

وبرع في الحديث وحفظه، فقلَّ من يحفظ ما يحفظ من الحديث معزوًا إلى أصوله مع شدة استحضاره له وقت إقامة الدليل.

وفاق الناس في معرفة الفقه واختلاف المذاهب، وفتاوى الصحابة والتابعين بحيث إذا أفتى لم يلتزم بمذهب، بل بما يقوم دليله عنده.

وأتقن العربية أصولًا وفروعًا، وتعليلًا واختلافًا.

ونظر في العقليات وعرف أقوال المتكلمين ورد عليهم، ونصر السنة.

وهو أكبر من أن ينبه على سيرته مثلي، فلو حلفت بين الركن والمقام

---

(١) «مواعظ شيخ الإسلام ابن تيمية» لصلاح أحمد الشامي (ص١٥- ١٧)- طبع المكتب الإسلامي.

لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله، وأنه ما رأى مثل نفسه.

وقال: كان بحيث يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث».

□ وقال الحافظ الزملكاني: «كان إذا سئل عن فن من العلم، ظنَّ الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحدًا يعرف مثله.

وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك.

ولا يعرف أنه ناظر أحدًا فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها إلَّا فاق فيه أهله.

واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها».

□ وقال الحافظ ابن سيد الناس: «ألفيته ممن أدرك من العلوم حظًا، وكان يستوعب السنن والآثار حفظًا.. برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه».

□ وقال الشيخ عماد الدين الواسطي: «قال بعد ثناء جميل ما لفظه: فوالله ثم والله لم ير تحت أديم السماء مثل شيخكم ابن تيمية، علمًا وعملًا، وحالًا وخلقًا واتباعًا.. وقيامًا في حق الله عند انتهاك حرماته.

أصدق الناس عقدًا وأصحهم علمًا.. وأكملهم اتباعًا لنبيه محمد ﷺ. ما رأينا في عصرنا هذا من تستجلي النبوة المحمدية وسنتها من أقواله وأفعاله إلَّا هذا الرجل.. يشهد القلب الصحيح: أن هذا هو الاتباع حقيقة».

□ وقال الشيخ ابن دقيق العيد: «رأيت رجلًا سائر العلوم بين عينيه

يأخذ ما شاء منها، ويترك ما شاء».

□ وقال الحافظ المزي: «ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أحدًا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله، ولا أتبع لهما منه».

□ وقال الشيخ أبو عبد الله بن قوام: «ما أسلمت معارفنا إلَّا على يد ابن تيمية».

□ وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي: «كانت العلماء والصلحاء والجند والأمراء والتجار، وسائر العامة تحبه؛ لأنه منتصب لنفعهم ليلًا ونهارًا بلسانه وعلمه»[1] اهـ.

ومدرسة ابن تيمية مدرسة ربانية مباركة تخرّج من سادات العلماء الربانيين مثل ابن قيم الجوزية، وابن كثير، والحافظ الذهبي.. ولو لم يكن لهذه المدرسة من ثمرة إلَّا الإمام الرباني ابن قيم الجوزية لكفى هذه المدرسة فخرًا.

فكيف وقد أينعت ثمارها بقيام دولة التوحيد في عصرنا وقرننا في الديار السعودية على فكر وكتب ابن تيمية رحمه الله وجعل ذلك في ميزان حسناته.

عبد الله بن ياسين بن مكوك الجزولي العابد الزاهد مؤسس دولة المرابطين:

الشيخ عبد الله بن ياسين الجزولي ولد في قرية قرب أودغشت في طرف صحراء غانة تتلمذ على يد الشيخ وجاج بن زولو الذي أمره أن

(١) «شذرات الذهب» (٦/ ٨٠- ٨٥).

يسير إلى وطن الملثمين «موريتانيا» داعيًا ومصلحًا آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر، وكان رحمه الله متبعًا هدى السلف فحارب البدع وأصلح العقائد، وبنى رباطًا ربَّى فيه من دخله على الزهد والتقشف وتعليم الكتاب والسنة، وكان يرسل من رباطه بعوثًا إلى القبائل لترغيب الناس في الاتباع، واجتمع له من التلاميذ نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة، وقام عبد الله بن ياسين خطيبًا في تلاميذه نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة، وقام عبد الله بن ياسين خطيبًا في تلاميذه فوعظهم وذكّرهم بنعمة الله عليهم بأن هداهم إلى الصراط المستقيم وأن عليهم الآن أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وأن يجاهدوا في الله حق جهاده فقالوا: مرنا بما شئت تجدنا سامعين طائعين، ثم أمر هؤلاء المرابطين أن يخرجوا على بركة الله لينذروا قومهم ويخوّفوهم عقاب الله ويبلّغوهم حجته، «فإن تابوا ورجعوا إلى الحق فخلّوا سبيلهم، وإن أبوا ذلك وتمادوا في غيِّهم ولجوا في طغيانهم استعنَّا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين».

وتمكن من إخضاع قبيلة جدالة بعد قتالهم وذلك في سنة ٤٣٤هـ، ثم سار إلى لمتونة وقاتلهم حتى ظهر عليهم وأذعنوا إلى الطاعة والتوبة، وبايعوه على إقامة الكتاب والسنة. وكذا فعل بأهل مسوفة ثم باقي قبائل صنهاجة، وجعل يعلمهم القرآن وشرائع الإسلام، وجعل يحيى بن عمر أمير المرابطين فضرب عبد الله بن ياسين أعظم المثل في الزهد في المناصب والملك والمجد ولخّص دوره للمرابطين في قوله: «إنما أنا معلم دينكم».

ثم سار إلى مملكة غانة وخضعت مدينة أودغست سنة ٤٤٦ للمرابطين.

□ ولما اجتمع فقهاء سلجماسة ودرعة بالمغرب الأقصى سنة ٦٤٦هـ وكتبوا إلى عبد الله بن ياسين يرغبّونه في الوصول إلى بلادهم ليطهرها من المنكرات وشدة العسف من الأمراء. وعرفوه ما هم فيه من الذل والصغار من جرَّاء أميرهم مسعود بن وانودين المعزاوي، وكان هذا النداء مدعمًا بخطاب من شيخه وجاج يؤكد فيه ضرورة نجد أهل لسلجماسة ودرعة. واستطاع أن يردع أهل درعة وأن يقتل مسعود المغراوي بعد غزوه وقتاله سنة ٤٤٦هـ.

□ وبعد احتلال درعة دخل عبد الله بن ياسين سلجماسة وأقام بها وأصلح أحوالها، وأزال المنكرات، وقطع آلات اللهو، وأحرق الدور التي كانت تباع فيها الخمور، وأزال المكوس والمغارم، ومحا ما أوجب الكتاب والسنة.

□ ثم سار إلى قبائل وريكة وهيلات من قبائل المصامدة بأغمات فأمرهم ونهاهم، ثم سار إلى السوس وماسة، وتقدم المرابطون إلى تارودانت بالسوس وكان فيها قوم من الشيعة والروافض يدعون البجلية نسبة إلى عبد الله البجلي الرافضي فأخضوعهم للكتاب والسنة.

□ ثم سار إلى تامسنا [1] وكانت بها قبائل برغواطة وكانوا ذوي نحلة ضالة وعقائد فاسدة، ورأى ابن ياسين أن جهاد هؤلاء البرغواطيين المارقين عن الدين من أوكد الأمور، واعتبره من أولويات المرابطين لاستئصال شأفة هذا المنكر المستشري الذي استعصى على من حكموا

---

(١) تامسنا: سهل يقع إلى الشمال من وادي أم الربيع يمتد على ساحل المحيط من الرباط إلى الدار البيضاء وتُسَمَّى الآن بالشوية.

المغرب قبل ذلك من بني يفون.

واستشهد في قتالهم عبد الله بن ياسين بعد أن أصيب في هذه المعركة، وحُمِل إلى عسكره وبه رمق، فجمع أشياخ المرابطين ورؤساءهم وقال لهم: «يا معشر المرابطين! إنكم في أرض أعدائكم وإني ميت في يومي هذا فإياكم أن تجبنوا أو تفشلوا فتذهب ريحكم، وكونوا أعوانًا على الحق وإخوانًا في ذات الله تعالى»(١). ويوم مات رحمه الله ترك للمرابطين دولة تمتد من محدود نهر السنغال إلى وسط المغرب الأقصى لقد ترك عبد الله بن ياسين لأتباعه هدفًا ساميًا يعيشون من أجله هو إعلاء كلمة الله، وقد حرص عبد الله أن يتجلى هذا في كل أعمال المرابطين، فالنقود التي ضربوها منذ سنة ٤٥٠هـ مكتوب عليها الشهادتان والآية الكريمة ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) ﴾ [آل عمران]. وكان قوام منهج الالتزام بشرع الله في كل الأمور صغيرها وكبيرها. وقد أثمر ذلك المنهج أنمحاء البدع والفرق الضالة وتوحيد المغرب الأقصى مذهبيًّا على مذهب أهل السنة والجماعة لأول مرة في تاريخه (٢). وكتب المرابطون اسم الخليفة العباسي على سكتهم.

□ لقد كان عبد الله بن ياسين رحمه الله ذا علم واسع، وكان خطيبًا مفوّهًا بليغًا ومؤمنًا مخلصًا لرسالته متفانيًا في تحقيقها صابرًا على ما أصابه فيها.

□ وكان نموذجًا حيًّا لما يدعو إليه فقد كان كثير الصوم متورعًا لا

---

(١) «عبد الله بن ياسين» (ص٢٦)، و«روض القرطاس» لابن أبي زرع (ص١٣٢).
(٢) «عبد الله بن ياسين» لعبد الله بن كنون (ص٢٣).

يأكل إلَّا من الصيد أو عمل يده متقشفًا في المأكل والمشرب[(١)].

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جريرُ المجامع

ونختم بشيخ المالكية مالك الصغير أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن النفزي (ت ٣٨٦):

إمام المالكية في عصره وشيخ القيروان، وجامع المذهب، وشارح أقواله، وكان واسع العالم كثير الحفظ الرواية، وقَّافًا عند الدليل، جمع بين العلم والعمل والصلاح والتقوى، والحرص على نفع المسلمين، والزهادة في الدنيا.

□ قال أبو عبد الله الميروقي: «اجتمع فيه العلم والورع والفضل والعقل، شهرته تغني عن ذكره»[(٢)].

□ قال أبو القاسمي اللبيدي: «اجتمع عيسى بن ثابت العابد بالشيخ أبي محمد، فجرى بينهما بكاء عظيم وذكر لله عَزَّوَجَلَّ، فلما أراد فراقه، قال له عيسى: أريد أن تكتب اسمي في البساط الذي تحتك، فإذا رأيته دعوت لي، فبكى أبو محمد، وقال: قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]»[(٣)].

✍ فاللهم ارزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وسِرْ بنا على طريق الربانيين واحشرنا معهم.

---

(١) «روض القرطاس» (ص١٢٤).

(٢) «ترتيب المدارك» للقاضي عياض (٢/ ٤٩٣- ٤٩٤).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٤٩٦).

وقفات مضيئة في التربية مع الشيخ الدكتور محمد أمين المصري:

فضيلة الشيخ الدكتور محمد أمين المصري علم بارز واسم لا يُمحى، وقمة سامقة في قرننا.

ولد رحمه الله عام ١٩١٤م بدمشق، وحصل على الدكتوراه عام ١٩٥٩م في «معايير النقد عند المُحَدِّثين»، وفي عام ١٩٦٥ سافر إلى المملكة السعودية للتدريس في جامعة الملك عبد العزيز -كلية الشريعة- في مكة المكرمة، وقد شارك في تأسيس قسم الدراسات العليا فيها، وقبل وفاته بثلاث سنوات انتقل إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنور ١٩٧٤م رئيسًا للدراسات العُليا فيها، وكان له دور في وضع مناهجها.

□ يقول الدكتور محمد العبدة عن الشيخ محمد أمين المصري: «من الكتابات أو الآراء التي لا تبلى مع الزمن، ولا يذهب تأثيرها وأهميتها، ما سطره أو تحدث به الشيخ محمد أمين المصري رحمه الله؛ لأن هذه الكتابات كانت نابعة من القلب ومن همٍّ متجدد حول مستقبل الأمة، وحول تربية الفرد.

لم يكن الشيخ ممن يُزوِّقون الكلام، ولا يكثرون من التأليف، كان جلُّ اهتمامه تربية المسلم تربية الأحرار، تربية القادة، وكان هذا واضحًا في محاضراته ودروسه وأحاديثه.

إن الدعوة الإسلامية - بعد عشرات السنين- ما تزال بحاجة إلى تجديد في الأساليب وفي مناهج الدعوة، وإلى ثقافة تتيح للفرد الإبداع والإنتاج، وهذا ما كان يقلق الشيخ، وقد عاش فترة خصبة من المد الإسلامي، عاشها مدرسًا في الجامعات ومشرفًا على مناهجها، ومشاركًا

في الفكر والثقافة، وموجهًا للشباب، وكانت له نظرات تخالف بعض نظرات الآخرين، بل له شخصيته المستقلة في كثير من آرائه التربوية.

وقد عشتُ مع فضيلته رحمه الله قبل انتقاله للعمل في جامعة أم القرى والجامعة الإسلامية، وكانت دروسه المهمة تتركز في تفسير القرآن وفي السيرة النبوية.

وعشت معه في السنوات الأخيرة من عمره المبارك وهي السنوات التي كان فيها فضيلة الشيخ محمد أمين المصري رحمه الله رئيسًا للدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

وأعتقد أن هذه السنوات كانت من أخصب سِنِي حياته ليس من الناحية العلمية فحسب، ولكن من ناحية القلق والألم على ما آل إليه المسلمون في الوقت الحاضر، وتحريض الشباب على العمل، والتشديد على موضوع التضحية والجهاد.

لقد كان شديد النقد لنفسه ولحاملي لواء الدعوة الإسلامية بأنهم ليسوا على المستوى المطلوب، وأنهم لم يقدموا كل ما عندهم في سبيلها، ولو قدموا لكانوا معذورين، وأما الاعتذار بالواقع وأنه ليس بالإمكان أفضل مما هو موجود، هذا الاعتذار كان مرفوضًا عند الشيخ.

والفكرة التي كانت تؤرقه هي: أين الرجال الذين يتحملون المسؤولية، الذين بلغوا من الإخلاص والفهم والتضحية والثقافة مبلغًا يرفعون به هذه الأجيال إلى المستوى المطلوب.

وكان زائروه وتلامذته يلاحظون أن هناك مواضيع كان يلح عليها ويكررها ولا يسأم من تكرارها.

ويمكن أن نستخلص من مجموع ما كتب ودرس وحدث بعض ركائز أفكاره:

أولًا:

موضوع التربية، **والتركيز على تربية المنْزل وتربية الأم بالذات**، ويستشهد بصحابيات قدمن أولادهن للمعارك الإسلامية مثل الصحابية الجليلة عفراء، ويقارن بين هذه التربية وتربية الأمهات في هذا العصر والتي من أقصى أمانيها أن يتخرج ابنها موظفًا أو طبيبًا، وتصور له الحياة بأنها العيش الرغيد ولا يخطر على بالها أن تربي ابنها على الجهاد.

كما يتحدث كثيرًا عن تربية المدرسة، وينتقد طرق التربية التقليدية التي لا تزال في مدارسنا وجامعاتنا كنظام الامتحانات الذي يجعل الهدف من التعليم هو النجاح والشهادة بدل أن يجعل الهدف هو حب العلم.

ثم ينتقل الشيخ إلى تربية الشباب سواء في المدرسة أو المسجد أو المجتمع، ويؤكد هنا على ضرورة تربيتهم تربية القادة لا تربية العبيد، تربية الاستقلال لا تربية الخضوع والخنوع والمريدين بكل ما في الكلمة من معنى. فإن البعض يعجبه أن يتعلق به الأتباع تعلقًا أعمى، ويحلو لهم مغالاة الأتباع في تعظيمهم، ويغلب على هؤلاء الأتباع نسيان الفكرة ويصبح التعلق بالشخص ولو انحرف عن الفكرة.

• بينما التربية التي يريدها هي التربية القرآنية كما ربى رسول الله ﷺ أصحابه فكان لا يمتاز عنهم بشيء من ملبس أو مظهر أو مكان، وكان يكره أن يقوم له أصحابه وكان يستشيرهم في كل مناسبة، وعمل برأي الحباب بن المنذر في بدر، وسلمان الفارسي رضي الله عنهما في الخندق ويقول لهم: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم**».

ثانيًا:

الجهاد الذي تركه المسلمون وحوَّره وبدَّله المتعالمون المنهزمون، أمام ضغط الواقع وضغط الاستشراق الخبيث، وللشيخ هنا كلمة مأثورة وهي: «إن الطفل في الأسرة المسلمة يجب أن ينام على أحاديث الجهاد ويستيقظ عليها». ولذلك كان الذين لا يعرفونه يظنون أنه لا يتقن غير تفسير سورة الأنفال، وإنما كان يكررها لتأكيد هذا المعنى، كما كان يكثر من تفسير سور: آل عمران والتوبة والأحزاب لتضمنها صور المعارك الكبرى في حياة الرسول ﷺ. وله أبحاث قيمة في مثل هذا الموضوع مثل بحثه حول الحديث الضعيف أو الذي لا أصل له: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**»[1]، وكيف أثر هذا الحديث وأمثاله على نفسية المسلمين.

ثالثًا:

الأخطار الداخلية: هناك أمراض أصيب بها المسلمون، هي أمراض نفسية وعقلية تنخر في كيانهم وتسبب لهم الضعف. هذه الأمراض هي الخطر الداخلي.

إن أكبر المصائب أن يصاب الفرد بنفسه وأن يلقي التبعة دائمًا على غيره، ويعلق أخطاءه على مشجب الآخرين، وهذا يريحه من تأنيب الضمير وعتب العاتبين. ومن أكبر المصائب أن نبرر أخطاءنا ولا نعترف بها، نبررها بأسباب سطحية تافهة، ونسوغ ما نحن فيه ولا نعترف

---

(١) قال عنه ابن تيمية: لا أصل له، ونقل كلام ابن حجر عنه قال: هو من كلام إبراهيم ابن عبلة.

بعجزنا، ونلجأ إلى خداع النفس لكي تتهرب من الواقع. ومن المصائب أننا لا نبحث أمورنا بشكل جدي، بل نبحثها على مستوى السمر والتسلية وهو مرض استسهال الأمور.

□ يقول رحمه الله في أحد بحوثه: «اليأس القتَّال والخور المميت والثقة المفقودة كل هذه هي العدو الحقيقي والعقبة الكبرى التي تواجه المسلمين، أما العدو الخارجي فأمره يهون إذا استطعنا أن نغير ما بأنفسنا». هذا الموضوع كان يستأثر باهتمام الشيخ؛ لأنه يعتبر الأخطار الداخلية هي السبب الرئيسي لما حصل للمسلمين على مر العصور من تخلف.

وأعتقد هنا أنه في هذا الموضوع قد استفاد من كتابات المفكر الجزائري «مالك بن نبي» في سلسلة كتبه «مشكلات الحضارة» والتي تكلم فيها عن دور الحضارة عند المسلمين.

رابعًا:

كما كان ينعي كثيرًا على المسلمين الفهم غير الصحيح لبعض أحاديث رسول الله ﷺ وآيات القرآن الكريم؛ بحيث إنهم يجعلون من هذه الأحاديث تكأة لعجزهم وضعفهم فيردون أحاديث الفتن، وأن الأمر ليس له مرد، وأن كل زمان أسوأ من الذي قبله؛ ولذلك فلا داعي للعمل والتبليغ، هذا فضلًا عن احتجاجهم بالأحاديث الضعيفة أو الموضوعة التي توهن العزائم وتبرر القعود.

خامسًا:

لا بد من قلة تنقذ الموقف؛ قلة هي النخبة التي تستطيع حمل الأمانة، وحمل الأمانة بنفسه يفجر الطاقات. هذه النخبة يصفها في أكثر بحوثه،

يقول في رسالة «المعاني الدخيلة على التربية الإسلامية»: «فالأمة التي يفقد أبناؤها حمل الرسالة تفقد معاني الجهاد وتفقد قيمة الحياة. وحين لا يكون للأفراد رسالة يشغل الخواء القلبَ، وتمتد الشهوات وتستعلي الغرائز».

□ ويقول أيضًا من بحث حول تربية القادة: «إن حمل الرسالة يعطي الفرد قوة ما كان ليحلم بمثلها في الحالات العادية، والشعب في حال حمل الرسالة يستمر في النهوض، فإذا فترت هذه الروح كان سيره بقوة الدفعة الأولى إلى حين».

هذه بعض الأفكار الرئيسية التي كان الشيخ يهتم بها، ويكفي أنها ناصعة صحيحة ولا يزال المسلمون بحاجة إلى سماعها وفهمها»[١] اهـ.

١- التنشئة الاجتماعية غرض عظيم من أغراض التربية:

□ يقول الدكتور محمد أمين المصري: «كانت الثروة المادية هي العمود الفقري الذي تسعى الدول لتدعيمه وتقويته، غاضة النظر عن كل ما يضحى في سبيل ذلك، وأصبح اليوم الأمر على العكس تمامًا، إذ أصبحت ثروة الأمم والشعوب لا تقاس أبدًا بما تشتمل عليها أرضها من ذهب وفحم وحديد أو أرض خصبة، بل أصبح المقياس هو مدى قدح الأمة لزناد التفكير لدى أبنائها، وأصبح مفهوم الثروة البشرية أو الطاقة البشرية في كل مجتمع صالح المكانة الأولى، ونشأ عن هذا الاهتمامُ بمشكلة الأجيال القادمة، وأخلصت المجتمعات العناية بها والحفاظ بها والحفاظ

---

(١) مقدمة كتاب «المسؤولية» للدكتور محمد أمين المصري (ص٥- ١٠)، والمقدمة للدكتور محمد العبدة – طبع دار الأرقم بريطانيا- مكتبة الكوثر بالرياض، ودار الصفوة.

عليها ومنحها كل الفرص، لتنمو أحسن نمو يمكن أن تنموه ويجني المجتمع من وراء ذلك أطيب ثمراتها.

٢- التنشئة الاجتماعية هي سبيل التماسك الاجتماعي:

ثم إنه قد لوحظ أن تماسك المجتمع لا يتم إلَّا عن طريق عملية تنشئة اجتماعية خاصة، وهذه التنشئة إنما تتم في عقول الأفراد ونفوسهم، فهي داخلة في الناحية البشرية ولها مكانتها أهميتها في وحدة الأمة وتماسك المجتمع.

ويحدد العمليةَ الاجتماعية أهدافُ المجتمع، وإذا كنا نجد اختلافًا بين الأمم في عملية التنشئة الاجتماعية، فمرد ذلك إلى أهداف كل مجتمع من المجتمعات، وإلى طبيعة الفلسفة الاقتصادية والاجتماعية التي يقوم عليها كل مجتمع. فالتربية الغربية ترمي إلى الكشف عن مواهب أبنائها وتنمية هذه المواهب حتى تبلغ بها أقصى ما يمكن أن تبلغه، ولكن ذلك في سبيل المبادئ التي سيطرت على المجتمع والمثل التي تتطلع إليها الأمة والأهداف التي ترمي إليها.

٣- وظيفة المدرسة:

تتلخص المشكلة التربوية، بالبحث عن الوسائل الفعالة التي تتيح لكل فرد من أفراد الأمة، أن ينال قسطه من التربية والتعليم إلى أطول مدة، ليتيسر له الخروج إلى المجتمع مزودًا بالكفاءات الضرورية وذلك ليتم له غرضان: أولهما: النجاح في عيشه، والثاني: التعاون مع إخوانه. فوظيفة المدرسة التأثير في سلوك الأفراد تأثيرًا منظمًا يرسمه المجتمع ممثلًا في السلطات التعليمية العليا، وبذلك تقوم المدرسة بنقل الحضارة ونشر

الثقافة وتوجيه الناشئة، لتصل بهم إلى كسب العادات التي تساعدهم على التكليف الصحيح في المجتمع والتقدم بهذا المجتمع.

المدرسة وظيفتها بكلمة موجزة، الإشراف على عملية التنشئة الاجتماعية. وهذه التنشئة تتضمن التأثير في سلوك الأفراد التأثير الذي يريده المجتمع.

وتستعين المدرسة في سبيل ذلك بكل العلوم الإنسانية. ولعل من الخير أن نثبت هنا تقريرًا قدمه الأستاذ أبو الحسن علي الندوي حول موضوع التربية والمدارس يقول: «حضرات أصحاب المعالي وزراء التربية في الدول العربية الموقرة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد، فأنتهز فرصة اجتماعكم في البلد العربي الكويت لدراسة القضايا التعليمية في الحكومات العربية ووضع مخططات لها، فأقدم إليكم هذه الرسالة كمعنيٍّ بموضوع التعليم في الأقطار الإسلامية والشرقية، وكعضو متواضع في هذه الأسرة الكريمة، التي تلتقي على صعيد الإسلام وعلى صعيد الاهتمام بشؤون العالم العربي وعلى موضوع التعليم.

لقد أصبح من المقرر في كل بلد واع حريص على سلامته وشخصيته أن دور التربية ليست إلَّا جهازًا يغرس المعاني والأسس التي يؤمن بها هذا الشعب، الأسس التي درجت عليها أجياله، يعيش بها ويعيش فيها، في التاريخ الماضي وفي العالم المعاصر، فمن أول واجبات نظام التعليم في الأمة الواعية أن تغرس هذه العقائد والحقائق في قلوب الناشئة، وتغذي بها حتى يكون إيمانها إيمانًا علميًّا موضوعيًّا صادقًا، وحتى تتحمس في سبيل الدعوة إليها، والمثابرة عليها، وقد أصبح من المقرر عند أساطين

التعليم الحديث في الغرب: أن كل شعب من شعوب العالم، إنما يصوغ نظامه التعليمي وفق نظرية الحياة التي يؤمن بها. فيقول (سير برس) الذي كان يحتل المكانة الأولى بين رجال التربية في بريطانيا في مقال له كتبه لدائرة المعارف البريطانية: «لقد سلك الناس مسالك مختلفة للتعريف بالتربية، ولكن الفكرة الأساسية التي تسيطر عليها جميعًا: أن التربية هي الجهد الذي يقوم به آباء شعب ومربوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التي يؤمنون بها.

إن وظيفة المدرسة أن تمنح القوى الروحية فرصة التأثير في التلميذ، القوى الروحية التي تتصل بنظرية الحياة، وتربي التلميذ تربية تمكن من الاحتفاظ بحياة الشعب وتمديدها إلى الإمام».

□ إن «جون ديوي» الذي كان تأثيره في نظام التربية الأمريكي أكبر من تأثير كل رجل في هذا العصر، يقول في كتابه «الديمقراطية والتربية»: «إن الأمة إنما تعيش بالتجديد، وإن عملية التجديد تقوم على تعليم الصغار. إن هذه الأمة تُكَوِّن من الأفراد الأميين ورثة صالحين لوسائلها ونظرية حياتها، وتصوغهم في قوالب عقائدها ومناهج حياتها».

□ ويقول البروفسور «كلارك»: «مهما قيل في تفسير التربية فمما لا محيص عنه أنها تعني الاحتفاظ بنظرية سبق الإيمان بها، وعليها تقوم حياة الأمة وتجاهد في سبيل تخليدها. ونقلها إلى الأجيال القادمة».

لذلك ليس من المعقول ولا من الجائز أن تستورد أمة لها شخصيتها ورسالتها، ولها عقائدها ومناهج حياتها، ولها طبيعتها ونفسيتها، ولها تاريخها وماضيها، ولها محيطها الخاص وظروفها الخاصة، أن تستورد نظامًا

تعليميًّا من الخارج، ولا أن تكل وظيفة التعليم والتربية وتنشئة الأجيال، وصياغة العقول إلى أناس – مهما بلغوا من البراعة في التدريس، وإتقان اللغات والفنون- لا يؤمنون بهذه الأسس والعقائد، ولا يتحمسون لشرحها وتعضيدها.

□ يقول الأستاذ الأمريكي الدكتور «ج. ب. كونكن» في كتابه التعليم والتربية: «إن عملية التعليم ليست عملية تعاط وبيع وشراء، وليست بضاعة تصدر إلى الخارج أو تستورد إلى الداخل، إننا في فترات من التاريخ خسرنا أكبر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الانجليزية أو الأوربية إلى بلادنا الأمريكية».

وعلى هذا الأساس يتفق المعسكران الشرقي والغربي، وقد دل ما سبق من أقوال خبراء التعليم وقادة الفكر في أوربا وأمريكا على وجهة نظر هؤلاء إلى التربية، وأنها ليست إلَّا أداة مؤثرة لترسيخ العقيدة ونظرة الأمة إلى الحياة والكون، وتعميق جذورها في قلوب الناشئة ونفوسها، ونقل التراث العقلي والعقائدي والاجتماعي إلى الأجيال القادمة وإقناعها بضرورة الاحتفاظ بها والمثابرة عليها والجهاد في سبيلها.

أما المعسكر الشرقي الذي اشتهر بالثورة على جميع الأسس والقيم، ونقد القديم وبلبلة الأفكار، فإنه شديد التمسك بهذه النظرية للتوفيق بين التربية والعقيدة التي يختارها والفلسفة التي آمن بها، وإخضاع علم التربية لهذا الغرض وصياغته في قالبها صياغة دقيقة متقنة.

□ يقول عالم من كبار علماء الطبيعة في البلاد السوفيتية: «إن العلم الروسي ليس قسمًا من أقسام العلم العالمي «ديس» في البلاد السوفيتية

ولكنه قسم منفصل قائم بذاته يختلف عن سائر الأقسام كل الاختلاف.
إن سمة العلم السوفيتي الأساسية: أنه قائم على فلسفة واضحة متميزة.
إن أساس علومنا الطبيعية الفلسفة المادية التي قدمها ماركس وأنجلز وستالين».

ومن المآسي التي تحير العقل وتجرح القلب أن تظل الأقطار الإسلامية وحدها في فوضى تَعارُضٍ وغموض والتباس بين الحقائق التي تؤمن بها، وبين نظام التربية الذي تطبقه.

ولا تفكر في التوفيق بين الإيمان بهذه الحقائق وبين التربية التي تنفق عليها أكبر جزء من إمكانياتها. وكانت حريَّةً أن تكون أبعد الناس عن تلك الخطة التي تعيش فيها متطفلة على مائدة الأمم الأجنبية، وكانت حَرِيَّةً أن تزيل جميع العقبات في سبيل الوئام والتعاون بين العلم والدين..

إن المنقذ الوحيد للعالم من النهاية الأليمة التي ترتقبه هو وجود نظام للتربية يقوم على التوفيق بين العقيدة والثقافة، بين قوة العاطفة والتهاب جذوة الإيمان، وبين العلم الواسع والفكر النير، ومعرفة أحدث ما وصلت إليه الأجيال البشرية من تجربة واكتشاف.

□ وأقدم لكم العناصر التي تنافي هذه الغاية وترزأ هذه الأمة شخصيتها:

١- استيراد المناهج الدراسية والمواد التعليمية من الخارج.

٢- استيراد الأساتذة والمعلمين من أوربا وأمريكا الذين أقل ما يقال فيهم: إنهم لن يخلصوا في إنشاء الجيل الجديد على عقيدة الأمة.

٣- الاهتمام الزائد باللغات الأجنبية وإعطاؤها أكثر من حقها، فإنها

تنمو على حساب اللغة العربية. إن تدريس عدة لغات في وقت ما قد أصبح موضع بحث عند خبراء التعليم خصوصًا في المراحل الابتدائية والمتوسطة.

٤- وجود مدرسين لا يؤمنون بأهداف الأمة ونظرتها إلى الحياة. وكيف يصح أن يكون أمثال هؤلاء أساتذةً مربين وقادة موجِّهين، هذا شيء لا يقبله عقل ولا منطق»، انتهت كلمة الأستاذ الندوي بتصرُّف»[1].

التربية السليمة هي التي تساير الفطرة، والتوحيد مبدأ الفطرة:

المبدأ الأول الذي دعت إليه التربية الإسلامية وأوضحه رسول الله هو عبادة الله وحده وهو صفة الفطرة وصبغة الخالق جل وعلا لنفوس عباده، فلقد فطرهم على التوحيد وصبغهم بصبغة الإيمان.

• قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم**»[2].

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مولود إلَّا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء**[3]»[4].

* وقال الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ

---

(١) «المسؤولية» للشيخ محمد أمين المصري (ص١١٩- ١٢٥).

(٢) رواه مسلم واجتالتهم عن دينهم: أي حوّلتهم عنه.

(٣) الجمعاء: سالمة الأذن والجدعاء مقطوعتها.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الروم: ٣٠].

* وقال الله تعالى: ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [البقرة].

«على أنه لم تخل أمة من وجود غافلين غمرتهم تكاليف الحياة وأعباؤها فلم يجدوا من الفراغ ما يمكنهم من رفع رؤوسهم للنظر في الحقائق العليا، كما أنه لم تخل أمة من مفكرين ساخرين حسبوا الحياة لعبًا ولهوًا، وهم في الغالب من المترفين الذين لم يلقوا من عبر الحياة ما يهز قلوبهم وعقولهم. كما أنه لا ينكر أن عقائد قد استحدثت وصنوفًا من العبادات قد اخترعت، كل ذلك قد وقع، ولكن فكرة التدين في جوهرها كانت مسايرة لوجود الإنسان.

يقول معجم «لاروس» للقرن العشرين: «إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية. وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة، هي إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية».

ويقول أيضًا: «إن هذه الغريزة الدينية لا تختفي، بل لا تضعف ولا تذبل إلَّا في فترات الإسراف في الحضارة وعند عدد قليل جدًّا من الأفراد»[1].

□ وثمرة مبدأ الفطرة أنه ليس لبشر أن يستعلي في الأرض ويدعي الألوهية، فالغرض من دعوى الألوهية وعبادة الأوثان، استعباد الإنسان للإنسان، وتشريع الناس للناس من صميم دعوى الألوهية.

---

(١) «المسؤولية» (ص١٢٩).

وحين يدّعي الإنسان الألوهية ينحط إلى مرتبة دون مرتبة الأنعام، فما وجدنا حيوانًا يُنصِّب نفسه إلهًا لبقية الحيوانات، وما عثرنا على حشرة تدَّعي بين مثيلاتها أنها إلهًا من بينهم، فانحطَّ الإنسان إلى أدنى مرتبة.

وهذه الألوهية التي ادعاها فرعون والنمروذ، ليست بقاصرة عليهما، بل هنالك في كل زمان ومكان من يدعيها، وبلاد فارس كانت تخاطب ملوكها بلفظ: «خدا» ومعناها الإله، وكذلك شأن البيوتات الحاكمة في الهند كانت تدعي نسبتها إلى الآلهة.

«وألوهية الإنسان للإنسان أصل المصائب ومصدر البؤس والشقاء اللذين يصيبا الإنسان، والسبيل الوحيدة للنجاة، الكفر بالطواغيت جميعها والإيمان بالله العزيز الحميد.

هذا الإيمان هو الذي يحرر العقول والأفكار من أغلال العبودية التي يرسف فيها البشر وهو الذي يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

والنظام الإسلامي ليس فيه لأمير من أمراء المسلمين ولا لمجتهد ولا عالم من علمائهم ولا لمجلس تشريعي ولا لجميع المسلمين في العالم أن يغيروا نصًّا من نصوص الكتاب أو السنة في أي شأن من الشؤون، أما الأمور التي لا يوجد بشأنها في الشريعة حكم صريح فمردُّها إلى إجماع علماء المسلمين ومجتهديهم.

وعليه فإن مهمة الإسلام إنقاذ الإنسان من عبادة الإنسان وإنقاذ عقل الإنسان من الضلالات والأوهام. وما عبادة الإنسان للإنسان إلّا تسلط على قلب الإنسان وتسخير لعقله، وقد خلق الإنسان ليكون حرًّا ولتكون له قيمة الإنسان. فإذا استعبد قلبه وسخر عقله فقد قيمته الإنسانية، أدرك

ذلك أصحاب رسول الله إدراكًا عميقًا، وعبروا عنه تعبيرًا جليًّا حين وقف أفراد عاديون منهم أمام رستم قائد الفرس فقالوا له: «جئنا لنخرج الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»(١).

يا ابنَ أمِّي:

خُلِقْتَ طليقًا كطيْفِ النَّسيمِ	وحُرًّا كنُورِ الضُّحَى في سماهْ
تُغَرِّد كالطير أين اندفَعْت	وتشدو بما شاءَ وَحْيُ الإلهْ
وتمرَحُ بين وُرودِ الصَّباحِ	وتنعَمُ بالنُّورِ أَنَّى تراهْ
وتمْشِي كما شِئْتَ بينَ المُروجِ	وتقْطُفُ وَرْدَ الرُّبَى في رُباهْ
كَذا صَاغَكَ الله، يا ابنَ الوُجودِ	وأَلْقَتكَ في الكونِ هذي الحياةْ
فما لكَ ترضَى بِذُلِّ القيودِ	وتَحْنِي لمن كَبَّلُوك الجِبَاه؟
وتُسْكِتُ في النَّفْسِ صوتَ الحياة	القويَّ إذا ما تَغَنَّى صَدَاه؟
وتُطبِقُ أجفانك النَّيِّرات عن الفَـ	ـجْرِ، والفَجْرُ عَذْبٌ ضِيَاهْ
وتَقْنَعُ بالعيشِ بين الكهوفِ	فأين النَّشِيدُ؟ وأينَ الإِياهْ؟(٢)
أتخشَى نشيدَ السَّماءِ الجميلَ؟	أَتَرْهَبُ نورَ الفَضَا في ضُحَاهْ؟
أَلَا انهض وَسِرْ في سبيلِ الحياةِ	فمنْ نامَ لم تنتظِرْه الحياهْ

(١) «المسؤولية» (ص١٤٤)، وهذه المقولة للصحابي الجليل ربعي بن عامر رضي الله عنه.

(٢) الإياه: الشعاع.

ولا تَخْــش ممــا وراءَ الــتِّلاعِ فــما ثَــمَّ إلَّا الــضُّحَى في صِــباهْ
وإلَّا ربيــعُ الوجــودِ الغريــرُ (١) يُطَــرِّزُ بــالوردِ ضَــافي رِدَاهْ
وإلَّا أريُــجُ الزُّهــورِ الــصِّباحِ ورَقْــصُ الأشــعَّة بــين المِيــاهْ
وإلَّا حَمَــامُ المــروجِ الأنيــقِ يُغَــرِّدُ منْطَلِقًــا في غِنــاهْ
إلى النــور! فــالنُّورُ عــذبٌ جميــلٌ إلى النُّــورِ فــالنُّورِ صــفة الإلــهْ

إلى طواغيت العالم وطُغاته:

ألا أيُّهــا الظــالمُ المُــسْتَبِدُّ حبيــبُ الظــلام، عَــدُوُّ الحيــاةْ
سَخَرْتَ بأنَّــاتِ شَــعْبٍ ضعيفٍ وكَفُّــكَ مخْــضوبةٌ مِــن دِمــاهْ
وَسِرْتَ تُــشَوِّه سَــحْرَ الوجــودِ وتبــذُرُ شــوكَ الأســى في رُبــاهْ
رُوَيْــدَكَ! لا يَخْــدَعَنْك الربيــعُ وصَحْوُ الفضاءِ، وضوءُ الصباحْ
ففي الأُفق الرَّحْــبِ هَــوْلُ الظَّــلامَ وقَصفُ الرُّعودِ، وعَصْفُ الرِّيَاحْ
حــذارِ! فَتَحْــتَ الرَّمــادِ اللَّهِيــبُ ومَــنْ يَبْــذرِ الــشَّوْك يَجْنِ الجِرَاحْ
تَأمَّــل! هنالِــكَ.. أنَّــى حَــصَدْتَ رؤوس الــورى، وزهــورَ الأمــلْ
ورَوَّيــتَ بالــدَّمِ قلــبَ الــترابِ وأشربتَــهُ الــدَّمْعَ حتــى ثَمِــل (٢)
ســيجرُفُكَ الــسَّيْلُ سَــيْلُ الــدماءِ ويأكُلُــكَ العَاصِــف المُــشْتَعِلْ

---

(١) الغرير من العيش: ما لا يُفزِّع أهله. ويريد هاهنا الحُسن.

(٢) ثَمِل: سكر.

إلى عُلماءَ التربية.. رَبُّوا الشعوب على الخُضوعِ لتشريع الله فتشريعُ البشر ظلمة وجاهلية:

* قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)﴾ [المائدة].

* وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك].

□ قال الدكتور محمد أمين المصري: «من أمثلة فشل البشر في التشريع – حتى فيما يجب أن يحرم – تحريم الخمر في أمريكا؛ ذلك أنه لم يرتكز على أساس الإيمان بالله واليوم الأخر.

لقد أيقنت الأمة الأمريكية في يوم من الأيام من الوجهتين العقلية والعلمية، أن الخمر مضرة بالأجسام مفسدة للقوى الفكرية هادمة لبناء المدنية الإنسانية، فأصر الرأي العام الأمريكي على حكومته أمام هذه المفاسد أن تضع قانونًا يمنع شرب الخمر، فقررت الحكومة وضع قانون يمنع الناس من شرب الخمر؛ ولكن ما الذي تم بعد ذلك؟

إن الذين وضعوا القانون أنفسهم، لم يلبثوا أن طفقوا يبحثون عن الوسائل التي يصلون بها إلى الخمر من الطرق الخفية المستوردة، وبلغ التفنن في ذلك مبلغًا عظيمًا وأصبح عدد الذين يتعاطونها أكثر بكثير مما كان من قبل، وفشا بسبب الضغط والإكراه والوسائل الخفية أنواع من المنكرات والفواحش لم تكن معروفة من قبل. وكل ذلك قد اضطرهم إلى نقض ما أبرموه وحل ما عقدوه، وعادت الضارة عندهم نافعة. وهنا يتساءل الناظر كيف عادت الضارة نافعة؟ أكان ذلك بدليل علمي أم عقلي؟

أنها النفس الأمارة بالسوء واتخاذ الهوى إلهًا، وإنه لمثال بعيد المرمى

يضع بين يدي المتأمل المنصف نموذجًا من نماذج تصرفات هذا الإنسان حين يريد أن يشرع بعقله، وأن تكون قوانين نظامه في صيانة حياته تبعًا لهواه.

وإنها لتجربة قامت بها أمة من أعلى الأمم شأنًا في التقدم الحضاري على مرأى منا ومسمع، وفي التاريخ تجاربُ كثيرة توضح لنا أن الإنسان لا يستطيع أن يستقل بالتشريع لنفسه؛ ذلك أنه معرض لخطرين: أولهما عبادة الآلهة الكاذبة، وثانيهما النزعات الشيطانية الكامنة في نفسه والشهوات الجاهلية، ولذا كان لا بد من هداية للإنسان منذ بدء أمره وتحديد حريته بالحدود التي تصلح لفطرته، وإعلامه بأن هذه الحدود من عند علام الغيوب الذي يعلم ما يصلح له. فإذا انتقلنا بعد هذا إلى تحريم الخمر لدى المسلمين، وقد كان العرب شديدي الولوع، عظيمي التعلق بها، فلما نزل تحريمها قال عمر: «انتهينا يا رب»، وقال أنس: «حرمت ولم يكن يومئذٍ عيش أعجب منها، وما حرم عليهم شيء أشد من الخمر. قال: فأخرجنا الحُباب إلى الطريق فصببنا ما فيها؛ ولقد غمرت أزقة المدينة بعد ذلك حينًا كلما مطرت استبان فيها لون الخمر وفاحت ريحها»[1].

أيها المُرَبون: إنْ أردتم فلاحَ هذه الأمة فربُّوا شباب الأمة على تنمية روح المسؤولية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهر بالحق بضوابطه، وتكافؤ الفُرص:

للقيادة مكانتها وحبها واحترامها، ولكن الإسلام أوجد الانسجام

(١) «المسؤولية» (ص١٤٦- ١٤٧) وانظر كتاب «نحنُ والحضارة الغربية» للأستاذ أبي الأعلى المودودي (ص٤٣) بين الشريعة الرّبانية والقانون الوضعي.

الكامل بين طاعة القيادة واحترامها وامتثال أمرها ما دامت تُمثل الفكرة الإسلامية تمثيلًا صحيحًا، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وبين تربية الأفراد على حمل روح التَّبعة فهي طاعة واعية لا يذوب فيها الأفراد في القيادة، وجهادٌ في سبيل العقيدة فكم تكن تربية الإسلام تربية أتباعٍ تذوب شخصيَّتهم في شخص القائد ويزداد ارتباطهم بالقائد وتعلَّقهم به وثقتهم به حتى تضيع أنفسهم إذا فقد القائد، وليست من التربية التي يصبح حب القيادة فيها هوى يعمي ويصم، ولكنه حب واع يقظ ذلك أن القيادة تحب وتطاع بمقدار امتثالها لأمر الله وتعلقها به.

وهكذا كان عتاب الله جل شأنه للمؤمنين في غزوة أحد منبهًا إلى هذه المسألة لافتًا الأنظار إليها مقررًا أن تعلق المؤمن إنما هو بالمبدأ والفكرة والعقيدة، وأن جهاد المؤمن إنما هو في سبيل المبدأ والعقيدة، فإذا فقد القائد أو غاب أو مات أو قتل، لم يصح أن يبطئ المؤمن أو يتقاعس أو يتخاذل عن نصرة الدعوة والموت في سبيلها.

* قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران].

والانقلاب على الأعقاب كناية عن ترك الدعوة أو فتور العزيمة عن الجهاد في سبيلها. ومعنى الآية الكريمة أن من كان على يقين من دينه وبصيرة من ربه، لا يرتد بموت الرسول ﷺ أو قتله، ولا يفتر عما كان عليه؛ ذلك لأنه يجاهد لربه لا للرسول ﷺ، وكما قال أنس بن النضر رضي الله عنه عم أنس ابن مالك - يوم أحد حين أرجف بقتل رسول الله ﷺ وشاع

الخبر وانهزم المسلمون وبلغ إليه تقاول بعضهم: ليت فلانًا يأخذ لنا أمانًا من أبي سفيان. وقول المنافقين: لو كان نبيًّا ما قتل قال: يا قوم إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد حي لا يموت وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله، قوموا فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه. ثم قال: اللهم إني اعتذر إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شد بسيفه وقاتل حتى قُتِلَ رضي الله عنه.

□ عن أنس رضي الله عنه قال: «غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع؛ فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال: «اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين-، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أُحُد».

قال سعد رضي الله عنه: «فما استطعت يا رسول الله، ما صنع».

قال أنس رضي الله عنه: «فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل، وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد إلَّا أخته ببنانه».

□ قال أنس رضي الله عنه: «كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]»[1].

كانت تربية أصحاب رسول الله ﷺ تربية الطاعة التامة للقيادة،

---

(١) أخرجه البخاري- كتاب الجهاد- باب قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب].

ولكنها في الوقت نفسه تربية على القول بالحق والجهر به أينما كانوا لا يخشون في الله لومة لائم.

□ وعن عبادة بن الصامت ﵁ قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»[1].

فهذه التربية التي تلتزم الطاعة في المعروف ليست طاعة عمياء ولكنها طاعة واعية مبصرة تعرف الحق وتلتزم الطاعة في سبيله، وتقول بالحق وتجهر به أينما كانت لا تخشى في الحق لومة لائم.

في هذه التربية تنمو لدى الأفراد روح طلب الحق وإيثاره على الآباء والأبناء والأهواء، ويتبع ذلك قوة شخصية الأفراد واضطلاعهم بحمل التبعات والمسؤوليات»[2] اهـ.

إن التربية على الصراحة بالحق والجهر به بضوابط أهل السُّنَّة والجماعة تربية تهدف إلى إنشاء قادة يستطيعون أن يضطلعوا بأعباء القيادة إذا فقدت القيادة. وتربية محمد ﷺ هي القدوة الصحيحة الكاملة للتربية الإسلامية؛ وكل تربية تبعد عن سبيل هذه التربية تعتبر منحرفة بمقدار ابتعادها. في التربية الإسلامية يشعر كل فرد بأنه مسؤول عن الدعوة الإسلامية حتى لو كان وحده ولم يكن هنالك أحد يعضده، وكل فرد في الجماعة مسؤول عن وظيفته الخاصة ومسؤول أيضًا عن سير الجماعة كلها

---

(١) متفق عليه.

(٢) «المسؤولية» (ص ١٥١ – ١٥٤).

ولأدنى فرد في هذه الجماعة أن يقف أمام أمير الجماعة أو قائدها ليدلي برأيه وليعارض أي رأي أو قول أو فعل يجد فيه خطأ.

● التربية الإسلامية لا تفرق بين طبقات المجتمع وتقرِّر مبدأ «تكافؤ الفرص» فالناس في المجتمع الإسلامي سواسية ليس لأحد فضل على آخر إلَّا بالتقوى عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليس لأحدٍ على أحدٍ فضلٌ إلَّا بالدِّين، أوْ عَمَل صالح..»**[(١)].

● وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله قد أَذهب عنكم عَبِّيَّة الجاهلية، وتعاظُمَها بآبائها، فالناسُ رجلان: رَجُلٌ بَرٌّ تَقِيٌّ كريمٌ على الله، وفاجِرٌ شقِيٌّ هَيِّنٌ على الله، والناسُ بنو آدم، وخُلِقَ آدمٌ مِن تراب»**[(٢)].

□ قال الدكتور محمد أمين المصري: «وفي مثل هذه التربية لا يحول حائل من جهة النسب أو المكانة أو الحرفة بين فرد أو جماعة وبين بلوغ ما تؤهله له كفاءته الذاتية وسجاياه وملكاته، ولا يحال بين أي فرد وتنمية مواهبه هذه والبلوغ بها أعلى الدرجات.

فلكل فرد من أفراد المجتمع أن يرتقي ما شاء الله له أن يرتقي، ولكل فرد أن يبلغ ذروة ما يؤهله له ما حباه الله به من مواهب واستعدادات».

---

(١) صحيح: رواه البيهقي في «شعب الإيمان»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٠٣٨)، و«صحيح الجامع» (٥٤١٩).

(٢) حسن: رواه الترمذي عن ابن عمر، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٦٧)، وانظر «الترغيب والترهيب» (٣/ ٢١، ٣٤).

والأمثلة الواضحة في هذا المضمار:

الموالي وأبناؤهم، فقد نصبوا ولاة على الأقاليم وقوادًا للجنود وقد اتبع أمرهم شيوخ البيوتات العليا الشريفة وعاشوا تحت ولايتهم راضين غير كارهين، وكذلك أصبح كثيرون ممن كانوا من قبل في مهن ضئيلة أئمة للناس، وغدا النساجون والبزازون أئمة يفتون الناس، وكل هؤلاء يعدون من علماء المسلمين ومشيخة السلف الصالح»[1].



(١) «المسؤولية» (ص١٥٨ - ١٥٩).

علو الهمة في التزكية

التزكية لُغَةً:

التزكية في اللغة مأخوذة من «زكا يزكو زكاة» أي: نَمَا وطَهُرَ؛ فالتزكية هي النَّمَاء والطهارة والبركة[١].

□ والتزكية هي تطهير النَّفْس من نزعات الشر والإثم، وتنمية فطرة الخير فيها مما يؤدي إلى استقامتها وبلوغها درجات الإحسان»[٢].

□ ونُسِبت التزكية إلى الله سبحانه بمعنى الهداية والتوفيق في الدنيا، ومنه قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٩]، كما نُسِبت إليه سبحانه في الآخرة بمعنى التطهير للمؤمنين من دَنَس الذنوب، ومنه قوله تعالى عن الكُفَّار: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة].

□ ونُسبت التزكية إلى العبد؛ لأنه يزكي نفسه بالإيمان والمجاهدة، وهي مقصودنا في الكلام.

* ولقد أقسم الله عَزَّ وَجَلَّ أحد عشر قسمًا متتاليًا ما أتت إلَّا في موضع واحد من كتابه الكريم أن فلاح النفس بتزكيتها فقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ

---

(١) «لسان العرب» (١٤/ ٣٥٨)، و«المفردات في غريب القرآن» للأصفهاني (ص٢١٣).

(٢) «منهج الإسلام في تزكية النفس وأثره في الدعوة إلى الله تعالى» للدكتور أنس أحمد كرزون (ص١٦)- دار ابن حزم.

أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس].

ومن زكى نفسه ذاق طعم الإيمان:

• قال ﷺ: «**ثلاث من فَعَلهُنَّ فقد ذاق طعم الإيمان: مَنْ عَبَد الله عز وجل وحده بأنه لا إله إلَّا هو، وأعطى زكاة ماله طيِّبةً بها نفسُه في كل عام، ولم يُعْط الهَرِمَة ولا الدَّرنة، ولا المريضة، ولكن من أواسط أموالكم، فإن الله عز وجل لم يسألكم خيرها ولم يأمركم بشرِّها، وزكَّى نفسه**». فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال: «**أن يعلم أنَّ الله عز وجل معه حيث كان**»[1].

□ وفسَّر التزكية بأحد مقامات الإحسان «وهو أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان».

• وكان النبي ﷺ: «**اللهم آت نفسي تقواها، وزكِّها أنتَ خيرُ مَنْ زكَّاها، أنتَ وليُّها ومولاها**»[2].

التزكية هي التقوى بنص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ:

التزكية هي التقوى لا شيء غيرها بنص كتاب الله والحديث السابق مباشرة.

* قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس].

* وقال تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم]،

---

(١) صحيح: أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (١/ ٢٠١)، والبيهقي في «السنن» (٤/ ٩٥)، وصححه في «الصحيحة» رقم (١٠٤٦).

(٢) رواه مسلم (١٧/ ٤١- نووي) بزيادة في أوله وآخره، وأحمد (٤/ ٣٧١)، (٦/ ٢٠٩) بلفظ: «**رب أعط نفسي تقواها**» من حديث زيد بن أرقم.

وقوله ﷻ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ [الليل]، فهذه الآيات نص في أن تزكية النفوس هي تقوى الله.

معنى التزكية والتقوى:

لما كانت التقوى هي عين التزكية نذكر هنا معناها:

□ سأل عمر بن الخطَّاب أُبيَّ بن كعب عن التقوى؟ فقال أبي: أمَا سلكت طريقًا ذا شوك؟ قال عمر: بلى. قال أُبَيّ: فما عملتَ؟ قال: شمَّرتُ واجتهدت. قال أُبَيٌّ: فذاك التقوى.

□ وأخذ هذا المعنى ابن المعتزّ فقال:

خَلِّ الذُّنوبَ صغيرَها وكبيرَها فَهُوَ التُّقَى
واصنَعْ كَماشٍ فَوْقَ أَرْ ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ ما يَرَى
لا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إن الجبالَ مِن الحَصَى [(1)]

أصل التقوى أن يعلم العبد ما يتَّقِي ثم يتَّقِي:

□ ذكر معروف الكرخي عن بكر بن خنيس قال: «كيف يكون مُتَّقِيًا مَن لا يدري ما يتقي؟ ثم قال معروف الكرخي: إذا كنتَ لا تُحْسِنُ أن تتقي أكلتَ الرِّبَا، وإذا كنتَ لا تُحسِن أن تتقي لقيتك امرأة فلم تغضَّ بصرك، وإذا كنتَ لا تُحسِنُ أن تتقي وضعت سيفك على عاتقك»[(2)].

□ وعن بكر المزني؛ قال: «لما كانت فتنة ابن الأشعث؛ قال طلق بن حبيب: اتقوها بالتقوى. فقيل له: صِفْ لنا التقوى. فقال: «العمل

---

(١) «منهج الأنبياء في تزكية النفوس» (ص٢٨) لسليم الهلالي – دار ابن عفان.
(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص١٥٠).

بطاعة الله، على نورٍ من الله. رجاء ثواب الله، وترك معاصي الله، على نور من الله؛ مخافة عذاب الله».

□ قال الإمام الذهبي مُعَلِّقًا: «أَبْدع وأَوْجز؛ فلا تقوى إلَّا بعمل، ولا عمل إلَّا بتروٍّ من العلم والاتباع، ولا ينفعُ ذلك إلَّا بالإخلاص لله، لا ليُقال: فلانٌ تاركٌ للمعاصي بنور الفِقه، إذ المعاصي يفتقر اجتنابها إلى معرفتها، ويكون التَّرْك خَوْفًا من الله، لا ليُمْدَح بتركها، فمنْ داوَم على هذه الوَصيّة فقد فاز»[1].

□ وقال الإمام أحمد: التقوى هي ترْك ما تهْوَى لِمَا تخشى.

□ وقيل: هي أن لا يراك حيث نهاكَ، ولا يفقدك حيثُ أمرك.

□ وقيل: هي عِلْمُ القلب بقُرْب الربِّ.

□ وقيل: هي الخوف من الجليل، والرِضا بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل.

□ وقال ابن القيم رحمه الله: «وأما التقوى فحقيقتها العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا، أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به إيمانًا بالأمر وتصديقًا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيمانًا بالنهي وخوفًا من وعيده، كما قال طلق ابن حبيب: «إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى. قالوا: ما التقوى؟ قال: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله». وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى، فإن كل عمل لا بد له من مبدإ وغاية، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتى يكون مصدره عن الإيمان فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض لا

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٦٠١).

العادة ولا الهوى ولا طلب المحمدة والجاه وغير ذلك، بل لا بد أن يكون مبدأه محض الإيمان وغايته ثواب الله وابتغاء مرضاته وهو الاحتساب.

• ولهذا كثيرًا ما يقرن بين هذين الأصلين في مثل قول النبي ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا**»[(١)]، «**ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا**»[(٢)] ونظائره. فقوله: «**على نور من الله**» إشارة إلى الأصل الأول وهو مصدر العمل والسبب الباعث عليه. وقوله: «**ترجو ثواب الله**» إشارة إلى الأصل الثاني، وهو الاحتساب، وهو الغاية التي لأجلها توقع العمل ويقصد به»[(٣)].

□ قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه ، فتقوى عقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه، وتارة تضاف التقوى إلى اسم الله عز وجل، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)﴾ [المائدة].

* وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)﴾ [الحشر].

* فإذا أضيفت التقوى إليه سبحانه وتعالى فالمعنى اتقوا سخطه وغضبه وهو أعظم ما يتقي، وعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوي والأخروي،

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١١٥) الصوم.

(٢) رواه البخاري (٤/ ٢٥٥) فضل ليلة القدر، ومسلم (٦/ ٤٠، ٤١) صلاة المسافرين.

(٣) «الرسالة التبوكية» بتحقيق أشرف عبد المقصود ونشر مكتبة التوعية الإسلامية (ص١٥ - ١٧).

قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨].

* وقال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر] فهو سبحانه أهل أن يُخشى ويُهاب ويُجَلّ ويُعظَّم في صدور عباده، حتى يعبدوه ويطيعوه، لما يستحقه من الإجلال والإكرام، وصفات الكبرياء والعظمة وقوة البطش.

* وتارة تضاف التقوى إلى عقاب الله، أو إلى مكانه كالنار، أو إلى زمانه كيوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة:].

* وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة]، ويدخل في التقوى الكاملة فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات، وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات وترك المكروهات.

* قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾(1) [البقرة].

□ وقال العلامة نعمان بن محمود الألوسي رحمه الله: «وفي «تحفة الإخوان»: التقوى إمتثال الأوامر واجتناب النواهي، ولها ثلاث مراتب:

الأولى: التوقي من العذاب المخلد بالتبري من الشرك، وعليه قوله

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص١٤٨- ١٤٩) باختصار.

تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦].

والثانية: التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم، وهو المتعارف بالتقوى في الشرع، وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ [الأعراف: ٩٦] وعلى هذا قال عمر بن عبدالعزيز رضي الله تعالى عنه: التقوى ترك ما حرم الله وأداء ما افترض الله، فما رزق الله بعد ذلك فهو خير إلى خير.

الثالثة: أن يتنزه عما يشغل سره عن الله تعالى، وهذه هي التقوى الحقيقية المطلوبة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: ألَّا ترى نفسك خيرًا من أحد»[1].

□ وقال الغزالي رحمه الله: «اعلم أولًا - بارك الله في دينك وزاد في يقينك- أن التقوى في قول شيوخنا رحمهم الله هي تنزيه القلب عن ذنب لم يسبق عنك مثله، حتى تحصل لك من القوة والعزم على تركه وقاية بينك وبين المعاصي».

* فإذن لما حصلت وقاية بين العبد وبين المعاصي من قوة عزمه على تركها، وتوطين قلبه على ذلك، فيوصف حينئذ بأنه متقٍ، ويقال لذلك التنزيه والعزم والتوطين: التقوى. والتقوى في القرآن: تطلق على ثلاثة أشياء: أحدها بمعنى الخشية والهيبة. قال الله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]،

(١) «**غالية المواعظ** ومصباح المتَّعظ وقبس الواعظ» (٢/٤٨) دار المعرفة. وقول ابن عمر رضي الله عنهما يسير إلى نوع من التقوى، وليست التقوى الكاملة، إذ إنه يشير إلى نوع من الزهد، وهو الزهد في النفس، وهو أقصى وأعلى الزهد.

والثاني: بمعنى الطاعة والعبادة قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

□ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أطيعوا الله حق طاعته».

□ وقال مجاهد: «هو أن يطاع فلا يعصى، وأن يُذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر».

والثالث: بمعنى تنزيه القلب عن الذنوب، فهذه هي الحقيقة عن التقوى دون الأولين، ألا ترى أن الله يقول: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ [النور] ذكر الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى، فعلمت أن حقيقة التقوى معنى سوى الطاعة والخشية، وهي تنزيه القلب عما ذكرناه، ثم قالوا: منازل التقوى ثلاثة:

تقوى عن الشرك، وتقوى عن البدعة، وتقوى عن المعاصي الفرعية، ولقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في آية واحدة وهي قوله جل من قائل: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾ [المائدة: ٩٣].

فالتقوى الأولى عن الشرك، والإيمان الذي في مقابلتها التوحيد، والتقوى الثانية من البدعة والإيمان الذي ذكر معها إقرار عقود السنة والجماعة، والتقوى الثالثة عن المعاصي الفرعية، ولا إقرار في هذه المنزلة فقابلها بالإحسان وهو الطاعة والاستقامة عليها، فتكون منزلة السنة، ومنزلة استقامة الطاعة.

قال: وأنا وجدتُ التقوى بمعنى اجتناب فضول الحلال»[1].

(١) «التقوى» للشيخ أحمد فريد (ص٧- ١١)- طبع دار العقيدة.

١- التزكية والتقوى وصية الله عَزَّ وَجَلَّ للأولين والآخرين:

* قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

□ قال الغزالي: «أليس الله تعالى أعلم بصلاح العبد من كل أحد، أوَليس هو أنصح له وأرحم وأرأف من كل أحد، ولو كانت في العالم خصلة هي أصلح للعبد، وأجمع للخير، وأعظم للأجر، وأجل في العبودية، وأعظم في القَدْر، وأولى بالحال، وأنجح في المآل، من هذه الخصلة التي هي التقوى، لكان الله تعالى أمر بها عباده، وأوصى خواصه بذلك لكمال حكمته وسعة رحمته، فلما أوصى بهذه الخصلة الواحدة، وجمع الأولين والآخرين من عباده في ذلك واقتصر عليها، علمت أنها الغاية التي لا متجاوز عنها، ولا مقصود دونها، وأنه عَزَّ وَجَلَّ قد جمع كل نصح ودلالة وإرشاد وتنبيه وتأديب وتعليم وتهذيب في هذه الخصلة الواحدة، كما يليق بحكمته ورحمته، وعلمت أن هذه الخصلة التي هي التقوى هي الجامعة لخيري الدنيا والآخرة الكافية لجميع المهمات المبلغة إلى أعلى الدرجات.

وهذا أصل لا مزيد عليه، وفيه كفاية لمن أبصر النور واهتدى وعمل بذلك واستغنى، والله ولي الهداية والتوفيق بمنه»[١].

٢- دعوة الأنبياء إلى تزكية النفوس:

لما كانت التقوى هي التزكية فقد دعا جميع المرسلين أقوامهم إلى تحقيقها والسير على هداها:

---

(١) «منهاج العابدين» (ص٧٢- ٧٣) باختصار.

* فهذا نوح عليه الصلاة والسلام، أول رسول إلى الناس، يخاطب قومه قائلًا - كما أخبر الله جل جلاله عنه -: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠)﴾ [الشعراء].

* وهذا هود عليه السلام ينذر قومه بالأحقاف؛ قائلًا - كما أخبر الله عنه -: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)﴾ [الشعراء].

* وكذلك صالح عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١)﴾ [الشعراء].

* ولوط عليه السلام كذلك: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥)﴾ [الشعراء].

* وشعيب عليه السلام كذلك: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ

شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الشعراء].

* وموسى عليه السلام: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف].

* وقول موسى عليه السلام لفرعون؛ كما أخبر تعالى عنه: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات].

* وعيسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ [الزخرف].

* وقال تعالى مخبرًا أيضًا عنه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران].

* وهذا ما سار عليه جميع المرسلين؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون].

٣- التزكية ركن ركين في دعوة نبينا ﷺ، بل هي رُبْع الرسالة المحمَّدِيَّة :

نُسبت التزكية إلى رسولنا ﷺ؛ لأنه المُربِّي والمُزكِّي لأمته ومرشدها إلى كل خير، والتزكية هي أصيل أصيل في دعوة رسولنا ﷺ، بل هي رُبع الرسالة المحمدية.

* قال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [البقرة].

* وقال حلَّ ثناؤه: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران].

* وقال تبارك اسمه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة].

* ومن ثم؛ فلقد كانت هذه المهمة النبويَّة ركنا في دعوة أبينا إبراهيم ﷺ كما أخبر الله عنه: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة].

٤- التزكية والتقوى هي وصية النبي ﷺ لأمته :

• عن العرباض بن سارية قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح فوعظنا موعظةً بليغةً ذَرفت منها العيون ووجِلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأنها موعظة مودع فأوصنا فقال: «**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبدًا حبشيًّا، فإنه من يعش منكم فسيرى**

اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»[١].

• وعن أبي ذر جندب بن جنادة وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: **«اتق الله حيث ما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»**[٢].

وقوله ﷺ: **«حيثما كنت»** أي: في السر والعلانية، حيث يراه الناس وحيث لا يرونه.

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يومًا لأصحابه: **«من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن، أو يعلم من يعمل بهن؟»**، قال أبو هريرة: قلت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي وعد خمسًا فقال: **«اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا، ولا تكثر الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب»**[٣].

• وعن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٦- ١٢٧)، وأبو داود (٤٥٨٣) السنة، والترمذي (٢٦٧٦) العلم، وابن ماجه (٣٤)، والدارمي (١/ ٤٤- ٥٤) المقدمة، والبغوي (١/ ٢٠٥) شرح السنة وقال الترمذي: «حسن صحيح». وصححه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٨/ ١٥٥) البر وقال: هذا حسن صحيح، وأحمد (٥/ ١٥٨)، وحسنه الألباني (١٦١٨) صحيح الترمذي.

(٣) رواه الترمذي (٩/ ١٨٣- ١٨٤) الزهد وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلَّا من حديث جعفر بن سليمان، ورواه أحمد (٢/ ٣١٠) وابن ماجه (٤٢١٧) الزهد بمعناه وحسنه الألباني وكذا في تحقيق «جامع الأصول».

فقال: «**اتقوا الله وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم**»(١).

• وعن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أوصيك بتقوى الله تعالى فإنها رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، فإن رَوحُك في السماء وذِكرُك في الأرض**»(٢).

• وعن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلانيته، وإذا اسأت فأحسن، ولا تسألن أحدًا شيئًا، ولا تقبض أمانة، ولا تقض بين اثنين**»(٣).

• وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أوصيك بتقوى الله والتكبير على كل شرف**»(٤).

• ولعظم التزكية ولكونها هي التَحَلِّي بمكارم الأخلاق وأحسنها كان النبي ﷺ يدعو بها في دعاء الاستفتاح: «**اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا**

---

(١) رواه الترمذي (٦١١١ تحفة)، الصلاة وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه أحمد (٥/ ٢٥١)، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

(٢) رواه أحمد (٣/ ٨٢)، وحسنه الألباني بشاهده وهو في «الصحيحة» رقم (٥٥٥).

(٣) رواه أحمد (٥/ ١٨١) وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٥٤١).

(٤) رواه أحمد (٢/ ٣٢٥- ٣٣١)، وابن ماجه (٢٧٧١) الوصايا، والحاكم (١/ ٤٤٥- ٤٤٦) (٢/ ٩٨) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في «الصحيحة» (١٧٣٠): وهو كما قالا إلَّا أن أسامة بن زيد الليثي فيه كلام يسير حسن الإسناد.

يهدي لأحسنها إلَّا أنت، واصرِفْ عني سيِّئها، لا يصرف عني سيئها إلَّا أنت».

• وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم كما حَسَّنت خَلْقِي فحَسِّنْ خُلُقي»[١].

• وعن عم زياد بن علاقة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من مُنكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء»[٢].

٥- أهل التقوى والتزكية هم أولياء الله عَزَّ وَجَلَّ وهم أكرم الناس:

* قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس].

* وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية].

* وقال عَزَّ وَجَلَّ مبينًا أنه لا يستحق الولاية إلَّا أهل هذه المنزلة العالية والرتبة السياسية، فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنفال].

* وجعل الله عَزَّ وَجَلَّ التقوى هي الميزان الحق الذي يوزن به الناس، لا ميزان الحسب والنسب والمال والشهرة، فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وهذا الميزان كذلك هو ميزان النبي ﷺ.

• عن أبي هريرة ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ من أكرم الناس؟ قال:

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» عن ابن مسعود، وصححه الألباني في «الإرواء» (٧٤)، و«صحيح الجامع» (١٣٠٧).

(٢) صحيح: رواه الترمذي، والطبراني، والحاكم في «المستدرك»، وصححه الألباني في «تحقيق المشكاة» رقم (٢٤٧١)، و«صحيح الجامع» (١٢٩٨).

«**أتقاهم لله..**»[١].

□ قال الشنقطي رحمه الله: «إن الفضل والكرم إنما هو بتقوى الله لا بغيره من الانتساب إلى القبائل، ولقد صدق من قال:

فقد رفع الإسلام سلمان فارس ... وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

□ وقد ذكروا أن سلمان رضي الله عنه كان يقول:

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

فأكرم الناس وأفضلهم أتقاهم لله، ولا كرم ولا فضل لغير المتقي ولو كان رفيع النسب[٢].

فأولياء الله هم أهل التزكية.. هم أهل التقوى:

• وقد أخبر النبيُّ ﷺ عن حال أولياء الله وما صاروا به أولياء؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى قال: مَن عادى لي وليًّا؛ فقد آذنته بالمحاربة، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب مما افترضتُه عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتى أحبَّهُ، فإذا أحببتُه؛ كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّهُ، ولئن استعاذني لأعيذنَّهُ**»[٣].

«لما ذكر أن معاداة أوليائه محاربة له؛ ذكر بعد ذلك وصف أوليائه الذين تحرم معاداتهم وتجب موالاتهم، فذكر ما يتقرَّب به إليه، وأصل

---

(١) رواه البخاري – كتاب أحاديث الأنبياء (٦/ ٤١٧).

(٢) «أضواء البيان» (٧/ ٦٣٥) باختصار وتصرُّف.

(٣) أخرجه البخاري (١١/ ٣٤٠- ٣٤١) «فتح».

الولاية القرب، وأصل العداوة البعد، فأولياء الله هم الذين يتقرَّبون إليه بما يقرِّبهم منه، وأعداؤه الذين أبعدهم عنه بأعمالهم المقتضية لطردهم وإبعادهم منه، فقسم أولياءه المقرَّبين إلى قسمين:

أحدهما: من تقرَّب إليه بأداء الفرائض، ويشمل ذلك فعل الواجبات، وترك المحرَّمات؛ لأن ذلكم كله من فرائض الله التي افترضها على عباده.

الثاني: من تقرَّب إليه بعد الفرائض بالنوافل، فظهر بذلك أنه لا طريق يوصل إلى الله تعالى وولايته ومحبَّته سوى طاعته التي شرعها على لسان رسوله، فمن ادَّعى ولاية الله، والتقرُّب إليه، ومحبَّته؛ بغير هذه الطريق؛ تبيَّن أنه كاذب في دعواه.

فأولياء الله على درجتيْن:

أحدهما: المتقرِّبون إليه بأداء الفرائض، وهذه درجة المقتصدين أصحاب اليمين، وأداء الفرائض أفضل الأعمال، وذلك لأن الله عَزَّ وَجَلَّ إنما افترض على عباده هذه الفرائض ليقرِّبهم منه، ويوجب لهم رضوانه ورحمته.

الدرجة الثانية: درجة السابقين المقرَّبين، وهم الذين تقرَّبوا إلى الله بعد الفرائض بالاجتهاد في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات بالورع، وذلك يوجب للعبد محبة الله؛ كما قال: «**ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتَّى أحبَّه**»، فمن أحبه الله؛ رزقه محبَّته وطاعته والاشتغال بذكره وخدمته، فأوجب له ذلك القرب منه، والزلفى لديه، والحظوة عنده؛ كما قال تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ

لَآيِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ [المائدة].

□ ففي هذه الآية إشارة إلى أن من أعرض عن حبِّنا وتولَّى عن قربنا؛ لم نبالِ، واستبدلنا به مَن هو أولى بهذه المحنة منه وأحق، فمَن أعرض عن الله؛ فما له من الله بدل، ولله منه أبدال..

مَـا لي شَّـغْلٌ سـواهُ مَـا لي شُـغْلُ ... مَا يَعْـرِفُ عَـنْ هَـواهُ قَلْبـي عَـذْلُ

ما أصنعُ إنْ جَفـا وخـابَ الأمَـلُ ... مِنِّـي بَـدَلٌ ومنـهُ مـا لي بَـدَلُ

□ من فاته الله؛ فلو حصلت له الجنة بحذافيرها؛ لكان مغبونًا، فكيف إذا لم يحصل له إلَّا نزر يسير حقير من دار كلها لا تعدل جناح بعوضة؟!

مَـنْ فَاتَـهُ أَنْ يَـراكَ يَوْمًـا ... فَكُـلُّ أَوْقاتِـهِ فَـواتُ

وحَيْـثُما كَنْـتُ مِـن بـلادٍ ... فَـلي إلى وَجْهِـكَ التفـاتُ

فأهل هذه الدرجة من المقرَّبين ليس لهم همٌّ إلَّا فيما يقرِّبهم ممَّن يحبُّهم ويحبُّونه.

□ قال بعض السلف: «العمل على المخافة قد يُغيِّره الرجاء، والعمل على المحبَّة لا يدخله الفتور».

□ ومن كلام بعضهم: «إذا سئم البطّالون من بطالتهم؛ فلن يسأم محبُّوك من مناجاتك وذكرك».

□ وقال بعضهم: «المحبُّ لله طائر القلب، كثير الذكر، متسبِّب إلى رضوانه بكلِّ سبيل يقدر عليها من الوسائل والنوافل دوْبًا دوْبًا، وشوْقًا وشوْقًا، وأنشد بعضهم:

كُـنْ لِرَبِّـكَ ذَا حُـبٍّ لتَخْدِمَـهُ ... إنَّ المُحِبِّـينَ للأحْبـابِ خُـدَّامُ

قوله: «**فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويدَه التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها**»، وفي بعض الروايات: «**وقلبَه الذي يعقل به، ولسانه الذي ينطق به**»؛ المراد بهذا الكلام أنَّ مَن اجتهد بالتقرُّب إلى الله بالفرائض، ثم بالنوافل؛ قرَّبه إليه، ورقّاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبدُ الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله تعالى ومحبَّته وعظمته وخوفه ومهابته وإجلاله والأنس به والشوق إليه، حتَّى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهدًا له بعين البصيرة كما قيل:

سَاكِنٌ فِي القَلْبِ يَعْمُرُهُ ... لَسْتُ أَنْساهُ فَأَذْكُرُهُ

غابَ عَنْ سَمْعِي وعَنْ بَصَرِي ... فَسُويدا القَلْبِ تُبْصِرُهُ

ولا يزال هذا الذي في قلوب المحبِّين المقرَّبين يقوى حتَّى تمتلئ قلوبُهم به، فلا يبقى في قلوبهم غيرُه، ولا تستطيع جوارحُهم أن تنبعث إلَّا بموافقة ما في قلوبهم، ومَن كان حالُه هذا؛ قيل فيه: ما بقي في قلبه إلَّا الله، والمراد معرفته ومحبَّته وذكره.

□ وفي هذا يقول بعضهم:

لَيْسَ للنَّاسِ مَوْضِعٌ في فُؤادِي ... زَادَ فيهِ هَواكَ حتَّى امتلا

□ وقال آخر:

قَدْ صِيغَ قَلْبي على مِقدارِ حبِّهُمُ ... فَما لِحُبٍّ سِواهُمْ فيهِ مُتَّسَعُ

فمتى امتلأ القلب بعظمة الله تعالى؛ محا ذلك من القلب كلَّ ما سواه، ولم يبق للعبد شيءٌ من نفسه وهواه، ولا إرادة إلَّا لما يريدُه منه مولاه،

فحينئذٍ لا ينطقُ العبد إلَّا بذكره، ولا يتحرَكُ إلَّا بأمره، فإن نطقَ؛ نطق بالله، وإن سمع؛ سمع به، وإن نظرَ؛ نظر به، وإن بطشَ؛ بطش به.

فهذا هو المرادُ بقوله: «**كنتُ سمعه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها**»، ومَن أشار إلى غير هذا؛ فإنَّما يشير إلى الإلحاد مِن الحلول أو الاتِّحاد، والله ورسولُه بريئان منه.

ومن هناك كان بعضُ السَّلف -كسليمان التيمي- يرون أنَّه لا يحسن أن يعصي الله.

ووصَّتِ امرأةٌ مِن السَّلَف أولادها، فقالت لهم: تعوَّدوا حبَّ الله وطاعته؛ فإنَّ المتَّقين أَلِفوا الطَّاعة، فاستوحشت جوارحُهم من غيرها، فإن عرض لهم الملعون بمعصيةٍ؛ مرَّت المعصيةُ بهم محتشمةً، فهم لها منكرون.

ومن هذا المعنى قولُ عليٍّ: إنْ كنَّا لنرى أنَّ شيطان عمر ليهابُه أن يأمُرَه بالخطيئة.

وقد أشرنا فيما سبق إلى أنَّ هذا مِن أسرار التوحيد الخاصَّة؛ فإن معنى لا إله إلَّا الله: أن لا يؤلَّهُ غيرُه حبًّا ورجاءً وخوفًا وطاعةً، فإذا تحقَّق القلب بالتَّوحيد التامِّ؛ لم يبق فيه محبَّةٌ لغير ما يحبُّه الله، ولا كراهة لغير ما يكرهه الله، ومن كان كذلك؛ لم تنبعثْ جوارحُه إلَّا بطاعة الله، وإنَّما تنشأ الذُّنوب من محبَّة ما يكرهه الله، أو كراهة ما يحبُّه الله، وذلك ينشأ من تقديم هوى النفس على محبَّة الله وخشيته، وذلك يقدحُ في كمال التوحيد الواجب، فيقعُ العبدُ بسبب ذلك في التفريط في بعض الواجبات، أو ارتكاب بعض المحظورات، فأمَّا من تحقَّق قلبُه بتوحيدِ الله؛ فلا يبقى له همٌّ إلَّا في الله وفيما يُرضيه.

□ وفي هذا يقول بعضهم:

قالُوا تَشاغَلَ عَنَّا واصْطَفَى بَدَلًا ... مِنَّا وذلك فعلُ الخائِنِ السَّالي

وكيفَ أَشْغَلُ قَلْبِي عَنْ مَحَبَّتِكُمْ ... بِغَيْرِ ذِكْرِكُمُ يا كُلَّ أَشْغَالِي

قوله: «ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه»، وفي الرواية الأخرى: «إن دعاني أجبتُه، وإن سألني أعطيتُه»؛ يعني أن هذا المحبوب المقرَّب، له عند الله منزلةٌ خاصَّةٌ تقتضي أنه إذا سأل الله شيئًا؛ أعطاه إياه، وإن استعاذ به من شيء؛ أعاذه منه، وإن دعاه؛ أجابه، فيصير مجابَ الدعوة لكرامته على ربه عَزَّ وَجَلَّ»[1].

٦- التقوى وصية السلف الصالح رضي الله عنهم:

□ قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «ولم يزل السلف الصالحون يتواصون بها: كان أبو بكر رضي الله عنه يقول في خطبته: أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله، وأن تثنوا عليه بما هو أهله، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء].

□ ولما حضرته الوفاة وعهد إلى عمر دعاه فوصاه بوصيته، وأول ما قاله له: «اتق الله يا عمر».

□ وكتب عمر إلى ابنه عبد الله رضي الله عنهما: أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله عَزَّ وَجَلَّ، فإنه من اتقاه وقاه، ومن أقرضه جزاه، ومن شكره زاده، واجعل

---

(١) «إيقاظ الهِمَمْ» المُنْتَقى من «جامع العلوم والحكم» (ص٥١٩- ٥٢٥) باختصار.

التقوى نصب عينيك، وجلاء قلبك.

□ وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل: «أوصيك بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، التي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلَّا أهلها، ولا يثاب إلَّا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل، جعلنا الله وإياك من المتقين».

□ ولما ولي خطب فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أوصيكم بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فإن تقوى الله عَزَّوَجَلَّ خلف من كل شيء، وليس من تقوى الله خلف».

□ وقال رجل ليونس بن عبيد: «أوصني، فقال: أوصيِّك بتقوى الله والإحسان، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون».

□ وكتب رجل من السلف إلى أخ له: «أوصيك بتقوى الله؛ فإنها من أكرم ما أسررت، وأزين ما أظهرت، وأفضل ما ادخرت، أعاننا الله وإياك عليها وأوجب لنا ولك ثوابها».

□ وقال شعبة: «كنت إذا أردت الخروج قلت للحكم: ألك حاجة فقال: أوصيك بما أوصى به النبي ﷺ معاذ بن جبل: «**اتق الله حيث ما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»[1].

□ وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ودَّع ابن عون رجلًا فقال: عليك بتقوى الله، فإن المتقي ليس عليه وحشة».

□ وقال زيد بن أسلم: «كان يقال: من اتقى الله أحبه الناس وإن كرهوا».

□ وقال الثوري لابن أبي ذئب: «إن اتقيت الله كفاك الناس، وإن

---

(١) باختصار «جامع العلوم والحكم» (ص١٥٠ - ١٥١)، والحديث تقدَّم تخريجه.

اتقيت الناس لن يغنوا عنك من الله شيئًا»[(١)].

٧- التقوى أجمل لباس يتزين به العبد:

* قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: ٢٦].

فبعد أن تمنن الله عز وجل على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش.

واللباس ما يستر به العورات، والريش والرياش ما يتجمل به — فالأول من الضروريات والثاني من الزيادات التكميليات — دلهم على أفضل لباس وهو ما يواري عورات الظاهر والباطن ويتجمل به، وهو لباس التقوى.

□ قال القرطبي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: ٢٦] بين أن التقوى خير لباس كما قيل[(٢)]:

إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التقى ... تقلب عريانًا وإن كان كاسيًا

وخير لباس المرء طاعة ربه ... ولا خير فيمن كان عاصيا[(٣)]

□ وروى قاسم بن مالك عن عوف عن معبد الجهني قال: «لباس التقوى الحياء».

□ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «لِبَاس التَّقْوى». هو العمل الصالح. وعنه أيضًا: السمت الحسن في الوجه.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) «الفوائد» (١٧) دار الدعوة الإسكندرية.

(٣) البيتان منسوبان لأبي العتاهية.

وقيل: ما علمه الله عَزَّوَجَلَّ وهدى به.

ومن قال: إنه لُبْسُ الخشن من الثياب، فإنه أقرب إلى التواضع وترك الرعونات فدعوى، فقد كان الفضلاء من العلماء يلبسون الرفيع من الثياب مع حصول التقوى»[1].

٨- التقوى هي أفضل زاد يتزود به العبد:

* قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧)﴾ [البقرة].

□ قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا، أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها، كما قال تعالى: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] لما ذكر اللباس الحسي، نبه مرشدًا إلى اللباس المعنوي، وهو الخشوع والطاعة والتقوى، وذكر أنه خير من هذا وأنفع، قال عطاء الخرساني في قوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ يعني زاد الآخرة»[2].

٩- ولشرف التقوى أمر الله عَزَّوَجَلَّ المسلمين بالتعاون عليها ونهاهم عن التعاون على ما يخالفها:

* قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

□ قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال الماوردي: ندب الله سبحانه إلى التعاون

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٢٦٢٠- ٢٦٢١) باختصار.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٢٣٩)- دار المعرفة.

بالبر وقرنه بالتقوى لله؛ لأن في التقوى رضا الله تعالى، وفي البر رضا الناس، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته».

□ وقال بن خويز منداد في أحكامه: «والتعاون على البر والتقوى يكون بوجوه، فواجب على العالم أن يعين الناس بعلمه فيعلمهم، ويعينهم الغني بماله، والشجاع بشجاعته في سبيل الله، وأن يكون المسلمين متظاهرين كاليد الواحدة، قال رسول الله ﷺ: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم**»[1].

□ وقال بن القيم رحمه الله: «وقد اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم فيما بينهم بعضهم بعضًا، وفيما بينهم وبين ربهم، فإن كان عبد لا ينفك عن هاتين الحالتين، وهذين الواجبين: واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق، فأمَّا ما بينه وبين الخلق من المعاشرة والمعاونة والصحبة فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم وصحبته لهم تعاونًا على مرضاة الله وطاعته، التي هي غاية العبد وفلاحه، ولا سعادة له إلَّا بها، وهي البر والتقوى، الذين هما جُمَّاع الدين كله»[2].

تمام التقوى والتزكية وعلو الهمة فيها:

«هذا باب لا يدخل فيه إلَّا النفوس الفاضلة الشريفة الأبية، التي لا تقنع بالدون، ولا تبيع الأعلى بالأدنى بيع العاجز المغبون.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٢٠٤٤)، والحديث رواه أبو داود (٤٥٠٧) في الديّات، وابن ماجه في الحدود (٢٦٨٣)، وصححه الألباني.

(٢) «الرسالة التبوكية» (ص١٢).

فبعد أن بينا شرف التقوى وتشوقت النفوس إليها فقد يقول قائل:

بالله عليك كيف أحوز هذه الجوهرة النفيسة وأصل إلى هذه المرتبة الشريفة، فإن المؤمن إذا رغِّبَ في الخير رغب، وإذا خُوِّفَ من الشر هرب، ولا خير فيمن إذا زجر لا ينزجر، وإذا أمر لا يأتمر.

□ قال الغزالي رحمه الله: «إنما الفضيلة في أمر هذه النفس أن تقوم عليها بقوة العزم فتمنعها عن كل معصية، وتصونها عن كل فضول، فإذا فعلت ذلك كنت قد اتقيت الله تعالى في عينك وأذنك ولسانك وقلبك وبطنك وفرجك وجميع أركانك، وألجمتها بلجام التقوى، ولهذا الباب شرح يطول، وأما الذي لا بد منه ها هنا فأن نقول: من أراد أن يتقي الله فليراع الأعضاء الخمسة فإنهن الأصول: وهي العين والأذن واللسان والقلب والبطن، فيحرص عليها بالصيانة لها عن كل ما يخاف منه ضررًا في أمر الدين من معصية وحرام وفضول وإسراف من حلال، وإذا حصل صيانة هذه الأعضاء فمرجو أن يكف سائر أركانه، ويكون قد قام بالتقوى الجامعة بجميع بدنه لله تعالى»(1).

فإن قلت: كيف لي أن أصون الأعضاء الخمسة عن معصية الله عز وجل؟ وكيف أقيدها بطاعة الله، فإن هذا لب السؤال وغاية الآمال والسبب الموصل إلى رحمة الكبير المتعال؟ قلت: سوف أجمع لك من السطور ما يبين لي ولك الطريق، والله لي التوفيق.

وألخص ذلك في خمسة أمور:

١ - محبة الله عز وجل تغلب على قلب العبد يدع لها كل محبوب ويضحي في

---

(١) «التقوى» (ص٢٧ - ٢٨).

سبيلها بكل مرغوب.

٢- أن تستشعر في قلبك مراقبة الله ﷻ وتستحي منه حق الحياء.

٣- أن تعلم ما في سبيل المعاصي والآثام من الشرور والآلام.

٤- أن تعلم كيف تغالب هواك وتطيع مولاك.

٥- أن تدرس مكائد الشيطان ومصائده، وأن تحذر من وساوسه ودسائسه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]:

التقوى الحقيقية هي أن يجتهد العبد في ترك الذنوب كلها صغارها وكبارها، ويجتهد في الطاعات كلها الواجبات والنوافل ما استطاع، لعل كثرة النوافل تعوض ما قد يعرض من تقصير واجتناب الصغائر يجعل بين العبد وبين الكبائر جنة حصينة كما قال ﷻ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] فمثل هذا يستحق اسم المتقي، واجتهاده في الطاعات كلها من الواجبات والنوافل وترك المعاصي ما استطاع من كبائر وصغائر وترك ما لا بأس به حذرًا مما به بأس هو التقوى التي دارت عليها أقوال السلف.

□ قال أبو الدرداء: «تمام التقوى أن يتقي اللهَ العبدُ حتى يتقيه من مثقال ذرة، وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حرامًا، يكون حجابًا بينه وبين الحرام، فإن الله قد بين للعباد الذي يصيرهم إليه فقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة] فلا تحقرن شيئًا من الخير أن تفعله ولا شيئًا من الشر أن تتقيه».

□ قال الحسن: «ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيرًا من الحلال

مخافة الحرام».

□ وقال الثوري: «إنما سموا متقين؛ لأنهم اتقوا ما لا يتقى».

□ وقال موسى بن أعين: «المتقون تنزهوا عن أشياء من الحلال مخافة أن يقعوا في الحرام، فسماهم الله متقين».

□ وقال ميمون بن مهران: «المتقي أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح لشريكه. وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. قال: أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر»[١].

□ قال ابن رجب رحمه الله: «وشكره يدخل فيه جميع فعل الطاعات ومعنى ذكره فلا ينسى: ذكر العبد بقلبه لأوامر الله في حركاته وسكناته وكلماته فيتمثلها، ولنواهيه في ذلك كله فيجتنبها، وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات، كما قال أبو هريرة وسئل عن التقوى فقال: هل أخذت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم، فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه: قال ذاك التقوى»[٢].

• والقلب محل التقوى، فقد قال رسول الله ﷺ: «**التقوى ها هنا**»، وأشار إلى صدره ثلاث مرّات[٣].

فإذا امتلأ القلب بتقوى الله، أفاضها على الجوارح فصلحت وصلح

---

(١) صحيح: رواه الحاكم (٢/ ٢٩٤)- دون قوله: «وأن يشكر فلا يكفر»، وقال: على شرط الشيخيْن ولم يخرِّجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) «التقوى» للدكتور أحمد فريد (ص١٢ - ١٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة.

الجسد كله؛ لأن تقوى الله علامتها تعظيم شعائر الله الناتج عن تعظيم الآمر والناهي:

ولذلك قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج].

حقيقة التقوى وتمامها:

□ قال عمر رضي الله عنه: «لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدعَ ما حاكَ في الصدر»[1].

وهذا هو التسليم لحكم الله الديني الأمري، فأجل مقامات الإيمان وأكملها التسليم والرضا.

صفات علاة الهمم أهل التقوى والتزكية:

* هذه صِفات المتَّقين الكُمَّل علاة الهمم والمؤمنين الخُلَّص أهل الهداية الحقيقيَّة بالقرآن الذين زكت نفوسهم، وصَفَت أرواحُهم وقلوبُهم نأتي بها مجملة وقد فصَّلنا الكلام عليها في فصول هذه الموسوعة قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة].

١- هم المؤمنون بالغيب -وهو قطب التوحيد-:

فالصفة الأولى للمتقين أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولًا وعملًا واعتقادًا.

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٤٥) «فتح» مُعَلَّقًا بصيغة الجزم.

* والإيمان بالغيب - هو قطب التوحيد - تزكية وطهاره وصلاح، وهو صريح في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر].

٢- هم المقيمُو الصلاة:

وإقامة الصلاة: أداؤها بأركانها وواجباتها وسننها وهيئاتها في أوقاتها، وهي عامل هام في تزكية النفس وجعلها ربَّانية التصور.. ربَّانية الشعور.. ربَّانية السلوك.. ربانيَّة التلقِّي.

* وإقام الصلاة تزكية كما جاء في آيات سورة فاطر السابقة؛ ولأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

* وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى]؛ فقد جعل الله صفة من تزكى أن يذكر اسم ربه فيتوجه إليه بالصلاة.

٣- وهم المنفقون مما رزقهم الله:

تطهَّرت نفوسهم من الشح، وزكت بالإنفاق والبرِّ، وانعتقت أرواحهم من ربقة الحرص، والأثرة وحب المال الذي يقبض الأيدي عن الإنفاق، ويقبض النفوس عن الإشفاق، ويقبض الأرواح عن الانطلاق، وتحرَّرت من عبودية الدرهم والدينار التي تستذل النفوس، وتنكِّس الرؤوس، وتذلُّ أعناق الرجال.

٤- الإيمان برسالات رسل الله أجمعين صلوات الله وسلامه عليهم:

* قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [البقرة].

وهذه الصفة اللائقة بأئمة المتقين، وورثة الأنبياء، والمحافظين على ميراثهم، وحداة موكب الإيمان إلى آخر الزمان.

٥- اليقين بالآخرة:

واليقين بالآخرة هو مفرق الطرق بين من يعيش بين جدران الحسِّ المُغلَقة ومن يعيش في الوجود الرَّحب.

٦- وهم أهل العفو والصفح:

* قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

٧- لا يقارفون الكبائر، ولا يُصرُّون على الصغائر:

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف].

□ قال ابن كثير رحمه الله: «يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر وتركوا ما عنه زجر، أنهم إذا مسهم -أي: أصابهم- طيفٌ وقرأ الآخرون طائف، وقد جاء فيه حديث وهما قراءتان مشهورتان فقيل: بمعنى واحد، وقيل: بينهما فرق، ومنهم من فسر ذلك بغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصدع ونحوه، ومنهم من فسره بالهمِّ بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب، وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ أي: عقاب الله وجزيل ثوابه ووعده ووعيده فتابوا وأنابوا ورجعوا إليه من قريب: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ أي: قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه»[1].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٧٩).

٨- هم أهل الصدق:

هم أصدق الناس إيمانًا وأقوالًا وأعمالًا وأحوالًا.

* قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣)﴾ [الزمر].

قيل: الذي جاء بالصدق هو محمد ﷺ، وقيل: جبريل عليه السلام، وقال مجاهد: أصحاب القرآن المؤمنون: يجيئون يوم القيامة فيقولون: هذا ما أعطيتمونا فعملنا بما أمرتمونا.

□ قال ابن كثير: «وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين، فإن المؤمنين يقولون الحق ويعملون به، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير، فإنه جاء بالصدق وصدق المرسلين، وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله»[1].

* وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾ [البقرة].

٩- وهم المعظِّمون لشعائر الله:

* قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢)﴾ [الحج: ٣٢].

فهم المعظمون لله وأمره ونهيه ودينه وشعائر دينه.

١٠- وهم أهل العَدْل المتحرُّون له:

* قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨)﴾ [المائدة].

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٥٣).

١١- ومن صفاتهم أنهم يتبعون سبيل الصادقين من الأنبياء والمرسلين وصحابة سيد الأولين والآخرين ﷺ:

* قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة].

وقد فسر بعض العلماء هذه الآية على أنها تحريض على الصدق وأمر به كابن كثير والقاسمي، ورجح بعضهم أنها حض على التزام طريق الصادقين، كالشوكاني، ونقل عن سعيد بن جبير والضحاك «كونوا مع الصادقين» أبو بكر وعمر، وذكر القرطبي وابن جرير القولين ورجح ابن جرير الثاني منها فقال: والصحيح من التأويل في ذلك هو التأويل الذي ذكرناه عن نافع [١] والضحاك، وذلكم أن رسوم المصحف كلها مجمعة على ﴿ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ وهي القراءة التي لا أستجيز لأحد القراءة بخلافها، وتأويل عبد الله رحمة الله عليه [٢] في ذلك على قراءته تأويل صحيح غير أن القراءة بخلافها [٣].

□ وقال القرطبي: «هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين، واختلف في المراد هنا بالمؤمنين الصادقين على أقوال، فقيل: هو خطاب لمن آمن من أهل الكتاب، قيل: ﴿ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي مع الذين خرجوا مع

(١) الأثر عن نافع قال: قيل للثلاثة الذين خلفوا: يا أيها آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين محمد وأصحابه.

(٢) قال ابن جرير: «وكان ابن مسعود فيما ذكر عنه يقرأه ﴿ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ ويتأوله أن ذلك نهى من الله عن الكذب.

(٣) «جامع البيان في تفسير القرآن» (١١/ ٤٦) دار المعرفة بيروت.

النبي ﷺ لا مع المنافقين، أي كونوا على مذهب الصادقين وسبيلهم. وقيل: هم المهاجرون لقول أبي بكر يوم السقيفة: إن الله سمانا الصادقين فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ [الحشر: ٨] الآية ثم سماكم بالمفلحين فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الحشر: ٥٩] الآية. وقيل: هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم».

□ قال ابن العربي: «وهذا القول هو الحقيقة والغاية التي إليها المنتهى، فإن هذه الصفة يرتفع بها النفاق في العقيدة والمخالفة في العمل، وصاحبها يقال له الصديق كأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ومن دونهم على منازلهم وأزمانهم، وأما تفسير أبي بكر الصديق فهو الذي يعم الأقوال كلها، فإن جميع الصفات فيهم موجودة»[1].

١٢- وهم أحرص الناس على أعمال البرِّ كلِّها:

* فالتقوى تنبثق عن أعمال البرِّ جميعًا، مصداق ذلك كتاب الله عز وجل وكلامه، وكلام الملوك ملوك الكلام، قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾ [البقرة].

* واقرأ بتدبر قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ٣١٢٨) باختصار.

تُفۡلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ [البقرة: ١٨٩]. تجد الآفاق العاليات النيِّرات الطاهرات للمتقين.

وسائل وطرق تزكية النفوس هي شعائر الدين كلُّها:

«إن تزكية النفوس، وتنقيتها من قبائحها، وتصفيتها من أدرانها، والسمو بها إلى مكارم الأخلاق وصالحها: من مهمات الرسل، التي بُعِثوا من أجلها، وقد شغلت حيِّزًا كبيرًا في حياة رسول الله ﷺ؛ لأنها ركن أساس في استئناف حياة إسلامية على منهاج النبوَّة.

والذي شرع الغاية لم ينس الوسيلة؛ فقد شرع الله وسائل تزكية النفوس، وبيَّنها رسول الله ﷺ للوصول إلى هذه الغاية، ولذلك؛ ليس لتزكية النفوس أعمال خاصَّة بها دون شعائر الإسلام»[١].

□ وعند استقراء شعائر الإسلام كلها وربطها بهذه الغاية، نتبيَّن أنه ليس لتزكية النفوس أعمال خاصَّة من مجموع شرائع الإسلام، بل إن الإسلام عقائد وأحكام، نهايتها التقوى وتزكية النفوس؛ لتستقيم على أمر الله أفرادًا وجماعات ومجتمعات، ودونك بيان ذلك:

التوحيد تزكية للنفوس: إن الاعتراف بالحق أس الفضائل وأم الأخلاق، فرأس الحكمة معرفة الله وعبادته ومخافته، وليس هناك حقٌّ أكبر من الله، ولا أظهر منه عند كل ذي مُسْكةِ عقل، ولهذا كان الشرك بالله عزَّ وجلَّ رجسٌ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

وهكذا يجسم التعبير القرآني نجاسة أرواحهم وخبث نفوسهم،

(١) «منهج الأنبياء في تزكية النفوس» (ص٥٩).

فيجعلها ماهيتهم وكيانهم، فهم بكليتهم وحقيقتهم نجس؛ يستقذره الحس، ويتطهَّر منه المتطهِّرون.

□ قال ابن كثير رحمه الله: «ودلَّت هذه الآية على نجاسة المشرك كما ورد في «الصحيح»: «**المؤمن لا ينجس**»[1]، وأما نجاسة بدنه؛ فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات؛ لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم»[2].

هؤلاء دنست قلوبهم، فلم يرد الله أن يطهِّرها، وأصحابها يلجون الدَّنس ويختارون الرِّجس.

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ (٤١) ﴾ [المائدة].

*وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ (٦) ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ (٧) ﴾ [فصلت].

□قال ابن القيم رحمه الله: قال تعالى: ﴿ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ (٦) ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٣٩٠) «فتح»، ومسلم (ص٣٧١) من حديث أبي هريرة.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٦٠).

ﵟٱلزَّكَوٰةَﵞ: «أي لا يأتون ما تُزَكَّى به أنفسهم من التوحيد والإيمان؛ ولهذا فسَّرها غيرُ واحد من السلف بأن قالوا: ﵟلَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَﵞ لا يقولون: لا إله إلَّا الله، فعبادةُ الله وحده لا شريك له، وأن يكون الله أحب إلى العبد من كلِّ ما سواه هو أعظم وصيَّةٍ جاءت بها الرسل ودعوا إليها الأمم»[1].

□ وقال رحمه الله: «وقال أكثر المفسِّرين ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إله إلَّا الله والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمَّن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته وإثبات إلهيته سبحانه، وهو أصل كلِّ زكاة ونماء، فإن التزكِّي - وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة- فإنه إنما يحصل بإزالة الشر؛ فلهذا صار التزكي ينتظم الأمْرين جميعًا فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح هو التوحيد. والتزكية: جعل الشيء زكِيًّا إمَّا في ذاته، وإما في الاعتقاد والخبر عنه كما يُقال: عدّلته وفسَّقته إذا جعلته كذلك في الخارج وفي الاعتقاد والخبر»[2].

* وبهذا كله يتبيَّن أن الإسلام كله طهر وزكاة ونماء وفضائل، فمن هدي إليه؛ فقد شرح بالإيمان صدرًا، فهو على نور من ربِّه، ﵟفَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥ﵞ [الأنعام].

* **والوضوء طهارةٌ**: كما في قوله تعالى: ﵟفِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص٤٥٧).

(٢) «إغاثة اللهفان» (ص٤٩).

﴿يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة].

* والغسل والتيمُّم طهارة، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [المائدة].

* واعتزال النساء في المحيض والنفاس طهارة وزكاة؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة].

ولذلك جعلت أحكام الوضوء والغسل والتيمُّم في أبواب الطهارة من كتب الفقه.

□ والطهارة في كتاب الله وسنة رسوله تنتظم طهارة القلب والجوارح.

* أما طهارة القلوب؛ ففي قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

* وأما طهارة الجوارح؛ ففي قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ [الأحزاب].

* وطهارة الجوارح مقترنة بطهارة القلوب؛ لذلك عطف على طهارة الجوارح عصمتهم من رجز الشيطان والربط على القلوب وتثبيت الأقدام

﴿وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ۝١١﴾ [الأنفال].

* وبه نطق الكتاب العزيز: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾ [المدثر: ٤].

□ قال ابن قيم الجوزية في تفسيرها: «قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهِّر من الذنب، فكنى عن النفس بالثوب. وهذا قول إبراهيم والضَّحَّاك والشعبي والزهري والمحقِّقين من أهل التفسير».

□ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تلبسها على معصية، ولا قذر، ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

وإنِّي بِحَمْدِ اللهِ لا ثَوْبَ غَادِرٍ ... لَبِسْتُ ولا مِنْ غَدْرِهِ أَتَقَنَّعُ

□ والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء: «طاهر الثياب»، وتقول للفاجر والغادر: «دنس الثياب».

□ وقال أبي بن كعب رضي الله عنه: «لا تلبسها على الغدر والظلم والإثم، ولكن البسها وأنت برٌّ طاهر».

□ وقال الضحاك: «عملك فأصلح».

□ وقال السدي: «يقال للرجل إذا كان صالحًا: إنه لطاهر الثياب، وإذا كان فاجرًا: إنه لخبيث الثياب».

□ وقال سعيد بن جُبير: «وقلبك وبيتك فطهِّر».

□ وقال الحسن والقرطبي: «وخُلقك فحسن».

□ وقال ابن سيرين وابن زيد: «أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا تجوز الصلاة معها؛ لأن المشركين كانوا لا يتطهّرون ولا يطهرون ثيابهم».

□ قال طاووس: «وثيابك فقصِّر؛ لأن تقصير الثياب طهرة لها».

✍ والقول الأول أصح الأقوال، ولا ريب أن تطهيرها من النجاسات وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به، إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق؛ لأن نجاسة الظاهر تورث نجاسة الباطن، ولذلك أمر القائم بين يدي الله عَزَّ وَجَلَّ بإزالتها والبعد عنها»(١).

□ **والصلاة تزكية النفوس؛** لأنها تطهِّر النفس والجوارح من الفحشاء والمنكر.

* **والزكاة طهارة وتزكية:** كما في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة: ١٠٣].

□ ولهذا كانت زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث؛ كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طُهرةً للصائم من اللغو والرفث، وطُعمةً للمسكين»(٢).

إذن؛ فإنفاق المال ابتغاء مرضاة الله وسيلة لتزكية الأنفس وتطهيرها ونمائها وصلاحها.

* قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل].

* والصوم تزكية؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة].

---

(١) «التفسير القيم» (ص٥٠٢، ٥٠٣).

(٢) حسن بشواهده.

* والحج تزكية؛ كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة].

* والنسك تزكية: كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٣٦ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٧﴾ [الحج].

* ومكارم الأخلاق وجُمَّاع أمرها الصدق، وهو تزكية؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة].

* وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ٣٣﴾ [الزمر].

* والحكم بما أنزل الله تزكية؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ [البقرة].

* والبر جميع خصال الخير التي يحبها الله أصل التقوى؛ كما في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٩].

فمن صنع البر؛ فقد اتَّقى، ومَن اتَّقى؛ فقد تزكَّى؛ لأن النفس والقلب يطمئنان إلى البر.

• عن وابصة بن معبد رضي الله عنه؛ قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: «**جئت تسأل عن البر والإثم؟**». قلتُ: نعم. قال: «**استفتِ قلبكَ، البرُّ ما اطمأنَّت إليه النفس، واطمأنَّ إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس، وتردَّد في**

الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»[(١)].

• وقال ﷺ: «البِرُّ ما سكنت إليه النَّفْس، واطمأَنَّ إليه القلبُ، والإثم ما لم تسكن إليه النَّفْسُ، ولم يطمئن إليه القلبُ، وإنْ أفتاكَ المُفتُون»[(٢)].

• وقال ﷺ: «البرُّ حسن الخلقِ، والإثم ما حاك في صدرك، وكَرِهت أن يَطَّلع عليه الناس»[(٣)].

* وتقوى الله بتزكية النفوس هي ثمرة العبادة: قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة].

* وهذا هو منهج الأنبياء في تزكية النفوس، حيث أمرهم الله سبحانه بعبادته كما في قوله تعالى بعد أن ذكر كثيرًا من المرسلين والأنبياء: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنبياء].

* ثم أمرهم الله بتقوى الله؛ كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المؤمنون].

فتبيَّن بذلك أن الطريق المؤدِّي إلى تقوى الله بتزكية النفوس هي العبادة: «والعبادة هي اسم جامع لكل ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود،

---

(١) صحيح لغيره.

(٢) صحيح: رواه أحمد عن أبي ثعلبة، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» وتحقيق «المشكاة» (٢٧٧٤)، و«صحيح الجامع» (٢٨٨١).

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد»، ومسلم، والترمذي عن النوَّاس بن سمعان.

والأمر المعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميِّين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة.

□ والعبادات القلبية خير وسيلة لتزكية النفوس.

□ ومجاهدة النفس وسيلة زاكية للتزكية، والأخذ بالحظ الوافر من قيام الليل، وصيام النافلة، وتلاوة القرآن، والمداومة على الذكر أنجع الوسائل لتزكية النفوس.

فتمسَّك بغرْز رسول الله ﷺ وهديه وعبادته وذكره، وإياك وبنيات الطريق، ودع ما أحدثه أهل المواجيد وفلاسفة الصوفية وأصحاب الرياضات البِدْعية، وخيالات أهل الجوع والاتحادية، فإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل.

❊❊❊

أقوال مضيئة في تزكية النفوس لأئمة سلفنا الصالح

أسبابُ انشراحِ الصَّدر:

□ قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «أعظمُ أسبابِ انشراح الصدر:

أولًا: التوحيد: وعلى حسب كماله، وقوَّته، وزيادَتِهِ يكونُ انشراحُ صدرِ صاحبه.

* قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر].

* وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام].

فالهُدى والتوحيد من أعظم أسبابِ شرحِ الصدر، والشركُ والضَّلالُ من أعظمِ أسبابِ ضيقِ الصدر وانحراجه.

ثانيًا: نورُ الإيمان: وَهُوَ النورُ الذي يقذِفُهُ الله في قلبِ العبد، فإنَّهُ يشرحُ الصدرَ ويوسِّعُهُ، ويُفَرِّجُ القلب، فإذا فُقِدَ هذا النورُ من قلبِ العبد، ضاقَ وحَرِجَ، وصارَ في أضيقِ سجنٍ وأضيعه.

• وقد روى ابن مسعودٍ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «**إذا دَخَلَ النُّورُ القلبَ، انفسحَ وانشرحَ**»، قالوا: وما علامةُ ذلك يا رسولَ الله؟ قالَ: «**الإنابةُ إلى دارِ الخلودِ، والتَّجافي عن دارِ الغرور، والاستعداد للمَوتِ قبلَ نزوله**»[1].

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٢٧) من حديث ابن مسعود، وذكر السيوطي في «الدر المنثور» =

فيصيبُ العبدُ من انشراحِ صدره بحسب نصيبه من هذا النور، وكذلك النورُ الحِسِّيُّ، والظلمة الحسِّية، هذه تشرح الصدر، وهذه تضَيِّقُهُ.

ثالثًا: العلم، فإنه يشرح الصدر ويوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا، والجهل يورثه الضيق والحصر والحبس، فكلما اتسع علم العبد، انشرح صدره واتسع، وليس هذا لكل علم، بل العلم الموروث عن الرسول ﷺ وهو العلم النافع، فأهله أشرح الناس صدرًا، وأوسعهم قلوبًا، وأحسنهم أخلاقًا، وأطيبهم عيشًا.

رابعًا: الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، ومحبته بكل القلب، والإقبال عليه، والتنعُّم بعبادته، فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك. حتى إنه ليقول أحيانًا: «إن كنت في الجنة في مثل هذه الحالة، فإني إذًا في عيش طيب». وللمحبة تأثير عجيب في انشراح الصدر، وطيب النفس، ونعيم القلب، لا يعرفه إلَّا من له حس به، وكلما كانت المحبة أقوى وأشد، كان الصدر أفسح وأشرح، ولا يضيق إلَّا عند رؤية البطالين الفارغين من هذا الشأن، فرؤيتهم قذى عينه، ومخالطتُهم حُمَّى روحه.

ومن أعظم أسبابِ ضيقِ الصدر: الإعراضُ عن الله تعالى، وتعلُّقُ القلبِ بغيره، والغفلةُ عن ذِكْرِهِ، ومحبةُ سواه، فإنَّ مَن أحبَّ شيئًا غيرَ الله عُذِّبَ به، وسُجِنَ قلبهُ في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه، ولا أكسفَ بالًا، ولا أنكدَ عيشًا، ولا أتعبَ قلبًا.

(٣/ ٤٤)، وأورده الحافظ ابن كثير (٢/ ١٧٤) عن عبد الرزاق، وابن ابي حاتم وابن جرير، ثم قال: فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضًا، وانظر تحقيق الشيخ شعيب وعبد القادر الأرنؤوط على «زاد المعاد».

فَهُمَا محبتان: محبةٌ هي جنةُ الدنيا، وسرور النفس، ولذةُ القلب، ونعيم الروح، وغذاؤها، ودواؤها، بل حياتُها وقُرَّةُ عينها، وهي محبةُ الله وحده بكلِّ القلب، وانجذابُ قُوى الميل، والإرادة، والمحبة كلِّها إليه.

ومحبةٌ هي عذابُ الروح، وغمُّ النفس، وسِجْنُ القلب، وضِيق الصدر، وهي سببُ الألم والنكد والعناء، وهي محبةُ ما سواه سبحانه.

خامسًا: دوامُ ذِكْرِهِ على كلِّ حال، وفي كُلِّ موطن، فللذِّكْرِ تأثير عجيبٌ في انشراح الصدر، ونعيم القلب، وللغفلةِ تأثيرٌ عجيبٌ في ضيقه وحبسه وعذابه.

سادِسًا: الإحْسَانُ إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال، و؟؟ والنفع بالبدنِ، وأنواعِ الإحسانِ، فإنَّ الكريمَ المحسن أشرحُ الناسِ صدرًا وأطيبهم نفسًا، وأنعمهم قلبًا، والبخيل الذي ليس فيه إحسانٌ أضيقُ الناس صدرًا، وأنكدهم عيشًا، وأعظمهم همًّا وغَمًّا.

سابعًا: الشجاعةُ، فإنَّ الشجاعَ منشرحُ الصدرِ، متَّسِعُ القلب، والجبان أضيقُ الناس صدرًا، وأحصرُهُمْ قلبًا، لا فرحةَ له ولا سرور، ولا لذَّةَ له، ولا نعيم إلَّا من جنس ما للحيوان البَهيمي، وأما سرور النفس ولذَّتُها، ونعيمها وابتهاجها، فمحرَّمٌ على كلِّ جبانٍ، كما هو محرَّمٌ على كل بخيلٍ، وعلى كُلِّ معرضٍ عن الله سبحانه، غافلٍ عن ذِكْرِهِ، جاهل بأسمائه تعالى وصِفاتِه ودينه، متعلِّقُ القلبِ بغيره.

وإن هذا النعيم والسرور، يصير في القبر رياضًا وجنةً، وذلك الضيق والحصرُ ينقلبُ في القبرِ عذابًا وسجًا. فحالُ العبدِ في القبرِ كحاله في الصدر، نعيمًا وعذابًا وسجنًا وانطلاقًا، ولا عبرةَ بانشراحِ صدر لعارضٍ، ولا بضيقِ صدرِ هذا لعارضٍ، فإنَّ العوارضَ تزولُ بزوالِ أسبابها وإنما

المعوَّلُ على الصِّفَةِ التي قامت بالقلب توجبُ انشراحه وحبسه. الميزان.. والله المستعان.

ثامنًا: إخراجُ دَغَلِ القلبِ من الصِّفاتِ المذمومة التي توجبُ ضيقه وعذابه، وتحولُ بينه وبين حصولِ البُرءِ، فإنَّ الإنسان إذا أتى الأسباب تشرحُ صدره، ولم يُخرجْ تلك الأوصافَ المذمومةَ من قلبه، لم يحصل انشراحِ صدره بطائلٍ، وغايته أن يكون له مادَّتانِ تعتَوِرانِ على قلبه، وهو للمادة الغالبةِ عليه منهما.

تاسعًا: تركُ فضولِ النظر، والكلام، والاستماع، والمخالطةِ، والأكل، والنوم، فإنَّ هذه الفضولَ تستحيلُ آلامًا وغمومًا، وهمومًا في القلب، تحصُرُهُ وتحبسه، وتضيِّقُهُ ويتعذَّبُ بها، بل غالبُ عذابِ الدنيا والآخرةِ منها.

فلا إله إلَّا الله ما أضيقَ صدرَ مَن ضربَ في كلِّ آفةٍ من هذه الآفاتِ بسهم، وما أنكَدَ عيشَهُ، وما أسوأ حاله، وما أشدَّ حصرَ قلبه!!

ولا إله إلَّا الله، ما أنعمَ عيشَ من ضربَ في كلِّ خَصْلَةٍ من تلك الخصال المحمودةِ بسهمٍ، وكانت هِمَّتُهُ دائرةً عليها، حائمةً حولها!!.

* فلهذا نصيبٌ وافرٌ من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [الانفطار]، ولذلكَ نصيبٌ وافرٌ من قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار]، وبينهما مراتبُ متفاوتةٌ لا يُحصيها إلَّا الله تعالى.

والمقصود: أنَّ رسول الله ﷺ كان أكملَ الخلقِ من كُلِّ صفةٍ يحصُلُ بها انشراحُ الصدر، واتِّساعُ القلب، وقُرَّةُ العين، وحياةُ الروح، فهو أكملُ الخلقِ في هذا الشرح والحياة، وقُرَّةِ العين مع ما خُصَّ به من الشرح الحِسِّيّ، وأكملُ الخلقِ متابعةً له، أكملُهم انشراحًا ولذَّةً وقُرَّةَ عين، وعلى

حسب متابعته ينالُ من انشراح صدره، وقُرَّةِ عينه، ولذَّةِ روحه ما ينالُ، فهو ﷺ في ذُروةِ الكمالِ من شرحِ الصدر، ورفعِ الذِّكْرِ ووضعِ الوِزْرِ.

وهكذا لأتباعه نصيبٌ من حفظ الله لهم، وعصمتِهِ إيَّاهم، ودفاعه عنهم، وإعزازِهِ لهم، ونصرِهِ لهم، بحسب نصيبهم من المتابعة؛ فمستقلٌّ، ومستكثرٌ. فمن وجد خيرًا، فليحمدِ الله. ومن وجد غير ذلك، فلا يلومنَّ إلَّا نفسه».

تشخيصٌ دقيقٌ لأمراض النفس:

□ يقول الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ تعالى: «تأمَّلتُ في الخلقِ وإذا هُم في حالةٍ عجيبة، يكاد يُقطع معها بفساد العقل.

وذلك أنَّ الإنسانَ يسمع المواعظ وتُذْكَرُ له الآخرة فيعلم صِدقَ القائل، فيبكي وينزعج على تفريطه، ويعزم على الاستدراك، ثُمَّ يتراخى عمله بمقتضى ما عزم عليه.

فإذا قيل له: أَتَشُكُّ فيما وُعِدتَ به، قال: لا والله، فيقال له: فاعتمل، فينوي ذلك ثُمَّ يتوقفُ عن العمل.

وربما مال إلى لذَّةٍ محرمة، وهو يعلم النهيَ عنها.

ومن هذا الجنس تأخر الثلاثة الَّذِينَ خُلِّفوا ولم يكن لهم عذرٌ وهم يعلمون قُبح التَّأَخُّر، وكذلك كلُّ عاصٍ ومفرِّط.

فتأملتُ السبب مع أنَّ الاعتقاد صحيح والفعل بطيء، فإذا له ثلاثة أسباب:

أحدها: رؤية الهوى العاجل، فَإِنَّ رؤيته تشغل عن الفكر فيما يُجْنِيه.

والثاني: التسويف بالتوبة، فلو حضر العقل لحذر من آفاتِ التأخير، فربما هجم الموت ولم تحصل التوبة.

والعجب ممن يُجَوِّزُ سلبَ روحِه قبل مُضِيِّ ساعةٍ ولا يعمل على الحزم، غير أنَّ الهوى يطيل الأمد، وقد قال صاحب الشرع ﷺ: «**صَلِّ صلاةَ مودِّع**»، وهذا نهاية الدواء لهذا الداء، فإنه مَن ظنَّ أنه لا يبقى إلى صلاةٍ أخرى جَدَّ واجتهد.

والثالث: رجاء الرحمة فيَرَى العاصي يقول: ربي رحيم، وينسى أنه شديد العقاب.. فنسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يهب لنا حَزمًا يَبُتُّ المصالح جزمًا»[1].

علاج ناجح لأمراض النفس:

□ يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أوَّلُ ما يطرق القلبُ: **الخطرةَ**، فإن دفَعَها استراحَ مِمَّا بعدها، وإن لم يدفعها قَوِيَتْ فصارت **وسوسةً**؛ فكان دفعُها أصعب، فإن بادرَ ودَفَعَها، وإلَّا قَوِيَت وصارت **شهوة**. فإن عالجها، وإلَّا صارت **إرادةً**، فإن عالجها وإلَّا صارت **عزيمة**. ومتى وصلت إلى هذه الحال لم يُمْكِنْ دفعها، واقترن بها الفعل ولا بد. وما يقدر عليه مرة بدون مقدماته.

وحينئذٍ ينتقل العلاج إلى أقوى الأدوية، وهو الاستفراغ التام **بالتوبة النصوح**، ولا ريب أنَّ دفعَ مبادئ هذا الداء من أوله أيسر وأهون من استفراغه بعد حصوله -إن ساعدَ القدرُ وأعانَ التوفيق-، وإنَّ الدفع أولى به. وإن تألَّمَتِ النفسُ بمفارقةِ المحبوب: **فليوازن** بين فوات هذا المحبوب الأخَسِّ المنقطع النَّكِدِ المشوبِ بالآلامِ والهموم، وبين فوات المحبوب الأعظم الدائم الذي لا نسبة لهذا المحبوب إليه ألبتَّة لا في قَدْرِهِ، ولا في بقائه. **وليوازن** بين ألم فوته وبين ألم فوت المحبوب الأخس. **وليوازن** بين

(١) «صيد الخاطر» (ص٣١٣- ٣١٤).

لذة الإنابة والإقبال على الله تعالى، والتَّنَعُّم بِحُبِّه، وذِكْرِه، وطاعتِه، ولذَّةِ الإقبال على الرذائل، والإتيان بالقبائح. **وليوَازن** بين لذة الظفَرِ بالذنب ولذة الظفر بالعدُوِّ، وبين لذة الذنب ولذة العِفَّة، ولذة الذنب ولذة القوة وقهر العدو، وبين لذة الذنب ولذة إرغام عَدُوِّه، ورَدِّه خاسئًا ذليلًا. وبين لذة الذنبِ ولذة الطاعة التي تحول بينه وبين مراده، وبين فوت مراده وفوت ثناء الله تعالى وملائكته عليه، وفوت حُسن جزائه وجزيل ثوابه، وبين فرحة إدراكه وفرحة تَرْكِهِ لله تعالى عاجلًا، وفرحة ما يُثِيبُه عليه في دنياه وآخرته. والله المستعان»[1].

استقامة القلب وشفاؤه من أمراضه:

□ يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «استقامة القلب بشيئين:

أحدهما: أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحابِّ، فإذا تعارض حُبُّ الله تعالى وحُبُّ غيره، سبق حبُّ الله تعالى حبَّ ما سواه، فرُتِّبَ على ذلكم مقتضاه، وما أسهل هذا بالدعوى، وما أصعبه بالفعل، فـ«عند الامتحان يُكرم المرء أو يُهان»..

وقد قضى الله تعالى قضاءً لا يُرَدُّ ولا يُدْفَع، أَنَّ مَن أَحَبَّ شيئًا سِواهُ عُذِّبَ به ولا بد، وأنَّ مَن خاف غيره سُلِّطَ عليه، وأنَّ مَن اشتغل بشيء غيره كان شؤمًا عليه، ومَن آثرَ غيره عليه لم يبارك فيه، ومَن أرضى غيره بسخطه أسخطه عليه ولا بد.

الأمر الثاني الذي يستقيم به القلب: تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشئ عن تعظيم الآمِرِ الناهي، فَإِنَّ الله تعالى ذمَّ مَن لا يعَظِّمُه ولا يعَظِّمْ أمره ونهيه..

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم (ص٢٦٣ - ٢٦٤).

فعلامة التعظيم للأوامر: رعاية أوقاتها وحدودها، والتفتيش على أركانها وواجباتها وكمالها، والحرص على تحسينها وفِعلها في أوقاتها، والمسارعة إليها عند وجوبها، والحزن والكآبة والأسف عند فوت حقٍّ من حقوقها، كَمَنْ يحزن على فوتِ الجماعة، ويعلم أنه لو تُقُبِّلَت منه صلاته منفردًا، فإنه قد فاته سبعة وعشرون ضِعْفًا، ولو أنَّ رجلًا يعاني البيع والشراء يفوته في صفقة واحدة في بلده من غير سفرٍ ولا مشقةٍ سبعة وعشرون دينارًا، لأكلَ يديه ندمًا وأسفًا، فكيف وكلُّ ضعفٍ مما تضاعف به صلاة الجماعة خيرٌ من ألفٍ، وألفِ ألفٍ، وما شاء الله تعالى، فإذا فوَّتَ العبد عليه هذا الربح خسر قطعًا..

وأما علاماتُ تعظيم المناهي: فالحرص على التباعد من مظانِّها وأسبابها وما يدعو إليها، ومجانبة كل وسيلة تقرِّب منها، كمن يهرب من الأماكن التي فيها الصور التي تقع بها الفتنة خشية الافتتان بها، وأن يدَعَ ما لا بأسَ به حذرًا مما به بأس، وأن يجانب الفضول من المباحات خشيةَ الوقوع في المكروهات، ومجانبة مَن يجاهر بارتكابها ويُحَسِّنها ويدعو إليها، ويتهاون بها، ولا يبالي ما ركب منها، فَإِنَّ مخالطة مثل هذا داعيةٌ إلى سخط الله تعالى وغضبه، ولا يخالطه إلَّا مَن سقط من قلبه تعظيمُ الله تعالى وحرماته»[1].

---

(١) «الوابل الصيب» لابن القيم (ص١٢) وما بعدها.